



نردين أبو نبعة

ربّ إنّي وضعتها أنثى

ربّ إنّي وضعتها أنثى

ربّ إنّي وضعتها أنثى / رواية عربيّة

نردين ابو نبعة / مؤلّفة من فلسطين

الطبعة الخامسة، 2016؛ الطبعة الرابعة، آب، 2015؛ الطبعة الثالثة، 2015



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسيّ:

المصيطبة، شارع ميشال ابي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام

مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت

ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان

هاتفاكس 707891/2 1 961+

e-mail: mkpublishing@terra.net.lb

info@airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص. ب 9157، عمّان 11191 الاردنّ،

هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+

e-mail: info@airpbooks.com

موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:

محمد سيف ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+

لوحة الغلاف: **سليمان منصور** / فلسطين

الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعيّ: **المطبعة الوطنيّة** / عمّان، الاردنّ

ISBN 978-614-419-592-5



نردين أبو نبعة

ربّ إنّي وضعتها أنثى





الإهداء

هذه الحكايا أهديها لأبي وعمي لأنهما منحاني فرصة المشاركة في كتابة ذاكرة غضة . . . طرية عن أهلي ووطني هناك في . . غزة

الإهداء

إليه

مرة ثانية

إلى زوجي

إلى غزّة

هوا

وجاءتني مريم كسنونوة فرت من قفص . . تطير . . صوتُ أنفاسها أخافني لكنّ بريق عينيها أعادني إلى رشدي . . قالت لي :

– سيكون لي ذكريات في وطني ، مثلك بالضّبط ومثل عمّي أبو رجا . . سأشاركك هذه الرواية . . لن أكتفي بدور الرّاوية!!

كلام مريم كان مفاجأة لم أتوقّعها أبدًا . . لم تكن قد ألمحَتْ أو صرّحَت بشيء من هذا القبيل . . ماذا حصل وهي التي تثابر على الحضور عندي بشكل شبه يومي . . تلاحقني . . من هنا لهناك تضغط علي بالأسئلة وتحاصرني لتستخرج منّي الحَكايا والذّكريات . . قد أتكلّم بكلمة لا ألقي لها بالاً لكنّها تودي بها إلى جوف الورقة بسرعة!!

– أقول لها بلاشْ تُكْتُبي ما بِيْسْتاهَلِ الـمَوْضوع يِنْكَتَب عَنُّه . .

تردّ علي :

– يا بابا . . هذه الجملة خطيرة . . وتلقائيّة وتنبض بروح الزّمن الآتية منه . .

أستغرب . . وأقول في نفسي . . شُغْلُها وهي أدرى مني!!

– ما الذي غيّرها . . وكيف ستشاركني الكتابة . . وهي بلا ذاكرة . . تربطها بالوطن!!

مكتبة

أفتح عينيَّ مندهشًا . . وأسألها :

- ماذا حدث من أين ستغرفين حكايتك . . أيّ بئر ستعطيك ما أعطي!!

- قالت وفي عينيها التماع لم أره من قبل :

- سأذهب إلى غزّة!!

**

هي

عندما كنتُ آتي إليكَ . . أستنهضُ ذاكرتك على الكتابة . . أبحثُ في مخبئك عند أطراف الذّاكرة . . أوغِلُ في أحيان كثيرة وأكتفي بالوقوف عند الحدود أحيانًا أخرى . أنشر المبلول وأفرد المَطويّ وأخرج المنسي المتواري . . كنت أكتب وأكتب وفي كلّ كلمة أكتبها أنزع الشّوك من بين أغصان الورد . . أشعر بسعادة ولو للحظات ، لكن في لحظات كثيرة كانت تتجمّد أصابعي لأنّ لك ذاكرة وامتدادًا في الوطن أمّا أنا فكأنّني شجرة (اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار) .

عندما اتصلتْ بي صديقتي إلهام من السّعوديّة وأخبرتني بأنّ وفدًا سعوديًا سيذهب إلى غزّة وكنت قد أسررتُ لها مرارًا وتكرارًا عندما كنت ألتقيها في المؤتمرات الأدبيّة بأنّي أرغب في الذّهاب إلى هناك . . لم أصدّق نفسي وقلت بشقاوة طفلة :

- سأصبح مثل أبي . . لي ذاكرة . . وألبوم صور زيتوني القسمات ، وخابية مملوءة بالقصص وليل يحكي قصّة الفرسان ونهار يُشيّع الشّهداء . . سأسمع مواويل الفلاحين وأطرز مع الفلاحات ثوباً فلسطينيّ الألوان!!

لكنّني كنتُ قلقة ؛ لأنّي أحببتُ أن أنهي الرّواية (رواية أبي

وعمي أبو رجا) قبل ذهابي إلى غزّة فجاءت الزيارة لتغير مجرى قلمي!!

**

هو ١

وتركتني مريم وسافرتْ إلى غزّة . . تركتني بين ذكرياتي وأوراقي ، تركتني أشبه ذلك الطفل الذي نام وعلى خدّه دمعة . . أتسكّع بين ذكرياتي وحدي ، أخيط في المساء ثوب الحكايات ، أبحث عن مرفأ في ذاكرتي يحملني فوق الغيم علّني أرتاح . ستتركني مريم لمدّة عشرة أيّام لتذهب مع قافلة أميال من الابتسامات . . عشرة أيّام كاملة أتفرّس حياتي السابقة في الغربة وحياة أخي «أبو رجا» في الأسر فيبدو لي كلّ شيء باردًا باهتًا!! فقد كانت مريم هي من تسكب رذاذ بردها وسلامها على حكايتي . . تشعلها وتشعلني .

مريم ليست بجانبي الآن لتلتقط على صوت أزيز القلم ما يخيط ثوب روايتها . . روايتي . . سأكتب وأكتب ريثما تعود . . سأترك لأصابعها العاشقة الولهى أن تكتب حكايتها الجديدة مع وطن مخبّأ تحت مسامات الجلد وفوق أجنحة الطير . . ستقفز مريم قفزة زمنية هائلة . . ستذهب إلى غزّة المحاصرة بينما لا زلتُ في ليبيا وما زال أخي (أبو رجا) في الأسر!!

**

هي

حجزتُ تذكرة الطّائرة إلى القاهرة واتفقت مع صديقتي إلهام وجهاد على اللقاء في المطار .

قالت إلهام :

- ما عليكِ شَيْ . . لا تقلقي كلّ الترتيبات جاهزة مثل ما يقولون من الباب للباب!!

صوت ارتطام عجلات الطّائرة في مطار القاهرة . . يذكّرني بهبوط أبي على أرض ليبيا لكنّ شتان ما بين هبوطي وهبوطه!!

هبوطه قيد وسُهْد ومسامير وجع تتحرّش بذاكرة الوطن ، هبوطه تيه فراشة لا تجد نارها . . احتراق الصّوت ورماده . . . أنين ملهوف . . . وتر ممزّق ومفتاح ضائع!!

وهبوطي يحملني من تابوت الغربة إلى حِضْن الوطن . . فأغدو كما الياسمين أرش نثاري لكلّ العابرين!!

كنتُ أركض وراء حروف أبي ، أتعلق بذيل كلّ كلمة كما يتعلق الصغير بذيل أمه وكأنّني كنت أطارد وطنًا في ثنايا الحروف!! أركض بين الحروف والكلمات لعلي أبصر ما لم أبصر وأسمع ما لم أسمع . . لكني لم أكن لأتخيّل أن يقع الوطن بين يدي هكذا فجأة . .!!

وصلنا فندق (كونراد) القاهرة عصرًا وغادرنا بعد صلاة الفجر مباشرة في اليوم التّالي . . الصّور تتزاحم في مخيلتي . . يا تُرى كيف ستكونِ غزّة وكيف سأكون في حضنها؟

في الحادية عشرة ظهرًا وصلنا معبر رفح المصريّ . . عندها أدركتُ أنّي على شفا جرف عالٍ . . أستمطر رذاذًا من بحر غزّة!!

العين خيط من نور يسحق العتمات المنغرسة في أقصى الحدقة ، والقلب الجمرة يلملم الدّم المنطفئ فيغدو الدّم الساكن في الشرايين نبضًا لأوّل مرة ، والشّفة المرتعشة بتعويذة صامتة ينفذ منها الصّوت الدافئ ليستبدل الشّهقة الحرّى بريشة طائرة في باحة الفرح .

في المعبر المصريّ يتهافت الباعة على الحافلة التي تقلنا

وصديقاتي السّعوديّات الأربع . . أنصت لمناداتهم وتحايلهم . ينزل الأخ كرم المرافق للوفد والمكلّف بإيصالنا إلى غزّة ، يأخذ الجوازات . . نبقى في الحافلة . . نمضغ الوقت نتأمّل الوجوه . . والشّجر والحجر وحركة الباعة والمعبر الفقير الجائع الغاضب المطليّ بأنفاس العابرين وصبرهم وولعهم بوطن يسحر الألباب غير أنّه ليس بسحر!!

المئات ينتظرون على المعبر . . بعضهم يفترش الصخر وبعضهم يلعن في السر وآخرون يقطعون الإسفلت ذهابًا وإيابًا وقد أنهكهم الدّوران .

تشعر حبيبة بالتعب . . تحاول أن تخرج من الحافلة لتختبر قدرة قدميها على المشي بعد طول الجلوس لكنهم أشاروا لها بعدم النّزول من الحافلة .

كان كلّ شيء يدعو للقرف تحت وطأة الإهمال والانتظار المبرمج . . إلاّ أحاديث رفيقات الدرب السّعوديّات . . جمعتنا غزّة وإلهام التي كانت صديقة مشتركة ونقطة وصل بيننا نحن الفلسطينيَتين والسّعوديّات الأربع .

في ممرّ الحافلة وقفت حبيبة تحكي :

- أنا أعدُّ نفسي فلسطينيّة من شرق الجزيرة العربيّة!!

- سألتها : كيف انثال حبّ فلسطين في قلبك؟

- من صغري وأنا أحلم بزيارة فلسطين . ما أذكره أنّني كنت يوميّاً أحلم بتحريرها ، أقول في نفسي أخاف أن تتحرّر وأنا في المدرسة ولا أعرف!! ثمّ أعود لأجيب عن سؤالي بنفسي . . بالتأكيد سأرى الرّايات والأنوار تزيّن الشوارع عندها سأعرف بالتحرير . . الآن أضحك من نفسي وأفكاري!!

- تقاطع إلهام حديث أختها حبيبة تقول : أَبيْ أَقولْ شَيْ عن حبيبة يهَبِّل :

_في إحدى المرات وصلت هدية لحبيبة «زجاجة زيت زيتون» من زيت الشّجر المزروع في ساحات المسجد الأقصى ، وعندما طلبنا منها أن تفتح الزجاجة لنأكل منها رفضت رفضًا باتًا .

قلتُ لها : طَيِّبْ ما تبيْن ناكُلْ منها نِبيْ نِدْهَنْ بْها!!

رفضت وحذرتنا من الاقتراب ، وبعد أيّام قليلة أتت بعلب زجاجيّة صغيرة جداً لا يتجاوز حجمها إصبع اليد الصغيرة . . ملأت القوارير بزيت الأقصى وحجزتْ قاعة كبيرة في الحسا وقامت بعمل محاضرة عن الأقصى . وفي نهاية المحاضرة أخذت تنادي وهي تحمل قوارير الزّيت :

_من يشتري زيت الأقصى؟ من يشتري زيت الأقصى؟ فباعت القارورة الصغيرة بألف ريال فهي ماركة مسجّلة!! جمعت مبلغًا كبيرًا جداً وطيّرته فورًا إلى العائلات المقدسيّة!!

أفكّر في كلامها وأنا التي كنت أشعر بأنّني شجرة بونانزا قزمة لا تستطيل . . فلسطينيّة قد نحل قلبها وضمر ولا تجد من تستند إليه . . الآن أهدأ . . . أفرح بصمت تغالبه الدموع . . أعود رشيقة وخفيفة لأنّ هناك من يسندني!! أظلّ أعيد كلماتها وكأنّها موّال أطرب لسماعه ولا أملّ!!

بنظرات ساخرة ، اقترب من الحافلة جنديّ مصريّ . . أدخل رأسه من النافذة ، ثمّ قال كلمتين لا ثالث لهما :

- السّعوديّات يْخُشُّوا والأردنيّات يِرْجَعوا!!

كنّا أربع سعوديّات وفلسطينيّتان نحمل جوازات سفر أردنيّة . .

مسّ الفرح والشّوق أضلعنا . أعتقد أنّ ساعات الانتظار الطويلة على معبر رفح تشبه ساعات الانتظار على جسر اليهود كما كنت أسمع من أقاربي وصديقاتي!! حاولت أن أقفز عن الفكرة مع أنّني أتلوى ألمًا!! لكنّ ما آلمني حقًّا أن ينفثوا السمّ في دمي وينفوني من جديد لا لشيء إلاّ لأنّني فلسطينيّة!!

أفِرُّ من اليهود . . إلى الوَحشة والظّلمة . أراود إخوة يوسف . . حلمي الجائع . . أصحو على وخز دبّوس صدئ .

يتلاطم الشّوق والدّمع في مآقي أعيننا . . نهفو للدمع كي يريحنا لكنّه ظلّ يتماوج أسيرًا للحدقة ثمّ ما لبث أن سال على حين غرّة!! حينها صرخت بثينة :

– لا والله ما ندخل فلسطين إلاّ والفلسطينيّات معانا!!

مضت ربع ساعة أخرى من الصّمت والمعبر أمامنا غَباش لا نرى شيئًا ولا نسمع أحدًا!!

غبش يظلّل كلّ المشاهد الحاضرة حولي فلا أستطيع أن أميّز بين الأشكال والألوان والأشياء!! الحجر والبشر عندي سواء!! بريق عمري المنقضي . . يلتمع أمامي في لحظة فيغدو رمادًا .

أسمع الحوار الذي يدور بين كرم والضابط المصريّ . أتمتم بدعاء أوصتني به أمّي يومًا عندما تشتدّ الظّلمة حولي فيغدو القلب ماء أرشُّه بريدًا إلى غزّة التي لا تبعد عنّي سوى مرمى حجر!!

أتأمّل المعبر المصريّ وأتساءل :

– هل سأجتازه يا ترى؟ أم سيخترعون لي مشكلة يلفّقونها لي في اللحظة قبل الأخيرة؟

– هل سيعيدونني إلى القاهرة ومن ثمّ إلى عمّان؟ هل سأتحمّل أن

أعود بعدما شممت ريح غزّة دون أن تطأ قدمايَ أرضها؟

– من أين لي بالصّبر يا ربي؟ ماذا سأقول لأطفالي الذين ينتظرون جعبة الأخبار التي أحملها بنطاقي؟

– لا بأس إن قلتُ لهم إنّ الظّلمة والجمر يسكن في بلاد العُرْب أوطاني!! يروعنا الجمر، يسكبونه على أيدينا وفوق رؤوسنا حتّى نيأس ونستسلم ولا نعود إلى هنا!! يحاولون أن يُغلقوا المُقل حتّى لا يروا في مرآة أَعْيُننا فلسطين.

سأبقى على المعبر، لن أرحل قبل أن أدخل غزّة، كنتُ أسمع عن المئات ينامون على المعبر ويُمنعون من دخول غزّة ولكن هذا قبل رحيل الاحتلال.. والآن!!

من بعيد يلتمع بحر غزّة كسَيْف. في كلّ موجة يزغرد عطشًا للحرية وظمأ للحياة. في كلّ موجة إخاله يفتح ذراعيه لأتزوّد بشَرْبة منه. فأنا أعرف طريق الآبار والينابيع ولكنّه يعرف إن أنا شربت منه فلن أظمأ بعدها أبدًا.

سأبقى أنتظر حتّى يأتيني الإذن بالدخول.. سأنتظر وأنتظر قبل أن أتبيّن أنّهم يمارسون استفزازًا ومطاردة وطن في أضلاعي. سأنتظر قبل أن أتبيّن أنّهم يدحرجونني من علٍ ليمسكوا بي فُتاتًا. ولكن أنّى لهم.

أجلس على الكرسيّ الأماميّ للحافلة.. أُخرج أوراقي وقلمي.. أكتب كلماتي التي لو بقيت لنفثت السمّ في عروقي.. أعيد كتابتها لتخرج أكثر أناقة وأحدّ لسْعًا!! أقرأها على رفيقات دربي لأصحو فجأة على أصوات جلبة في الخارج تأمرنا أن نتوجّه فورًا إلى مكتب المخابرات المصريّة!!

دخلنا إلى غرفة ضيّقة فيها مكتبان وصفّان من الكراسي على

شكل حرف (لـ) . على كلّ مكتب يجلس ضابط أحدهما يدخّن ويثرثر على الهاتف همسًا بصوت بالكاد يُسمع . أما الآخر فهو يقلّب جوازات سفر ليست لنا . . عرفتها من لونها ، أمّا جوازات سفرنا فقد بقيت ملقاة بلا مبالاة لمدّة ساعة كاملة .

ساعة كاملة ونحن ننتظر إشارة ، أخيرًا أمسكَ بالجوازات نظر إليها بسرعة ثمّ قال :

- بالسّلامة!!

أيها الضابط المصريّ . . لماذا تصرّ أن تمارس دور جنديّ الاحتلال حتّى بعد زواله؟ لماذا تصرّ أن تذكّرني بمنفاي وأشلائي المتناثرة هنا وهناك؟

- لماذا تصرّ على القتامة مع اشتداد النّور وإصراره على البزوغ؟

ظننتك ستحقّق معي ، تستجوبني ، تسألني ، لكنك حتّى لم تنظر لوجهي إمعانًا في إذلالي . كلّ ما أردتَه هو أن تسحق فلسطينيّتي وأن تمرّغ أوراقي المزهرة في التّراب وتنثر إنسانيّتي على صفيح ساخن .

نخرج من الغرفة الضيّقة كضيق عقولهم وعواطفهم . . الغرفة ذات الرائحة العفنة المختلطة بدخان السجائر إلى صالة واسعة تخلو من النظافة والترتيب . . تصطفّ فيها كراسي حمراء بشكل متوازٍ . في أقصى الصالة كشك يبيع المشروبات والسكاكر والشيبس .

الشّبابيك بإطارات حمراء من كثرة اتّساخها لا ترى من خلفها . الأرض سوداء . على أوقات متباعدة تتمّ مناداة الأسماء بشكل رتيب مملّ حتّى يفقد المريض وكبير السنّ والزائر صبره ، وحتّى يذكّروك بأنّ الاحتلال ما زال جاثمًا على صدرك وإنْ ولّت أيّام حسني مبارك فما زال فلوله يمارسون دوره!!

الهبوط الأول
هو ١

يا ترى ما هو شعور آدم عندما هبط على الأرض لأوّل مرة؟ أيشبه شعوري الآن؟ تِيْه فراشة لا تجد نارها . . احتراق الصّوت ورماده؟ . . أنين ملهوف؟ . . وَتَر ممزّق؟ مفتاح ضائع؟ . كلّ ذلك هو شعوري لحظة هبوطي على هذه الأرض!!

أغادر عمّان ولم يكن قد مرّ على زواجي سوى ثلاثة أشهر ، حيث تعاقدت مع وزارة المعارف الليبيّة في ١٩٦٩/٥/٧ براتب يفوق أربعة أضعاف ما كنت أتقاضاه في الأردن . كانت ليبيا آنذاك مملكة يرأسها الملك إدريس السّنوسيّ وكان من المقرّر أن أسافر إلى ليبيا في ٦٩/٩/٧ وضعت التّأشيرة على جواز سفري باسم المملكة الليبيّة وبينما كنت أُعدّ نفسي للسفر حدث انقلاب في ليبيا بقيادة الملازم أوّل معمّر القذافي .

عندما قدّمت استقالتي من وزارة التربية والتعليم الأردنيّة . . أصرّ مديري على بقائي في المدرسة - وكان هو الذي طلبني شخصيًا من إدارة التعليم- لا سيّما وأنّه كان مدرّسًا لي من قبل . ويعرف أنّني من الأوائل على معهد العَرّوب في الخليل ، لكنّني قلت له يومها :

- ثمّة وطن قد فقدته هناك . . فكلّ البلاد بعده سواء!!!

شُطبت التّأشيرة الأولى ووضعوا لي تأشيرة جديدة باسم

الجمهوريّة الليبيّة وتقرّر سفرنا أنا وبشرى في ، ٦٩/٩/٢٦ .

كان آخر راتب حصلت عليه هو ثلاثين دينارًا . ثلثه يذهب أجرة لما يسمّونه مجازًا سكنًا ، غرفة وحمام ومطبخ مهترئ في حيّ المحطّة بعمّان . أما الباقي فكان بالكاد يكفينا لا سيّما وأنّ أمّي كانت تعيش معنا وكنت أبعث بمساهمة مالية في تعليم أخي عبد الله حيث كان يدرس في جامعة بغداد .

خمس سنوات هي مدّة إقامتي في عمّان . مدرّسًا للغة الإنجليزيّة . راتب أوّل ثلاث سنوات بنيت بها بيتًا لأخي (أبو رجا) في الزّاوية ردًا لجميله . لقد كان بيتًا من الحجر المسمسم ، أشجار الزّيتون من خلفه ، وأمامه خمسة دونمات من أشجار التّين والعنب والليمون والصّبّار والكوسا والبطاطا والسّبانخ والبصل والملوخية والبامية والفاصوليا وكلّ الخَضراوات في وقتها ، عندما تقف على شرفة المنزل ترى الطّائرات وهي تهبط في مطار اللدّ . من الشّمال ترى قرى مسحة وعزون وعتمة ، وحين تقف على الشّرفة الجنوبية ترى قرى رافات ودير بلوط ، وإذا وقفت على شرفة غربية ترى الأرض المحتلّة أمامك . أما السّنتان التّاليتان فقد جمعتُ فيهما المهر لأتزوّج .

خمس سنوات في عمّان لتبدأ بعدها رحلة الاغتراب من جديد وكأنّ قدر الفلسطينيّ البحث عن حتف جديد . . عن لقمة بطعم صبّاري . . عن نسيان يرشف الذكرى!!

لم أكن أعلم أن رحلة الاغتراب ستطول وتطول وأنّ حلم العودة يزداد بعدًا يومًا بعد يوم . . أربعِون عامًا قضيتها بين مغرب العالم العربيّ ومشرقه . . بينما وطني الذي اقتلعت منه تتخمّر فيه نبرة العتاب وتعبق فيه رائحة الدم .

الآن أركب الطّائرة بصحبة زوجتي بشرى من عمّان إلى بيروت إلى طرابلس الغرب حيث وصلناها وقد أرخى الليل سدوله .. ثمّ نُقلنا إلى نُزُل في تلك المدينة وكان بصحبتي العديد من المعلّمين .

نمتُ أوّل ليلة غربة .. هل نمتُ حقًا؟ ها أنا أستبدل مدينة بمدينة .. مدينة جديدة أحاول أن أستكشف تقاسيمها وأخلع معطفها الليلي لأراها بوشاح الصّباح البهيّ .. لم تغمض لي عين حتّى قطفتُ باكورة الشّمس ثمّ رحت في سبات عميق!!

في الصّباح المتأخّر ذهبت إلى وزارة المعارف الليبيّة فعُيِّنت في مدينة الزّاوية الغربية!! وليس أصدق من دقّة القلب ورفّة الرمش حين يلوح اسم الوطن مرّة أخرى .

ها أنا أكتشف أنّ للوطن امتدادًا سحريّاً وأنّ الوطن قد ينبعث من صقيع الغربة!!

الزّاوية مرّة أخرى!!

عُيِّنت في مدرسة الزّاوية الثانويّة ومن هذه المدرسة الوحيدة في المدينة تخرّج عضوا مجلس قيادة الثّورة الليبيّ وهما الخويلدي الحميدي ومصطفى الخروبي وهما العضوان اللذان بقيا مع العقيد حتّى آخر لحظة في حياته وسلّما نفسيهما إلى الثّورة الليبيّة التي اندلعت في ٢٠١٢/٢/١٧ .

في نفس اليوم استأجرت شقّة بمبلغ خمسين دينارًا من صاحب الصيدليّة المقابلة للبريد ، بتنا في تلك الليلة في منزلنا الفارغ إلاّ من فرشة ومخدّتين وغطاء اشتريتها كلّها على عجل . نمنا في ذلك المنزل الذي لا يبعد عن المدرسة سوى مئة متر في طريق فرعيّ وترابي متفرّع من الشّارع العامّ الوحيد المسفلت في مدينة الزّاوية ، تحيط بالبيت

أشجار البرتقال . . أقطف برتقالة . . أندهش من رائحتها ، من لمعانها وتمايلها بين أصابعي العاشقة الولهى!! إخالها برتقالة فلسطينيّة تدحرجت لتنقر على زجاج غربتي معزوفة سكينة وأمان!! أمسح عليها بكلتا يدي . . أشعر بوخزات في صدري فلن أحتمل المزيد . . ما أصعب أن يكون وطنك في يديك ولا يكون!! في الساحة الخلفيّة للبيت أرى أشجار الصّبّار!! الصّبّار الذي ينبت حول دارنا في الزّاوية الفلسطينيّة!!

أكانت مفارقة؟ أم مصادفة؟ أن يطارد الصّبّار صدرًا يمور بالنّار!! لماذا يصرّ هذا النبات الشّوكي الذي أعشقه وأتقن تقشيره كنساء الزّاوية . . لماذا يلاحقني وينغرس في أحلك ساعات حرماني وخذلاني؟ أتراه جاء خصيصًا لمواساتي؟ كم يدهشني هذا الصّبّار بأصابعه الشّوكية التي لا تعدّ ولا تحصى وهي تخطّ على جرحي دِثارًا يهدهدني!!

لأوّل مرة . أشعر بأنّه حانٍ كحضن أُمّ . باسمٌ كوجه السّماء . ترى هل سيصبح الصّبّار حِرزي القادم عندما أوشك أن أغفو؟ خِفت لوهلة . خفت أن أتيه في تيارات ريح الغربة فجاء ليعلّمني كيف تتّزن أجنحتي . وكيف أتحكّم في بُوصُلَتي رغم سفري الطويل ، جاء ليعلّمني الحذر من عبث الغربة بذاكرتي!!

أنت هنا في الزّاوية . . ها هي الزّاوية تفرش خضرتها من جديد تشمّ رائحة بحرها تحسّه لزجًا ، دبقًا ولا تراه!!

ذهبتُ إلى المدرسة . . ملأت نموذجًا للتّعبئة يُملأ من قبل كلّ مدرّس جديد . . من ضمن النّموذج مكان الولادة فكتبت الزّاوية فلما قرأه المدير قال لي :

– هل أنت من الزّاوية؟ من هنا؟

- قلت له أنا من الزّاوية بفلسطين!! حضنني وهو يضحك مرحبًا مردّدا :

- سبحان من دحاها!!

بعد أيّام قليلة استلمت مبلغ خمسمائة دينار ، راتب ثلاثة شهور وكان هذا المبلغ نصف المبلغ الذي كنت أحلم أن أملكه وهو ألف دينار .

الزّاوية مرّة أخرى . . ويرفض طعم زيتونك أن يفارق لساني وترفض ريحك الزّاهية إلاّ أن تداعب قسماتي ، كنت أتوقّع أن أشدّ على جرحي من ملح الغربة وغربة الفلسطينيّ ليست كغربة غيره!! فكانت الزّاوية الغربية بلسمًا لي من نزف آمالي . ها هو نشيد بيّارات البرتقال يعلو وتراتيل الزّيتون تزهو ، ها هو الصبّار ينبض فيها فلا أغفو . كلّ ما فيها يذكّرني بزاويتي الفلسطينيّة فتخضرّ فيّ حقول الفرح وتنثر على صفحة قلبي الرّواء .

أحببت ليبيا ، وأحببت الزّاوية بالذّات ، وأدركت أنّ الله يغدق عليّ وأنا أتمطّى في مرقدها من جديد ، وكأنّ الله يهدهد وجعي المتوالد . عشقتها ، وعشقت أهلها البسطاء الطيّبين مع أنّني استغرقت وقتًا ليس بالقصير في فهم لغتهم . فاللهجة الليبيّة مزيج من العربيّة وبعض التّعابير الإيطالية ، ولكن باستعمال العربيّة الفصحى تغلّبت على هذه المشكلة .

ها هي الزّاوية الغربية تحتال على حزني وشتاتي ، تعيد ترتيل أيّامي القادمة ، ترسم بظلال الزّيتون قناديلي التي تأبى الانطفاء ، أزهو بها وتزهو بي ، هي منّي وأنا منها .

هو ١

أتذكّرني يدَ طفل وليد تعاتب إصبع الأبوّة الهاربة! دمع خجول يعانق الصّبر ولا حقّ له أن يترافع عن حقّه الضّائع . أطبقتُ الجفن على الجفن وعجلات الطّائرة توشك على الهبوط في مطار طرابلس الغرب . وما بين أجنحة الطّائرة وحوافّ اليد الوليدة الرّقيقة التي كانت تشدّ بقوّة على إصبع الأب ، تتسابق المشاهد والصّور لتثير غبار أيّام صارخة هزّتني بقوّة ، نخرت عظميّ ، لكنّها على أيّة حال صنعت منّي رجلاً . أضاءت لي خطواتي نحو الشّمس .

تُرى بأيّ كلمات سأستقبل أبي وزوجته وأبناءه الجدد؟ أيّ دمع سأخبئه؟ كيف سألوّن الكلمات الباهتة التي أشعر بألوان زاهية تناسب مقام الأبوّة؟

لم أحفظ ملامح أبي . فقد تركَنا وأنا في صفّي السّادس . صورته في خيالي مرتعشة . كنتُ أحاول التحدّيق أكثر وأكثر في تلك الصّورة القابعة في أبعد نقطة من شطْر دماغي . أجمع ملامحه المتناثرة ، عينين بلون أزرق ، أنف مُسَمسَم دقيق ، شعر مسترسِل وكأنّ الماء يقطُر منه وبشَرة صهباء مليئة بالنّمش . كلّ تلك الملاح حاضرة لكنّها متفرقة . لم أستطع أن ألملمها فقد كانت أشتاتًا يستحيل أن تُجمع في صورة واحدة مع أنّي أمضيت وقتًا طويلاً في جمع شتاتها المتّقد إلاّ أنّها كانت تتحوّل إلى غبار فجأة . تُرى هل سأتعرّف عليه بسرعة ولم تصلنا

منه لا صورة ولا قرش واحد طوال السّبعة عشر عامًا التي قضاها في البرازيل؟ أم سأكون مثله أضعْتُ البوصلة؟!! لكنّني ما زلت أذكر أنّه كان سيّد رجال القرية ومختارها ورِث المخترة عن أبيه وأمضى وقتًا طويلاً في حفظ القرآن الكريم وقصص الزّير سالم ، كان حنونًا وعلى البنات بالذّات فعندما جاء بعض الأقارب يريدون أن يزوّجوا أختي عائشة لأحدهم ولم تكن راضية وقامت أمّي ووضعت الشّاشة البيضاء خاصّتها برقبة والدي وقالت له :

- الخطيّة برقبتك لا تِكْسِرْ خاطِرْ هالبِنْتْ وَتْجَوِّزها لَواحَدْ ما بطِّيقه . استجاب والدي لطلب أمّي فورًا .

كان أبي مناضلاً شرسًا ضد الإنجليز قبل أن يُسلِّموا بلادنا إلى اليهود . وعندما سجن في سجن جنيد في نابلس ذهب ابن عمّي لزيارته وقد تعاظم لديه شعور الفخر بعمّه المناضل لدرجة أنّه عاد إلى أبيه لائمًا . . .

- لماذا لا تكون مناضلاً كعمّي مطر؟

ردّ عليه :

- إنيّ أُمدّ الثّوار بالمال لشراء الأسلحة فالمقاومة لها أشكال وصور ، وعمّك مطر يقاوم بجسده وأنا أقاوم بمالي فسكت ابن عمّي على مضض .

كان ذلك في مطلع الأربعينيّات من القرن الماضي . بعد ذلك بزمن أيّ في الخمسينيّات سافر العديد من أقارب أبي وأبناء عمومته إلى البرازيل وسافر أبي وراءهم .

وهكذا كان مختار القرية الوجيه الوسيم المثقّف المناضل المشهور بصدقه وإصلاحه بين النّاس وصداقاته الممتدّة من شمال فلسطين إلى

جنوبها ، فقد كان له شهر سياحة واستجمام في كلّ سنة يتجول فيها من قرية إلى قرية ليزور أصدقاءه الكُثر وكانت عبارته المشهورة : اجعل لك في كلّ قرية جامعًا . . يقصد اجعل في كلّ قرية صديقاً .

أقول ، كان أبي الرقراق الوسيم سببًا في سقي أمّي السمّ!! سمّ ليس له رقية ولا دواء . كان سببًا في عذابها ، وجرحها وهي السّمراء النّحيلة المتوسطة الجمال الأكبر منه بعامين . كان سببًا في إشعال ضلوعها بحريق سيطول ويطول . ذلك الرّجل الذي سافر في ليلة ما فيها ضَوْ قَمر إلى البرازيل مخلّفاً وراءه زوجة وخمسة أطفال وليس في البيت سوى عشرة كيلو طحين .

لاحقًا سأعرف من (دونا آنا أوليفرا) أنّ أبي عندما تزوّجها قال لها إنّه أرمل وهو صادق في ذلك ؛ لأنّه أرمل في البرازيل (زوجته سيسليا كانت قد توفّيت بعدما أنجبت له طفلين : جميل وجمال) ، وعندما اكتشفتْ حقيقة أمره وأنّه متزوّج من البلاد وطلبت أن يرسل نقوداً إلى أولاده ، قال لها : هؤلاء أغنياء ويدوسون على السّجّاد ولا يحتاجون سوى الملح والسُّكّر فكلّ شيء متوفّر وموجود . ولما رجعت «دونا آنا» إلى الزّاوية ووقعت على الأحجار وانكسرت يدها قالت ساخرة وهي (تَرطِن) برازيليّ (هذا هو السّجّاد الذي حدّثني عنه الحاج مطر) وإذا به يقصد بالسّجّاد التبن على البيدر .

سبعة عشر عامًا متواصلة خالية من الرّسائل إلاّ ما ندر . كانت هذه الأعوام كافية كي تتعلّم أمّي كيف تُطعمنا وتهدهدنا وتفتح ذراعيها كلّ مساء للصبية الصّغار ؛ تغنّي لهم وتطرز بدمعها السخي قصّة عودة الغائب .

مع كلّ هذا الغياب فقد أتقنت كيف تجعل غيابه بردًا وسلامًا

علينا . كانت كلماتها عنه تشفّ عن صدر مليء بالورد وبالود!!!

عندما سألتها ذات مرة :

- هل تحقدين على أبي وقد تركك مع خمسة أطفال بلا مال ولا معيل؟

- قالت : إنّ أباك سيّد الرجال ، لا يوجد رجل مثله أبدًا ، لم أسمع منه يومًا كلمة تكسر خاطري ، لم يسبّني . . لم يشتمني . لا أتذكّر أنّه قال لي يا مايْلِة تْعَدّلي .

كانت بكلماتها تخطّ في قلوبنا شوقًا وشعاع أمل بلقياه . لكنّنا ونحن الصّغار وببصيرتنا ودقّة أجهزة الاستقبال لدينا ، كنّا ندرك ما خفي عن أسماعنا ، فما حسبناه نهرًا فراتًا في قلبها يتحوّل في لحظات سُهادها إلى مِلح أُجاج ؛ عندما أصحو في منتصف الليل فجأة لأرى عيونًا قد أعياها الأرق . دموعًا تحاول أن تصبغها بصبغة رضا . لكن أنّى . .!!

من تخسر زوجًا تفقد شراعها . فإذا ما هبّت ريح الفقر تمايلت بها الأمواج . هل هذا صحيح؟

لا . . لأنّ أمّي كانت قويّة لدرجة أنّها أغرت القارب بأن تكون شراعه على ضعفها ورقّتها . قويّة لدرجة أنّها قادتنا إلى المرفأ وبكلّ أمان . حمتنا من الغرق . من التّيه وحتّى من الحزن . وكأنّ من تخسر زوجًا تكسب أطفالاً!!

كانت لا تشكو البتّة . ولعلها أدركت وهي الأمّيّة التي لا تقرأ ولا تكتب ـ أنّ أحدًا في كلّ القرية لن يهتمّ لبؤسها وحاجتها حتّى (لجَلَنْ زِيْت) . فعندما ذهبت لتطلبه من أحد أقاربنا قال لها وبجلافة :

- هالمَرَّة إِيْجيْتي تُطْلُبي المْرَّة الثّانية بَقُصْ رِجْلِك!!

أتراها كانت تعرف مقولة لوهولتز (لا تخبر النّاس عن مشاكلك . فثمانون بالمائة لن يهتمّوا والعشرون بالمائة الباقون سعداء لأنّ لديك مشاكل) .

سبعة عشر عامًا متواصلة ومع كلّ جفاف العروق في أجسادنا كانت لا تكفّ عن تعليمنا مهارة حسابية من أصعب المهارات التي جعلتني أبرع فيما بعد في الحساب . لقد علّمتنا كيف نعدّ النعم التي أنعمها الله علينا قائلة :

- صحيح أبوكم ما ترَكْ إِلْنا إلاّ عشرة كيلو طحين!! إلاّ إنّه تركْ إلنا أَرْضْ يِسْرَحْ فيها الخَيّال نِزْرَعْ وْناكُلْ ، وْدارْ تْلمْنا وْغَنَمْتينْ نِحْلِبْهُم ، وْدَجاجاتْ وْدِيْك!! ضحكت بعد ما انتبهت لنفسها وقالت :

- حتّى في هاي بيعَدِّد . . دجاجات وديك!!

ورويدًا رويدًا كثر عدد الدجاجات «فراحَتْ» تبيع البيض للباعة المتجوّلين مما وفّر لها ولنا دخلاً معقولاً بحيث لا نحتاج قريبًا ولا غريبًا!!

يا تُرى هل سأعود إلى الزّاوية وآكل من بين يديك صينية الباذنجان التي تضعينها في الطّابون . أتذكّرك وأنت تصنعين الطّابون ، فقد كنتِ من أمهر نساء البلد في صنعه تحفرينه بيديك في الأرض وتجعلين له فتحة من أعلاه وتلُمّين الحصى وتضعينه داخله ثمّ تأتين بالزّبل كي يسخن الحصى الذي بداخله ، تشوين داخله البطاطا وتخبزين الخبز الأسمر . وكان خبزك أشهى ما أكلت!!

كنتِ لا تتركين الأرض فارغة . تزرعينها بندورة ، بازيلا ، فول أخضر ، ملوخية ، سبانخ ، كلّ شيء في وقته . لم نكن نشعر بالجوع معك أبدًا . كنت تتدبّرين أمرك لا أعرف كيف!

لا أتذكّر أنّي أكلت لحمًا في طفولتي أبدًا ، إلاّ في العيدين . وكان

فطورنا الدائم خبزًا أسمرَ تخبزينه في الطّابون ورَصيص[1] . وإذا كانت الدجاجة قد باضت تسرعين وتطعمينني إيّاها فيكون ذلك يوم عيد ثالث ؛ فقد كنّا نشتري بالبيض سكّرًا وشايًا حتّى أنّ اليهوديّ كان يقول (فلاح مجنون يْبيْع بيض كانون) .

يأتيني طيفك الآن وفي هذه اللحظة بالذّات لحظة إعلان وصول الطّائرة من البرازيل . أراك وقد وهن العظم منك واشتعل الرّأس شيبًا . . قد زاد جمالك . لم تكوني جميلة وأنت صغيرة . أتراها الأمومة المحاطة بالدعوات والتي تُفتح لها أبواب السّماء تلقي عليك مزيدًا من النّور والطّمأنينة؟

أتذكّرك وأنت تضعين حصّتك من الطّعام القليل الذي بالكاد يكفينا أمامي . وعندما نأكل على مائدة دسِمة ونكون قد ذبحنا دجاجة أو أرنبًا أو زوج حمام تنتظرين حتّى نأكل جميعًا وتتأكّدين أنّ الكلّ شبع فتأكلين ما تبقى!! أتذكّرك ولم تكوني تملكين من النقود شيئًا وعندما تأخذين عيديّتك من أخيك صابر ولم تكن تتجاوز الخمسة قروش ، كنت تسرعين وتعطينني إيّاها .

في هذه اللحظة بالذّات عندما أطل وجه أبي وزوجته وأولاده الصّغار أحنُّ كي أقبل قدميك وأمسح دخان الطّابون العالق بوجنتيك . أتوق كي أسنِدَك على كتفي . الآن في هذه اللحظة أشتم رائحة مسبَحَتك الزّيتونية فأحتمي بدعائك . أدعو الله أن يطيل في عمرك . . أحبّك وأصرخ بأعلى الصّوت المخنوق : أحبّك بالثوب الفلاحي الذي تطرّزينه بيديك ، ألواناً ولا أبهى .

(١) رَصيص – الزيتون .

ها أنا أبكي وأنا أنظر للأقارب المجتمعين لوداع أبي . هذه الليلة السابقة لسفره . كان منتصف العام الدراسي قد انتهى وأخذت شهادتي وكان ترتيبي السّادس على الصف!! البيت أضواؤه خافتة . العَشاء كان «مْشاط» زهرة .

وكنت أتعمّد أن أتوارى عن الأنظار . لا أريده أن يراني . أبكي ولا أعرف هل كان بكائي بسبب سفر والدي أم بسبب خوفي أن يرى شهادتي؟

الأعمام والعمّات والأخوات والأقارب كلّهم مجتمعون عند الباب . عند لحظة العناق الأخير كنت أسمعهم يقولون :

- لا تِنْسَانا مِنِ المكَاتيْبْ يا حَجّ مَطَر .

السّاعة السّابعة صباحًا

اليوم الأحد .

التاريخ ١٩٥٦/٢/٣

المناسبة : سفر والدي إلى البرازيل .

الطّريق المسلوك : الزّاوية-القدس-مطار شُعفاط ومنه إلى بيروت ، ثمّ ركوب الباخرة والسفر لمدّة شهر في البحار والمحيطات قبل الوصول لميناء السانتوس في البرازيل .

العائلة المتخلفة وراءه :

زوجة في السّابعة والأربعين .

الأخ الأكبر في السّابعة عشرة (أبو رجا)

أخت في سنّ السّادسة عشر (عائشة) .

أنا في سنّ الثّانية عشرة .

أخ أصغر (عبد الله) في سنّ السّادسة لم يدخل المدرسة بعد .

وأخت كبرى متزوّجة (وجيهة) .

وضع يده في يدي وأمسك بها . لقد كانت تبدو مشقّقة وضخمة من الحراثة!! إلاّ أنّها كانت حانية ودافئة . لقد أمسك بي في اللحظة التي تركتَ فيها يدي يا أبي . إنّه أخي الأكبر أحمد (أبو رجا) .

كثيرًا ما تعاودني صورته وصوته الحازم وأنا أحلق ذقني لا أدري لماذا وأنا أحلق ذقني!! يقول لي بديلاً عنك :

- إمّا أن تصبح مثل هؤلاء (أولاد عمك المعلّمين) وإمّا أن تصبح حرّاثاً مثلي . لك الخيار . ولقد كان أولاد عمّي والذين أمسك أبوهم بأيديهم قد تخرّجوا وصاروا موظّفين ومعلّمين وكان المعلّم شيئًا أبّهة ما بعدها أبّهة!! وبدت عليهم ملامح النّعماء والثّراء واشتروا طقم «كنبايات»!! في الوقت الذي كانت تخلو فيه بيوت الزّاوية من أيّ أثاث سوى الفرشات واللحف ، والبعض كان عنده أسرّة من الحديد أو الخشب .

لقد تعلّمت الدرس جيّداً وكنت لا أمشي إلاّ مع الأولاد «الشّاطرين» بناء على وصيّتك المتكرّرة :

- إيّاك أشوفَك بْتِمْشي مَعْ واحَدْ تِيْس . بَقْتْلَك . لا تِمْشِ إلاّ مع الشّاطرين .

دقائق ويخطو أبي سلّم الطّائرة حيث أنتظره بصحبة زوجتي وابنتي مريم . ترتعش أناملي وينبض قلبي بقوّة كما كان ينبض يوم نتائج التوجيهي!!

لا تسألني عن نتيجتي . فقد اشتريت أكياسًا من الحلوى قبل ثلاثة أيّام من صدور النّتائج وعندما مرّ ابن عمّي عبد الحميد مستغربًا :

- أتشتري الحلوى قبل ثلاثة أيّام؟

- هل أنت متأكّد من نجاحك؟

قلت له :

- حتّى لو لم ينجح إلاّ طالب واحد سأكون أنا!!!!

هل أحكي لك أنّي ما فقدت بوصلتي ببعدك عني؟ لأنّ أخي الحبيب صنع لي تعويذة تحفظني من التّيه . كان يهتمّ بأدقّ التفاصيل في حياتي . يسأل عن كلّ شيء ويرتّب لي أموري . ما زلت أذكر أوّل مرّة غادرت فيها بيتنا . كنت في الصّفّ الأوّل الثانويّ . ذهبت لأدرس في بلدة سلفيت وقد عهدني إلى صديق له اسمه (إبراهيم الخضر) أسكنني عنده في بيته عاهدًا إليه الطّعام والشّراب والمراقبة . كنت أدخل إلى دار ذلك الرّجل الطّيّب بعد مروري من زقاق أقابل بعده عدّة نسوة كبيرات في السنّ جالسات أما بيوتهنّ ، ثمّ أصعد إلى درج يوصلني إلى غرفتين مع المنافع . كنت أنام في غرفة وينام ذلك الرّجل الطّيّب في الغرفة الأخرى مع زوجته وأولاده . يحضرون لي الوجبات الرّئيسيّة من فطور وغداء وعشاء ، وكان الفطور يتكوّن من خبز الطّابون السّاخن وزيت الزّيتون مع إبريق الشّاي . كان إبراهيم الخضر يوصي ولده بأن يفعل كما أفعل .

- إذا دَرَسْ عبّاس أُدْرُس مِثْلُه . وإذا نام نام مِثْلُه . وإذا فَتَح كْتابِ العربيّ أدْرُسْ عَرَبيّ وإذا فَتَح كْتابِ الرّياضيّات افْتَحْ كْتابِ الرّياضيّات .

لقد كان يطارد النّجاح والتفوّق في ذلك الفتى الذي بعثره هجر الأب ولملمته الكتب!!

أَلِفْتُ هذه الحياة الهادئة الساكنة وإن كنت أتمنّى أن أكون رفيقًا لأحد الزملاء يشاطرني غرفتي هذه ؛ لأنّني كنت أشعر بغُصَّة وأنا أرى

هؤلاء الأطفال يتوهّجون دفئاً على دندنة الأبوّة .

في الليالي الباردة كانت أمّ إبراهيم الخضر الختيارة تبعث بأحد أحفادها ليناديني لأجلس بجانب كانون النّار وتبدأ بالحديث :

- كيف حالك يا ستّي؟

- أنت أخذت الأول؟

- إنت أشطر من ابن الزّير؟

- أقول : آه يا ستّي .

- رِيتْ أمّك جابَتْ عَشَرة مِثْلَك . الله يْخَليك لأُمك يا ستّي . الله يِسْعدِ البَطْنِ إلّي جابَتَك .

أذوب خجلاً كقطعة سكّر حين أمرّ أمام النّسوة المتحلّقات أمام بيوتهنّ وهنّ يشرن علي .

- هذا الوَلَدْ اللّي جاب الأوّلْ على سَلْفِيت . فتدعو الأخريات . اللهِ يسْعِدِ البَطِنْ إلّي حَمَلُه .

في هذه اللحظات تُلحُّ عليَّ أسئلة طالما راودتني!! أسئلة تحيّرني ، تخيفني ، وتجعلني أقف على رؤوس أصابعي ترقّبا!! هل سيشعل نور وجهكَ ظلمة البئر التي رميتني فيها وإخوتي؟ هل يمكن لناي الأبوّة المكسور أن يعود للعزف؟ هل ستعود خيوط علاقاتنا كما كانت!! خيوطًا حريريّة قويّة ورقيقة وناعمة ، أم أنّ الأيّام نقضت غزل الخيوط وما عاد يستطيع غزلها أمهر صانع!!

وكانت الإجابة :

أوّل لقائي بأبي تخيّلت أنّني سأرتمي على بنفسجة صدره وأبكي . . أبكي . . أبكي سبعة عشر عامًا كنتُ بأشدّ الحاجة لحضنه . تخيّلتُني سأحكي له حكايتي . . وأعانقه وأبلّل ليلي بقطرات فجره

ولكنّني وجدتني عاريًا واهمًا فقد كان اللقاء باردًا ميتًا!!

خلت لقائي معه سيكون رقراقًا، شفافًا منسابًا يحيي مواتي لكنّني كنت مخطئًا فالسّبعة عشر عامًا كانت كافية لإطفاء قناديل عاطفته وعاطفتي فكلّ شيء يأتي متأخّرا حتّى ولو كانت الأبوّة فلا طعم له!! هذه المشاعر ليست معلّبة ولا يمكن استحضارها متى شئت إنّها صناعة ربّانيّة زمانية إذا ذهب زمنها ولّت بلا رجعة!!

سلّمتُ عليه متصنّعا الحرارة والأنس، قبّلت يده فإذا بالوحشة تترك ظلالها على فمي، ذهبت ريحه الصفراء بالألوان الزّاهية التي كنت أشعر . . أحلم . . أتخيّل!! سكبت الغُبْرَةَ رذاذًا ملأ المسافة بيني وبينه، وترك طعمًا مرًّا في حلقي، وضجّت كلّ الحكايا والمساءات المليئة بالعذابات واشتعلت في هذه اللحظة بالذّات عند خطّ اللقاء الأوّل لتقف شاهدًا عليك يا أبي لا شفيعًا لك!!

في هذه اللحظة ينتصب أخي أبو رجا بحكاياته . . بعذاباته . . بحنانه . . برقّته وغلظته . . ينتصب كنَسْر يفرد أجنحته في عُرض سمائي!!

يدخل أبي إلى حياتي لمدّة شهر كامل هي مدّة بقائه في ليبيا ضيفًا عندي إلى حين رجوعه إلى فلسطين بصحبة زوجته وأبنائه الجدد، حينها يستيقظ أخي أبو رجا برسائله في صباحاتي فجأة، ألتقي معه صباحًا . . أُقبّل رأسه . . أذهب لعملي . . أعود في المساء الممعن في الظّلمة وعندما أضع رأسي على الوسادة ينام معي بقصصه التي أقرأها ليلاً وأعيد كتابتها وتدويرها صباحًا بعد الفجر مباشرة!!

سيجارة
هو ٢

يغازلني بسيجارة وفنجان قهوة حيث يحلو الكلام ويطيب في أذيال دخان السّيجارة!! هل يمكن للكلمات أن تصعد بلا مقاومة كدخان سيجارة!!

- سيجارة؟
- لأ ما بَدَخِّن .
- بس هَيْ باكيتِ الدُّخَّان في جِيْبَكْ!! كَيْفْ ما بِدَّخِّن؟

أخرجتُ باكيت الدخّان وأقسمت ألاَّ أدخّن بعد هذه اللحظة حتّى لا يعتقدوا أنّ الدخّان وسيلة ضغط علي!! لم تعد السّيجارة تسكب فيّ هدوءاً . . إنّها الآن وسيلة الضغط القادمة . . الحمم الغاضبة . . الشّظايا الحارقة . لم تعد السّيجارة ترضيني أو تقنعني بالاستمرار!!

ما كدت أحلف اليمين حتّى كانت يدا (ميخا) وبكلّ ما فيهما من القوّة تهوي على وجهي تعصره عصرًا حتّى سال الدّم غزيرًا من فمي فقد وقعت أسناني الأماميّة بلكمة واحدة!!

- مِين نَظَّمَك؟
-
- متى ذهبت إلى سوريا؟

- شُوْ عَلاقْتَك (بأبو السُّكّر)؟

-

- لِيْشْ مْخَبّي سْلاح؟

-

- لِيْشْ أطلقَتْ نارْ عَلى باصْ الجِنْودْ في رافات؟

-

أحدّق في الدّم السّائل غزيرًا من فمي . الصّمت . . الصّبر هما شكلا المقاومة الجديد في غرفة التّحقيق .

في هذه اللحظة بالذّات أشعر بنفسي عملاقًا ، صبّار الألم الذي ينشر وخزاته الحارقة في جسدي يتحوّل في هذه اللحظة إلى مطر على شبابيك قلبي ، يمسح الحيرة . . العجز الذي لاح ثمّ اختفى .

ميخا كان يوجّه التّهم إلي وهو يشعر بالزّهو ، بالغطرسة ، بالغرور ؛ لأنّه نجح في القبض عليّ ، فأنا القارب الذي سيوصلهم إلى شطّ (أبو السُّكّر) قائد عمليّة الثّلاّجة!!

لم يكن لديّ سلاح . . سوى الصّمت والدّعاء مما جعل غرفة التّحقيق تضجّ بأكبر عدد من قادة وضبّاط المخابرات الذين أتَوا ليتأكّدوا بأنفسهم أنّ الذي أمامهم أحمد المطر (أبو رجا) الذي جعل حلوقهم جافّة وأطرافهم مرتعشة!!

- مسكين يا ميخا!! بتعرف ليش إنت مسكين ، لأنّ الألمان تركوك وما حرقوك زي ما حرقوا قرايْبَك اليهود ، مسكين لأنّك رح تشوف في هذي الأرض إلّي ما شافوه أجدادك في المحرقة .

أحرقه القهر وكلماتي المشتعلة تركته عاجزًا ، مختلطًا ، مجنونًا

يوصل الأسلاك بالكهرباء ليضعها على رأسي وجسدي!! يتفسّخ الجلد . . تتشقّق الآه مكتومة . . وتتكسّر الأضلاع . . . ويفور الدم!!

– ماذا تنتظر يا (أبو رجا) لتعترف؟

كيس نتن ذو رائحة كريهة ينغرس في الرّأس!! كبرياء وفخر ينزرع في الحلق ينشر قوّة وصمودًا في أنحاء الجسد المقيّد على كرسيّ مثبّت بأوتاد من حديد إلى الأرض مع خلفيّة مقوّسة إلى الدّاخل بحيث يصبح ظهري على شكل قوس مشدود ، قدماي مقيّدتان ويداي تمّ إخراجهما من خلف الكرسيّ وتقييدهما لتبدأ رحلة الشّبح والتّعذيب في التّحقيق الذي استمرّ مدّة ٩٨ يومًا!!

أشعر بأنفاسي تتقطّع . . ألتقطها بارتعاش!! داخل الكيس النّتن الكريه الرائحة الذي دهن بالخراء ، أحاول أن أخرج من جسدي رويدًا رويدًا!! أهرب من هذا الجسد الذي يمكن أن يقودني إلى الهاوية . أهرب من جسد شفيف رقيق خسر عشرين كيلو غراماً خلال الشّهر الأوّل من التّعذيب ، أهرب من الخارج إلى الدّاخل . . إلى روحي . . أُشعلها زخّات من التّسبيح والتّهليل والتّكبير . في هذا الكيس المظلم النّتن أتنفّس اسم الله الواسع . . أظلّ أكرّره وأكرّره حتّى يخترق كلّ مسامات جسدي . أكرّره وأكرّره لأستجمع ذاتي على عتبات مرج أخضر واسع فتنعتق روحي وتحلّق عاليًا عاليًا .

يتبادل المحقّقون الأدوار بشكل بارع خلال جولات التّحقيق المستمرّة على مدار الأربع والعشرين ساعة ، يرتاحون . . يروحون ويجيئون وأنا مكاني داخل الكيس مقيّد إلى الكرسي . ميخا كان يمثّل دور المحقّق الشرير القاسي المرعب (إيدُه والموت) ، يكيل السّباب والشّتائم القذرة على مدار السّاعة ، (وعزرا) كان يمثّل المحقّق الهادئ

الطّيّب الحنون يمثّل دوره بشكل مذهل!! يراوغ . . يغازل . . يداهن . .

طوال فترة التّحقيق لم ينفتح فمي ولا بكلمة واحدة . . كنت أعلم أنّ أيّ كلمة تساوي عمرًا وراء القضبان يقضيه أخي في المقاومة ، لا يستطيع أحد أيًا كان ومهما بلغت قوته وحيلته أن يجبرك على التلفظ إلاّ بما تريد . إنّها الإرادة . . شهاب عندما يسقط يحرق الأخضر واليابس وعندما يبقى عاليًا . . يبقى مضيئًا . . متحديًا!!!!

عندما يمضي يوم من أيّام التّحقيق ولا أعترف ، أشعر بالزّهو . . بالقوة . . باللذة والمتعة فأنا قد انتصرت على جلادي!!

ألُوك الصّمت . الغضب مرجل يغلي في عينيّ المحمَرَّتين اللتين حُرِمتا من النوم . كنت أسمع من رفاقي الذين سبقوني بالإيمان . . أقصد بالسّجن . . أنّ التّعذيب بعدم النّوم هو أقسى أنواع التّعذيب وأمرّه . عندما يسلّط الضّوء على عينيك على مدار الأربع والعشرين ساعة . . تودّع عيناك قرار البقاء ، تصرخ لأنّ العين الممزّقة بالألم ما عادت قادرة على الاستمرار!! ، أفتش عن لحظة غفوة تأخذني بعيداً ، تخدع هذه العين لتستطيع الاستمرار ، أقترب من حافة الانهيار ، صداع يعبث برأسي . . يفتته ، يسرق منه كلّ الصّور والحكايا ، وجع يصعب الإمساك به أو احتماله ، إنّه يشبه جنون قطة حبيسة داخل كيس خيش تموء وتموء في كلّ مرّة تخمش جزءاً من الكيس ، تفتّته ، فيغدو مزقًا!!!!

أتذكّر من سبقني بالإيمان وهو يقول لي :

– قد يمنعونك من النّوم ويساومونك بالسّماح به مقابل الاعتراف . إيّاك أن تعترف . . لا بدّ أن تعرف بأنّ النّوم قادم لا محاله . . رغمًا عنهم . . ودون أيّ خطر على حياتك . . سيجيء النّوم على هيئة غفوة

قصيرة . . أو غيبوبة لكنّه سيجيء . . فلا تَنْهَرْ!!

التّحقيق سينتهي يومًا . . وستبقى أنت بقامتك . . إما مرفوعة . . أو منحنية!! لك الخيار!!

على حين غفلة من أنين جسد أعياه الوجع . . تبتهج الرّوح التي ترقص على حوافّ الألم ، تشاكس الجسد . . تتجمّع على حدوده . . تزرعه زيتونًا أخضر . . فيخضرّ الجسد ويتلوّن بالتحدّي حتّى يصبح عصيّاً على الذّوبان!!

عندما وضعوني تحت جهاز الكذب . . استطعت أن أضلّلهم . . اتَّبعتُ تعليمات من سبقني بالإيمان . . شِدْ على عضلات قدميك أو أكتافك . . شددت!! فكّر بأمور محزنة أو مفرحة . . فكّرت!! فكّر بأطفالك . . بضحكاتهم . . بقفشاتهم . . بأمّك . .!! فكّرت واستحضرت وفعلت تمامًا ما قاله صديقي فكانت النّتيجة أنّني انتصرت على الجهاز فلم يعد قادرًا على التّمييز بين إجابتي المضلّلة ومشاعري التي تتراوح بين الحزن والفرح!!

أشمّ رائحة دمعي المكابر . . أتحسّس أطرافي التي تنزّ دمًا وقيحًا وظهري المحدودب و(فتايل الوسخ) التي تسقط من جسدي المحروم من الاستحمام لمدّة ٩٨ يومًا . . كلّ هذا ولا أنهار!! فأنا أحتفظ بذخيرة لا تنضب من عبق السّماء!!

لكن عندما نطق ميخا قائلاً :

صبري عزات شهد عليك!! وإذا شهد عليك أيضاً اثنان يكون الإعدام في انتظارك!! لحظتها شعرت بالانهيار!!

حينها انكسر الدّمع على جدران الخيانة المخيفة والعمالة الوسخة ، صبري عزات رصاصة زُرعت في ظهرنا ونحن نجدل الثّورة . إنّه الضّفيرة

التي التفّت حول أعناقنا ، ضفيرة منّا وفينا .

الآن عرفت حلّ اللغز!! لغز الاعتقال والوقوع في براثن الاحتلال .

اعتُقلت بينما كنت أحضر عرسًا في كفر قاسم التي لا تبعد عن قريتنا سوى خمسة كيلو مترات ، ففي الوقت الذي كان الجيش الإسرائيليّ يجوب الزّاوية وقد اعتقلوا عبد الحميد الفارس وإبراهيم العيد سألوا عنّي فقيل لهم إنّه ذهب لحضور عرس . عندما وصلوا إلى هناك سألوا صاحب العرس محمود الصوص :

- مِيْنْ عِنْدَكْ مِنِ الزَّاوية؟

- قال لهم : أحمد المطر(أبو رجا) .

أمسكوا بي ، قيّدوا قدميّ ويديّ ووضعوا عصبة سوداء على عينيّ ، رموني داخل سيّارة الجيب التّابعة لشرطة ملبّس بيتا كفحا ، ثمّ نقلت في سيّارة ثانية إلى شرطة طول كرم ولم يتحدّثوا معي طوال مدّة السير!! بقيت في سجن طول كرم ثلاثة أيّام لم يتكلّم معي أيّ أحد بأيّ شيء إلى أن استطاعوا جمع كلّ المعلومات والشّهادات والاعترافات فتمّ نقلي إلى سجن المسكوبيّة وهناك بدأت جولات التّحقيق المريرة .

وصلتُ مركز تحقيق المسكوبيّة .

قال المحقّق :

- صبري عزات بِيشْهَدْ عَلِيْك إنَّكْ نَفَّذْتْ عمليّة الثّلاّجة مع أبو السُّكّر!!

كان (أبو السُّكّر) شابًا مفعمًا بالحيويّة والمقاومة ، يجزم بأنّ النصر آت ، قادر على النّهوض بأصعب المهامّ ، تشتعل فلسطين في كلّ خليّة من خلايا جسده ، قاد سيارته الفولكس فاجن وهو يحمل ثلاّجة معبأة

بـ٣٥ كيلو غرام من المتفجّرات تركها في موقع مكتظّ باليهود في ميدان صهيون بمدينة تلّ أبيب ، في أكثر الأماكن حساسية وأمنًا ، يومها كانت تلّ أبيب ثكنة عسكرية ومجمعًا ضخمًا للجيش الإسرائيليّ ، أصرّ على تنفيذ العمليّة مع أنّ القيادة كانت معترضة عليها ؛ لأنّ نسبة نجاح العمليّة كانت لا تتعدّى ٥٪ لكنّ (أبو السُّكّر) كان اليقين في قلبه لا في سلاحه!!

(أبو السُّكّر) الذي حفظ القرآن وهو في السّجن وصلّى عشرين سنة قضاء لصلوات فاتته ، يتكلّم خمس لغات (برازيليّ ، إنجليزيّ ، ألماني ، برتغالي ، عبري) تضجّ عيناه بفجر لا ينطفئ ، يرفض السّير على الخطّ الملوّن الزّاهي . . خطّ الاستسلام ، فك قيود روحه ويديه وتوغل في حبّ فلسطين لأبعد نقطة على حدود الخطر!! كانت لديه الإجابات لكلّ الأسئلة الملوّنة ، المحيرة ، لم تكن تعنيه قشعريرة الخوف بقدر ما تعنيه حرارة الحب!!

لذلك كلّه . . أصرّ أن ينال شرف تنفيذ العمليّة التي تمت بنجاح مذهل وأوقعت خسائر فادحة كانت حصيلتها ٨٥ قتيلاً وجريحًا .

انفجرت الثّلاّجة فيما كان (أبو السُّكّر) يقطع الطّريق إلى الأردن ، كان يستمع من راديو صوت إسرائيل لنتائج العمليّة التي خطّط لها ونفّذها ولم يتمالك نفسه حين هاجمه الدّمع فأصيب برعشة وانهمرت (الحمد لله) من شفتيه كمطر عجول!!

صبري عزات مرّة أخرى!!

بعث صبري عزات بخبر إلى أخته في الزرقاء يقول فيه :

- قولي لأبو السُّكّر ارْجَعْ ما في عَلِيْكْ إشِي . إِنْتَ في أَمان .

الطّعنة الأولى (لأبو السُّكّر)!!

فعلاً عاد (أبو السُّكّر) إلى وطنه فلسطين يوم ٧٦/٩/٣٠ وما أن حطّ قدميه على جسر اللنبي حتّى تمّ اقتياده فورًا إلى مركز تحقيق المسكوبيّة .

بقي في المسكوبيّة ٢٥ يومًا ثمّ أبلغوه خلالها بقرار إبعاده من وزارة الدّفاع الإسرائيليّة لكونه يحمل جواز سفر أمريكيّاً!!

في مطار بن غوريون فوجئ (أبو السُّكّر) بأهله وأقاربه وأولاده وزوجته الذين حضروا لوداعه . ولأن (أبو السُّكّر) يقظ القلب والعينين توجس خيفة من الأمر فأبلغ زوجته أن تنتظر منه اتّصالاً وإلا فإنّ في الأمر خدعة من المخابرات الإسرائيليّة لإيهام أهله بإبعاده!!

نقله رجال المخابرات الإسرائيليّة إلى غرفة فارغة . . أعطوه جواز سفر وتذكرة وكأسًا من الشّاي وسيجارة ليصحو ويجد نفسه وحيدًا في زنزانة!!

لم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة لأبو السُّكّر فقد تمكّن من التقاط خيوط المؤمراة قبل أن تقع وأبلغ بها زوجته .

عرف (أبو السُّكّر) من معتقل في زنزانة مجاورة بأنّه في مركز تحقيق الجليل وأنّ رقم زنزانته ٥ ، حضر عدد من الضبّاط وقالوا له :

- الكل يعلم أنك مبعد إلى الخارج ، لو قتلناك فلن يعلم أحد بك ، لن يتهمنا أحد ، أنت الآن رقم ضائع . . مفقود . . الأفضل لك أن تعترف بكل شيء .

وبكلمات لها طعم الرفض وجرأة الثّورة رد عليهم :

- لا يمكنكم فعل ذلك فقد أبلغت زوجتي أنّني إذا لم اتّصل فسأكون مُعتقلاً في السجون الإسرائيليّة .

وقع جواب (أبو السُّكّر) عليهم كالصّاعقة . وبصوت مبحوح لأنّه

فقد منه كثيرًا من هول الصدمة . . حاول المحقّق أن يجبره على الاتّصال بأهله وحين فشل ضربه بآلة حادّة على رأسه ، أُصيب بجراح بالغة . . أُغْميَ عليه ونقل إلى المستشفى وأجريت له عمليّة جراحية لا تزال آثارها باقية على رأسه!! في غرف التّحقيق قضى (أبو السُّكّر) خمسة شهور قبل أن تقضي عليه المحكمة بالسّجن المؤبّد رغم أنّه لم يعترف!!

(أبو السُّكّر) بملامحه الهادئة وبشرته البيضاء يعيد لي المشاهد وكأنّها تقع الآن!!

قلت للمحقّق :

– شُوف . . إلي الشَرَفْ إنِّي أَكُونْ مْدَبِّرْ ومْنَفِّذْ عَمَليِّة الثَّلاّجة وإلي الشَّرَفْ إنِّي أكُونِ إيْد (أبو السُّكّر) . بَسْ عَمَليَّة الثّلاّجة صارت في ال ٧٥ وأنا تْنَظِّمتْ في ال ٧٦ قَبِل ستّة أشهر فقط ، يعني لما صارت العمليّة لم أكن قد دخلت التّنظيم .

– والْفَرْد إلي لقيناه مع (أبو السُّكّر) بِيْقُول صَبْري عزات إنُّه فَرْدَك؟

أصفُن وتعود إلي كلمات صبري عزات من جديد محمّلة بلغة ناسك عابد!!

– بَحْلِفْ على القُرآن إنّي ما بَخُونَكْ ولا بَسَلِّمْ سْلاحَكْ لحَدًا ولا بَفِشْي سِرَّك .

لكنّه خانني وقد أكل زادي وملحي!!

وللفَرْد (المسدّس) قصة .

عندما بعث أبي إخوتي (جميل وجمال) من البرازيل إلى الزّاوية بعد وفاة أمهما سيسليا (جميل وجمال هما الفوج الأوّل من الإخوة البرازيليّين) كانا طفلين كقطعة الحلوى تذوب عندما تراهما ، طفلين في السّابعة والثّامنة من عمرهما ، شقر بعيون زرق كلون البحر . بملابس

خواجات (بدلات) كلّ واحد منهما يحمل مسدّساً على خاصرته .

عندما سقطت الضّفّة بيد اليهود وطلبوا تسليم كلّ سلاح تحت طائلة المسؤوليّة سلّم أخي عبّاس فردًا لسلطات الاحتلال ، أما الفرد الثّاني فخبّأته في السّنسلة القريبة من الدّار . وعندما سافرتُ إلى الأردن لم أجد سوى صديقي ورفيق دربي صبري عزات أستأمنه على الفرد ، لأنّه لو وقع في يد اليهود فالكارثة ستقع على رؤوسنا جميعًا .

أخذ صبري عزات المسدّس أو بالأحرى سرقه وباعه (لأحمد أبو السُّكّر) بدون علمي وعندما عدت وطالبته بالفَرْد أنكر!!

الآن عرفت سرّ المسدّس وسرّ الصاحب الساحب إلى جهنّم الذي جرّني وجرّ أبو السُّكّر إلى المقصلة!!

هو٢
العزل الانفراديّ

حينما بدأتُ أولى خطواتي في زنزانة العزل الانفراديّ وشعرت بالجراذين تتراكض بين أقدامي حينها برعم الرّجاء بين عينيّ!! وحينما سمعت من يناديني خلف الجدران الإسمنتيّة ويسمع وقع خطواتي حينها فككت أزرار الوحشة لألمس وهج الأخوّة وحينما سمعته يقول لي بصوت مبحوح وعلى غفلة من السّجّانين :

- لم أتحدّث العربيّة منذ ثلاث سنوات!!

أيقنتُ حينها أنّ روحي اخضرّتْ وضاع منّي الكلام ورفرف التّرقّب والسّكون والصّمت فكلماته لها وقع اشتعال الحريق وذبول الورد!!

ثلاث سنين ولم يجد من يتحدّث معه بالعربيّة!!

- الله أكبر . . هكذا صرخت!!

كلمات جاري السّجين الذي لم أتعرّف عليه بعدُ أيقظت داخلي طائر الحرف العربيّ الذي لم أفطن له يومًا ، لم أشعر بحلاوته ، أيعقل أن يشتاق السّجين حتّى للحرف!! ما أوجعه من ألم!! أن تشتاق لتجرّب صوتك بالحرف العربيّ!!

إذن أنا أوّل من أتحدّث إليك بأحرف عربيّة يا رفيق دربي الجديد!! وأخذت أحكي وأحكي أسابق الوقت الآتي لأذيب الصّمت . .

أستسلم لشهوة الحرف التي لم أذقها سابقًا ، أميط اللثام عن كلّ الحكايا لأُسمعها جاري في الزّنزانة الأخرى الذي لم يحظَ برفيق عربيّ منذ ثلاث سنين ، فقد كان السّجناء الجنائيون اليهود هم رفاقه دومًا ، يشعلون ليلهم بالصّيحات وبرمي فُتات طعامهم للجرذان التي تحضر بمجرّد إطلاق أحدهم لإشارة معيّنة!! تتسلّق الجدران . . تقف على النّوافذ مثيرة الهلع والقرف في نفس الجار الصامد .

أحكي وأحكي . . ألملم بحروفي التي أنتبه أوّل مرّة لتبرّجها وإغرائها . . ألملم بها الذّكريات لأقطف عن روزنامة الحياة قصص الشّغب ومقاهرة العدو!! لا وقت للصّمت بل للمزيد من الكلام ، فالحكايا هي التي تختبر الصّوت وتختبر الصّبر!! ثمّ تتداخل الأصوات صوتي بصوت جاري فيأتي السّجّان ويصرخ في جوف العتمة . .

- كفى . . كفى . . وإلا!!!!!!!!!!!!

أتشبّث بما بقي من الأسرار والأنّات بعد أن أتأكّد أنّ جاري ما زال قادرًا على الكلام بالعربيّة وعلى السماع في زمن ظنه عبريًا خالصًا .

كانت زنزانتي في الجهة الشّمالية من سجن عسقلان معتمة جداً فلا هواء يدخلها ولا شمس . . رطبة . . ضيّقة ، هي بروفة افتراضيّة للقبر . على الحائط التّرابيّ المليء بالثقوب ترتسم عشرات الجماجم والهياكل العظميّة ، يبدو أنّ الزّنزانة كان يسكنها أحد السّجناء الجنائيين اليهود . عند نهاية الحائط المرتفع جداً فتحة صغيرة مدجّجة بالشّبَك والقضبان وهي فتحة لا يتعدى عرضها بضع سنتيمترات تتسلل منها خيوط الشّمس على استحياء . باستهزاء من السّجّانين تتسلل تلك الشّمس النّاعمة على هيئة قرص قرش علّها تعتذر عَنْ خطأ لم ترتكبه ، تدعوني لكي أقف على رؤوس أصابع قدميّ وتتطاول

حتّى تقبّل رأسي وتمسح بخيطها الذّهبيّ الرّقيق ما علق بجسدي الحُرّ من رطوبة وعفن!!

من كان يظنّ أنّ ضوء الشّمس والحرف العربيّ سيصيران أقصى ما يتمنّاه سجين فلسطينيّ تمعن الوحدة والظّلمة في ضلوعه حفرًا ونخرًا!!!!

في هذه الزّنزانة . . الليل يشبه بعضه بعضًا والانتظار يفتت الوقت . . يجعله مرعبًا . والشّتاء الذي كنت أحبه وأنتظره وأراقب حباته الخجولة وهي تلمع على وجه الحبيبة والغيوم التي أعشق وهي تلملم آخر ثيابها في نهاية فصل حان . . الشّتاء الذي أحبّ يتحوّل في هذه الزّنزانة إلى إبرة تمارس هواياتها في التّطريز على الجسد المنهك المتعب!!

لكنّ أجمل ما في هذه الزّنزانة أنّ الصّور والأحداث المركونة في الذّاكرة تحوطُني . . تظل وفيّة وحانية . . تحاول أن تحملني وتطير بي في فضاء الكون!!

يد أمّي السّمراء المشقّقة ذات العروق النافرة الملتمعة بزيت الزّيتون وبقايا العجين تمسح على رأسي بدعاء مرتعش . الله يرضى عليك ويجعل لك في كلّ خطوة سلامة . . .

تطاردنيّ «بُقْجَه» أمّي العتيقة وهي تحملها على رأسها ، تلك البُقجَة التي تتصارع فيها الثياب الكالحة والمثقوبة والمرقّعة والمهترئة والتي أُعيد تدويرُها عشرات المرات . «قُطْبه» هنا ورُقعة هناك ، ثياب تداولها الجميع من لدني مرورًا بأخي عبّاس وانتهاءً بعبدالله . تحملين البُقجة وتتهادين كصبية صغيرة رشيقة وخفيفة دون أن تميل البقجة يَمْنة ولا يَسْرة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السّماء . أتابعك من بعيد بدهشة . . ألاحقك بخفة وأركض وراءك من زقاق لزقاق . . أراك تفردين الثياب

وتعطينها للرجل صاحب (مطحنة الشّرايط) ليعيد تدويرها مرّة أخرى بعد العاشرة . . يجعلها فتاتاً لتصير حشوة لمخدّة أو فرشة . .!!

عوامل الشّبه بين هذه الآلة المجنونة وهذا القبر الانفراديّ كثيرة منها خاصّية الفرم!! إنّ هذا القبر الذي يضمّ جسدي . . يخرجه فتاتًا ومزيجًا من القهر والمرض والوحدة القاتلة ورائحة الموت التي تلعق جسدي صباح مساء!! أما الفرق بين هذه الآلة (مطحنة الشّرايط) وهذا العزل الانفراديّ . . أنّ مطحنة الشّرايط لا تطحن سوى الأقمشة الكالحة . . المثقوبة . . المرقعة . . المهترئة!! لكنّ زنزانة العزل الانفراديّ تطحن الجسد المشتعل بألوان البهجة والحب للوطن . . تقتصّ منه كلّما أطلق زفرة عشق وشوق . . تطحنه كلّما حاول أن يركض صوب الوطن تزنّره باللون الأحمر القاني!! زنزانة العزل الانفراديّ لا تطحن بآلتها الحادّة الوجوه الكالحة والأجساد الباردة ولا من يتخندقون في خندق العمالة . .!! لكنّها على أيّ حال رحيمة لأنها لا تصل إلى الروح!!

في هذا العزل بدأت أكتشف معادلات ذات نتائج غريبة . . معادلات جديدة يجب أن تكتب في دفتر كيمياء الحياة . المعادلة المكتشفة هي : حبس الجسد = تحليق الرّوح بعيدًا . . بعيدًا . فعندما يحبس الجسد تحلّق الرّوح وتطير بعيدًا بلا قيود . . تستحضر كلّ الصّور والأعراس والنّهفات والقفشات وأشياء كثيرة لا أستطيع حصرها . . لتنير لي عتمة الزّنزانة والدّليل على أنّ نتيجة المعادلة صحيحة أنّ الجسد عندما يوضع في القبر تصعد الرّوح الطيّبة إلى أعلى علّيّين!!

في هذا العزل اكتشفت كم أحبّ أمي . . كم أشتاق لشاشتها البيضاء وهي تمسح دموعها وترتعش بالدعاء . . تجفّف عرقها المتصبّب مع حبّات الزّيتون في يوم الحصاد . . أجلس بجانبها تحت الزّيتونة لأقرأ

لها رسائل الغُيّاب (عبّاس وعبدالله) . . تأسرني بصبرها وحنانها وهي تأخذ المكتوب وتعيده برفق إلى بيته (مغلفه) بعد أن تقبله وتشمّه وتضعه تحت وسادتها .

أما حينما تكون الرّسالة من أبي المهاجر . . تكون حبّات الغضب على وجنتيها أسلاكًا شائكة تُلزمني الصّمت والتّرقّب والتسليم بالأمر الواقع!!

في هذا العزل أكتشف كم أشفق على دمعها حين سال وهي تراني معصوب العينين . . مقيّد اليدين عندما جاء بي الجنود إلى الزّاوية و(دَشَعْ أهل الزّاوية ليروني) . . اخترقتْ الصّفوف وتمرّدتْ على الجنود الذين كادوا يفتكون بها ورفعت العصبة عن عينيّ!! لحظتها كم تمنيّت أن تنشقّ الأرض وتبتلعني ولا أرى دمعك أمي!!

أضحك فجأة حينما ألمح أسنان أمّي وهي تعضّ على شفتها السفلى غيظًا تارة وتمطّها بحيرة تارة أخرى وهي تسمع لعمّتي تشكو من كنّتها التي تحكم ابنها حكمًا مؤبّداً فتقول :

- الخَيْ خَيْ مْراتُه والرّعْنَةْ بْتِحْلِفْ بْحَياتُه!!

أضحك وأضحك وتمتدّ ذبذبات الضّحكة وتنتشر لجيراني في الزّنازين الأخرى فأسمع صدى ضحكاتهم . . ويفزع السّجّان!!

صداقتي مع الصّراصير
هو ٢

في هذه الزنزانة (القبر الافتراضي أو «بْروْفَة» القبر كما أسميها) أضطرّ لإخفاء التّوجّس مع أحقر المخلوقات، لم أستسلم لأعتى قوّة. لتوّي خرجت من غرف التحقيق، منهكاً، متعباً والدنيا بلون واحد هو الأسود!! لكني الآن في هذه اللحظة مضطرّ لعقد هدنة مع جيوش الصّراصير، ذات الألوان والأشكال والأحجام المختلفة والرفّات المرعبة، طوال عمري لم أرَ صراصير بهذه الأحجام!! صراصير طائرة!! لا بدّ من توقيع الهدنة سريعًا وإلاّ لن أستطيع الاستمرار معها فهي تتقاسم معي السّرير والغطاء والمغسلة والمرحاض والجدران والبرش. لا أدري كيف يسمّون هذا عزلاً انفرادياً وأنا أعيش في زنزانة لا تزيد مساحتها عن ١٥٠ سم × ١٢٠ سم مع جيش من الصراصير الجرّارة!!

لكنّني وبعد توقيع الهدنة وطول المعاشرة اكتشفت أمرًا مهمًا!! إنّ أحقر الحيوانات هي الأذكى على الإطلاق!! فهذه الصراصير الحقيرة.. ذكيّة لدرجة أنّها كانت بردًا وسلامًا عليّ وابتعدت على الأقل عن وجهي والأماكن الحساسة حد ابتعاد العيون عن الشفاه!!

أصحو بعد المعاهدة الليليّة وقد أذهلني ذكاؤها.. فهي تحوم حول الحمى ولا تقع فيه. بعد تلك الهدنة وحالة السلام التي عقدتها مع صراصيري بدأ الذعر يدبّ في قلبي مرّة ثانية والسبب ليس خرق

الهدنة بالطبع فكما قلت هي أذكى المخلوقات ، بل من الطَّرْق المستمرّ والشديد من السجّان وإضاءته القبر ببطاريته كلّ نصف ساعة ، بحيث أصبحت أقصى أحلامي النّوم ولو لمدّة نصف ساعة متواصلة!!

الإنسان أذكى المخلوقات على الإطلاق . . إلاّ أنّه وحده من يستخدم ذكاءه بحقارة وخسّة ونذالة!! فحينما يبتعد الإنسان عن قناديل القيم والإنسانيّة ويسقط في وحل الجبروت الظالم ، تسقط إنسانيّته وتتفوّق عليه أحقر المخلوقات!!

طَرْق شديد ومستمرّ من السجّان ، يعتقد بذلك أنّه سيطفئ قناديلي ويغسل دماغي مما علق به من خطايا وطني ، وطرق من الجار اليهوديّ في الزنزانة الملاصقة الذي لا يكفّ عن كيل السباب والشتائم ، لا لشيء إلاّ لأنّه مريض نفسي كما اكتشفتُ لاحقًا . ومع ذلك كان لا بدّ من أن أجيبه وأتحاور معه علّني أخفّف وحشته وألمه!!

بدأت صباحي الأوّل بممارسة تمارين رياضية كنتُ قد تعودت على ممارستها خارج السجن ، وما إن عرف ضابط السجن عبر الكاميرا بذلك حتّى جنّ جنونه ، لعله كان يتوقّع أن يراني ملقىً على برشي ، محبطاً ، مطفأً كعصف مأكول .

يركض الضابط نحوي مغتاظًا ، أسمع تغيظ ناره ، يصرخ :

– وبْتِلْعب رياضة كَمان!! بِتْفَكِّرْ حالَكْ رَحْ تِطْلَعْ مِنْ هُوْن؟ إنت هُوْنْ وَرَحْ تْموتْ هَوْن ، مِشْ رَحْ تُخْرُجْ حيّ مِنْ هالْمكانْ . . لا تِحْلَمْ . . فْهِمْتْ؟

حينها أطلقتُ ضحكة مدوية . . سمع جاري اليهوديّ أصداءها وقلت له :

– سأخرج قريبًا جداً من هنا وسوف ترى ذلك بأمّ عينك!

أتدري لماذا؟

- لأنكم زبد البحر الذي سيذهب جُفاء!! ونحن ما ينفع النّاس باقون في هذه الأرض إلى قيام الساعة . ولأنّني صادق في العهد الذي أخذته على نفسي تجاه وطني فلن تنقض الأيّام غزْلي ، على العكس من ذلك ستغزل لي الأيّام أزهى الألوان ؛ لأنّ الله يفي بوعده للصادقين والصابرين!!

أكملت باقي التمارين الرياضيّة فيما كانت أصابعي تخطّ بالأحرف العربيّة على الجدران الترابيّة :

- (ها أنا أشعر بأجنحتي تحلّق) .

بالأبيض والأسود فقط

هو ١

كـانت أمّي قليلة الكلام ، عـبـاراتهـا على المقـاس ، لا تزيد ولا تنقص ، لا تشـتكي ولا تتعب ، لا تمرض ولا تعبّر عن حالهـا . عندما يتعرّض لها أحد بسوء كان جوابها على طرف لسانها . . جواب متقن ، مدهش ، منمّق لا يجرح ولا يؤذي ولكنّه في الوقت نفسه يصيب في مـقـتل دون أن تمسك عليـهـا ممسكاً . . تردّ بتلقـائيّـة شـديدة دون أن تفكر . . وبسرعة بديهة حاضرة دومًا!! كيف لا أدري؟

علاقتها بأبي كانت كعلاقة أيّ زوجة بزوجها في القرى والبلدات الفلسطينيّة . . تخرج صباحًا قبل طلوع الضّو ، تُعشّب ، تحرث ، تزرع ، تحصـد ، يعودان مـعاً إلى المنزل ، ليس هناك من حـديث خـاصّ يدور بينهما سوى أمور الدّار والأبناء وبعض ما يدور في القرية من أحداث . كان أبي مسـالمًا ، هادئًا قلّما يغضب ، لا يرفض لها طلبًا ولا تذكر أنّه آذاها بكلمة . . أو تصرف ، كانت تحبّه . . بصمت ، تخدمه وتسهر على راحته بصمت أيضًا . . لكنّها ككلّ نساء زمنها لم تكن تعبّر عن هذا الحب . . لم تفكّر يومًا أن تفصح عن مشاعرها . . في مجتمع يعتقد أنّ هذا البوح خطيئة وإن كان بين زوجين!!

هذا الأمـر جـعل لوحـة حـيـاتهـمـا . . تضجّ بكل شيء إلاّ الأنس والملاطفـة!! حـيـاتهـمـا كـانت ولا أروع . . إلاّ أنّهـا كـانت بالأبيض

والأسود ، دون أيّة إضافات أو منكّهات . . حياة جافّة . . شحيحة العواطف .

كانت لا تعرف التّعبير عن حبّها إلاّ من خلال الاهتمام بالبيت والأولاد . . وإكرام ضيوفه الكُثر الذين يتوافدون من كلّ أنحاء فلسطين بحكم علاقاته العديدة . . كانت تتنفّس حبّه . . وتتحمّل كثرة الأعباء لأجل عيونه . . لكنّه لم يكن ليشعر بذلك فما كان يفتقده شيءٌ آخر!!

ولطبيعة عمل أمّي خارج البيت من الصّباح وحتّى المساء في الحقل ، غدت كفّا أمّي جافّة ، مشقّقة ولم يكن لها أيّة مساحة خاصّة للاعتناء بنفسها أو للتنفّس حتى ، فهي تنام في دوّامة وتصحو في داخلها وأتخيّل أنّها حتّى لم تكن تحلم!!

وعندما بدأ أبناء عمومتنا بالسفر إلى البرازيل . . وتزوّجوا برازيليّات وأنجبوا . . وصارت تأتي المكاتيب منهم . . يصفون البلاد والنّساء . . يتحدّثون عن نساء بمختلف الإيقاعات والنّوتات الموسيقية . . يصفون تفاصيل كثيرة مجنونة . . حينها بدأ أبي يرسم في مخيّلته صورة مغايرة للمرأة . . يستحضرها . . رشيقة ، بأيدٍ ناعمة!!

يرسمها سرًا . . يمنحها خياله . . كان مستعداً لأنْ ينسحب من حياته هنا . . ليمنح حياته هناك معنى وشكلاً آخر!!

ولكي لا يهدر مزيدًا من الوقت وليمنح نفسه شعلة لا تنطفىء طار وراء أبناء عمومتنا . . مخلّفاً إيانا وأمي . . انسحب من حياتنا هكذا على عجل حتّى دون أن نسرق منه قبلة أو نظرة حانية . . هكذا ودون أن تشعر أمّي بشيء أو يخطر على بالها ما يدور في خَلَد زوجها!!

ومرّت السّبعة عشر عامًا وقد سرقت منها الحياة والحب . . ووصل أبي قادمًا من البرازيل بصحبة زوجته البرازيليّة وأولاده . . لم أحضر

المشهد . . حكى لي أخي أبو رجا واصفًا المشهد :

وصل أبي إلى الزّاوية . . بصحبة العائلة الجديدة . . زوجة جميلة ، فارعة الطول . . بصحبتها أربعة أبناء ، لم تكن صغيرة في السنّ كما أُشيع في البلد . . لكنّ الغريب المدهش أنّ أمّي خرجت لاستقبال زوجها وزوجته الجديدة ، استقبلتهم في بيتها ، طبخت ونفخت وحضّرت وقامت بالواجب على أكمل وجه ، رتّبت له الفراش وأوسعت لهم أفضل مكان في الدّار ، ولم أر منها أيّ تصرف يدل على الغيرة والغيظ!! وكأنّها وبلمحة سبعة عشر عامًا استطاعت أن تنزع تلك الومضة المشتعلة النابضة بحبّه . . التزمت الصّبر والصّمت . . وأغلقت بابًا كان يدخل منه سحر عشق مدهش!! وتركت الرماد في قلبها على حاله وأغلقت عينيها عن نزف ما زال يسيل!!

تعاملت أمّي مع الضّرّة الآتية من بلاد غريبة بمنتهى الرقّة والأدب . . ترفّعت عن الكيد لها وارتكاب حماقات كالتي تفعلها النساء العاشقات!! لكنّها قاطعت أبي مقاطعة تامة . رفضت أن تضع يدها في يده ولم يخاطب لسانها لسانه . . تجاهلته . . وقبضت على معصم غضبها بجلد وقوة!!

هذا الأمر جعل البرازيليّة الغريبة في وضع لا تحسد عليه . . لقد شعرت بالخجل الشّديد من أمّي وذوقها ورقيّ تصرّفها وأخذت تقول لأمي وأخي أبو رجا يترجم :

– لم أكن أعرف أنّه متزوّج ولو كنت أعرف لم أرض به . . لقد قال لي بأنّه أرمل وفعلاً كانت زوجته سيسليا قد توفّيت قبل زواجنا بتسعة أشهر!!

ردّت أمّي بحياد :

- لو ما تْجَوَّزِكْ . . لَتْجَوَّزْ غيْرِك . . ما يْهمّك ، إِشِيْ مَضَى وَانْدَفَن!!

عملت البرازيليّة كما أسماها أهل البلد على تدبير شؤونها والتّأقلم في بيئة كلّ ما فيها يدعو للدّهشة والجنون معًا!! لقد اخترعت تِقنية جديدة تساعدها على احتمال الغربة والعزلة والحنين لوطن لا تتعب من مناداته . . تقنيتها الجديدة هي المشي ليلاً . . قالت لأبي رجا :

-أنا أمشي ليلاً حتّى لا أُجَنّ!!

صدْمتُها كانت في عدم وجود كهرباء وماء ينزل رقراقًا من الحنفيات . . خاصّة وأنّها كانت تدير (أوتيل) في البرازيل يملكه والدي . . جاءت على قرية ليس فيها من متطلّبات الحضارة شيء . . فانوس للضوء بدل الكهرباء ، ماء من البئر الذي يجب أن تمشي مسافات طويلة لجلبه في تنكات كما نساء القرية . .!! لا سرير تنام عليه . . ولا خزانة تضع فيها ملابسها وملابس أطفالها . . لا طعام كما تشتهي وتتعود!!

يصيبها القرف عندما كانت ترى أمّي وهي تعجن في الطّابون!! عرفت أمّي من نظرات (دونا آنا) ما يدور في خلدها!!

فقالت لها :

- عندما تزوّجتُ كان عمري صغيرًا جدّاً وكنت ألعب مع صاحباتي في صنع بيوت الطّين . . كنت ألعب بالطّين من الصّباح للمساء وعندما تزوّجت اكتشفت حماتي موهبتي وأرادت أن تعلمني صنع الطّابون لكن عن طريق اللعب . . فصرت أمهر نساء البلد في صنعه ، كنتُ أظنّ أنّها تلاعبني وعندما كبرت اكتشفت أنّها أخذتني على قَدْ عقلي!!

مع ذلك ظلت البرازيليّة مصرّة على عدم الطبخ في الطّابون

فجاءت أمّي لها بحجرين كبيرين وفوقهم تنكة وأوقدت تحتهم النّار . . لكي تخبز وتطبخ . . ونشأت علاقة غريبة بين أمّي وزوجة أبي . . فقد كانت أمّي تحزن عليها وتقول (غريبة بلاد) . . علاقة ممزوجة بالامتنان لهذه المرأة التي شعرت بالخجل الشّديد عندما رأت أمّي أوّل مرة .

وعندما تلفظت إحداهنّ بكلمات جارحة في حقها قائلة :

- أَبْصَرْ شُوْ أَصِلْها وَفَصِلْها . . أَبْصَرْ مِنْ وِيْنْ جايِبْها الْحَجْ مَطَر!!

تصدّت لهم أمّي وأخرست ألسنتهم بكلمة واحدة (هَذي مرّة أَشْرَفْ مِنِ الشّرَفْ) كلمة كانت قد عرفتها من أخي أبو رجا فقد قال لها :

- يمّا ترى مرة أبوي بِنْتْ قَرْيِة ، كلّ شَيء عِنْدْهُم عِيْب . . أخلاقها أخلاق راهبات وأمّها زي الراهبات ولما تْجَوّْزْها أَبُوْيْ كانَتْ زَيْ بَناتْنا بِالضبط!!

بعد هذه الحادثة توطّدت العلاقة بينهما بشكل عجيب . . خاصّة وأنّ أمّي كانت تهتم بنظافتها وهندامها فقد كانت تحبّ في أمّي شاشتها البيضاء التي تشع بياضًا وتحب نبل أخلاقها وقصر لسانها على عكس بقية النّساء!!

دخلت البرازيليّة القرية وكان الإحباط يزداد لديها يومًا بعد يوم . . فعندما اشترت دجاجة لكي تذبحها وتطعمها لأطفالها مرت إحدى النّسوة قائلة :

- الْجاجِةْ بْنِذْبَحْها يُوْم الْجُمْعة بَسْ وبْنِقْسِمْها عَلى أَرْبَعْ جُمَعْ!!

فأمسكت زوجة أبي بالدجاجة وخنقتها غضباً مما أثار حفيظة نساء القرية!!

لم تستطع زوجة أبي أن تمارس ما تمارسه نساء القرية اللواتي يعملن

في الحقول ويجلبن الماء والحطب على رؤوسهن ويحصدن . . كانت أمّي تساعدها كثيرًا . تحلب وتسقي أطفالها . . تبيع الزّعتر والبيض والجبن وتطعمها من صنعها خاصّة وأنّ أبي قد تمّ إبعاده إلى الأردن ومنعه من دخول فلسطين نهائيًّا!!

عندما أُبعِد أبي ظنّت أنّه تركها وهرب . . وحلفت ألا تتعلّم العربيّة نكاية في أبي لأنّه غدر بها وزرعها في قرية عجيبة غريبة . . وهكذا صار أولادها الأربعة هم التّرجمان ما بينها وبين أهل القرية الذين لم تنجُ من تعليقاتهم!!

لمَ تطل إقامة زوجة أبي كثيرًا في الزّاوية . . فقد حاولت كثيرًا اللحاق بأبي . . أكثر من عشر مرات تصل لجسر الملك حسين ويتمّ إعادتها إلى أن نجحت في الخروج من عنق الزجاجة كما كانت تقول!!

الصّباح الأوّل في غزّة
هي

إنه الصّباح الأوّل في غزّة حيث البحر يجيد الغناء ويحتسي خمر الغيـاب!! حيث الشّوك والعُلَّيق صار وردًا . إنّه صبـاحي الأبهى . . المتصبّب شوقًا وعشقًا . في هذا الصّباح أهَشُّ على وجعي واغترابي وأستر عورة لطالما انكشفت ، وأرمِ وجهًا منحوتًا من الركامِ والشّظايا!! إنّه الصّباح البحريّ السحريّ الذّهبيّ الذي أطفأ نار الشك حتّى غدا قلبي يقينًا والحكايا والأحلام في لحظة تفتحت وصارت وردًا وعبيرًا!!

تنتابني مشاعر متناقضة!! أأفرح لأنّني أستنشق هواء وطني وأمشي على ترابه!!

أم أحزن على غربة أبي الطويلة ومنفاه القسري وعمره الذي ضاع بين غربة وشوق!!

أغرق في صمتي . . . وتتمدد كلمات أبي أمامي (لم أكن أعلم أنّ رحلة الاغتراب ستطول وتطول وأنّ حلم العودة يزداد يوماً بعد يوم . أربعون عاماً قضيتها بين مشرق العالم العربيّ ومغربه بينما وطني الذي اقتلعت منه تتخمّر فيه نبرة العتاب وتعبق رائحة الدّم)

في أحيان كثيرة أشعر بأنّي وأبي روحٌ واحدة في جسدين . . . تستوقفني كلماته وتفاصيل حياته التي رواها لي . . . يتراءى لي نار المنفى . . . فأبكي . . . .

أشاركه كلماته وهو يقول :

نمتُ أوّل ليلة غربة . هل نمتُ حقاً؟ ها أنا أستبدل مدينة بمدينة . . مدينة جديدة أحاول أن أستكشف تقاسيمها وأخلع معطفها الليلي لأراها بوشاح الصّباح البهيّ . . لم تغمض لي عين حتّى قطفت باكورة الشّمس!!

وأنا يا أبي مثلك تماماً لم تغمض لي عين!! لم أنم أوّل ليلة وطن!! لم أنم لأنّي تعودت الصّمت والبرد والغموض والشوق . . .هذه أوّل ليلة أشعر فيها بالدفء والوضوح وأجد ملامحي الحقيقية بلا تزويق ولا مكياج . .أجد جذوري وإحساسي الجميل الذي أود الاحتفاظ به لآخر نبضة قلب!! أبتسم دون أن أكون منهكة . . . .أفرح دون أن أعتب على نفسي .

ها أنا أستبدل مدينة بمدينة . . . تغمرني سعادة لم أشعر بها من قبل مذ صرخت صرختي الأولى ، لكنّ مدينتي التي استبدلتها بأخرى كقطعة الشّوكلاته . . . تذوب في فمي وأذوب فيها!! ومدينتك التي استبدلتها . . كوردة بلاستيكية . . . جافّة وجامدة . . بلا روح!!

كم أحــزن عليك يا أبي . . وكم أتمنّى في هذه اللحظة أن تكون معي!!

أيقظتُ جهاد مع أنّها أقسمت لي في تلفون صباحي قبل السفر بأيّام أنّها ستُربيني وتُعلمني الصحو مبكرًا . . أيقظتها وهكذا أدخلتُ هدفًا في مرماها قبل أن تفعل . . ففي الليلة الفائتة لم أتمكن من النّوم فقد أتت أمّ نضال الفرحات بقصتها إلّي . . فرشت حكاياها وأسرارها وحكت . . حكت . . . قلت لجهاد وهي تفتح عينًا وتغمض أخرى ومازالت الدهشة تعقد لسانها عن الكلام :

- في بيت أمّ نضال شعرتُ أنّني أستبدل قلبي الخائف ووجهي الساكن الهادئ!! أحسست بأنّني أمتلك صوتًا يصل إلى أقصى مدى . . لقد استفزتني أمّ نضال بدمها الواضح الذي لا يقبل أنصاف المواقف ولا أنصاف الرّأي . في بيت أمّ نضال وبناتها وكناينها حولنا اكتشفت أنّني عشتُ نيفًا من الزّمن أحمل نصف القضيّة ونصف الحبّ ونصف الدفء!!

قامت جهاد بعدما عرفت أنّه لن يجدي النّوم وأنا معها في نفس الغرفة . . جلستْ على الطاولة المستديرة قبالة البحر مباشرة . . لحقتها لنعانق الرّمل الذّهبيّ وصوت الموج . أخذت ترشف فنجان قهوتها بينما أتابعها لأنّني لا أحبّ القهوة وأنتظر قدوم كأس الشّاي!! تعلق علي ساخرة :

- كاتبة ولا تشرب القهوة!!

- لكنّني بالأمس وفي بيت أمّ نضال شربتها . .!!

- لو تدرين كم كانت فرحتي لأنّ أوّل بيت دخلناه في غزّة كان هو بيت أمّ نضال الفرحات!!

قلت لجهاد ونحن نستذكر تفاصيل زيارتنا لبيت أمّ نضال بالأمس :

- وضع المرأة في غزّة غريب جدًا!! المرأة هنا هي التي صنعت الفرق وأطلقت شارة البدء والتغيير . . غزّة حملت أشهرًا وسنين طويلة وكانت تدعو الله أن تُرزق بذكَر لأنّ الذكر ليس كالأنثى ، ولكن بعد طول حملها وشدته . . وضعتها أنثى . . تألمت . . وظنت أنّ الله لم يستجب لدعائها وناجت ربها (رَبِّ إنّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى) ولكن دعاءها كان مخبّأً في أكمام العطر الذي لم يلبث أن

تفتح وانبثق حتّى فاح شذاه!! حينها عرفتْ رسالة ربها إليها وأنّ رحمها هو الذي حضن الأنبياء وهو الذي سيدفع بالشّهداء!! إنّها الأنثى القادرة على التغيير والتجديد وليس الذكر وحده القادر على صنع النصر!!

صمتت جهاد برهة ثمّ واصلت بدهشة :

- والأم هنا ليست ككلّ الأمّهات ، فهي التي دفعت بأولادها إلى الجهاد . . تذكّرهم بأنّ المقاومة لا بدّ أن تنتقل من الحجر إلى السكين ومن السكين إلى البندقية ومن البندقية إلى الصاروخ والطّائرة الحربية!! شيء عجيب وغريب وكأنّها استبدلت قلبها الذي سكن في الجهة اليسرى بحجر!!

أعترض وأقول :

- أعتقد أنّها استبدلت قلبها الذي في الجهة اليسرى بوطن يشبه الخنجر!!

كم هي صعبة وموجعة الولادة!! أيّة ولادة . . ولادة الأنثى . . ولادة الأفكار . . . لكن ، في أشدّ لحظات الألم واللهب يقلب الجسد على لظاه ينبثق الخلق والإبداع!! يتضاءل الألم ويخفت الأنين وينطفئ اللهب ويبقى المخلوق الأجمل والأبهى (المقاومة) .

لعبة الموت اليومية . . الفسفور . . الاجتياحات اليومية . . الأوجاع المشتعلة تكفلت بتشكيل قلب جديد للمرأة الفلسطينيّة وحتّى لا يتوغل سواد الموت في بياض قلبها سيجته بالدم!! ليس خيارًا ما فعلته المرأة الفلسطينيّة إنّها تزفّ قطعة من قلبها وروحها للحرية . . الحرية هنا لها طعم مختلف . . وهبتك لله ، هي كلمة المرأة التي تقاوم بها ضعف الأمومة المرهف!!

(زيتون بلادي أجمل ما يكونا)
هو ١

عندما نفدت المؤونة (زيت وزيتون وميرمية وزعتر) والتي كانت تحضرها أمّي لي كلّ سنة عندما تأتي إلى زيارتي في عمّان وأحملها معي إلى ليبيا . . ذهبت لأشتري زيتًا ليبيًا . . فشجر الزّيتون هنا هو الأخ التوأم لشجرنا هناك . . لكنّني تفاجأت بأن لا زيت ليبي في ليبيا . . فالزّيتونة في ليبيا لها حكايا مختلفة .

ثمرة الزّيتون تبقى دمعتها على خدها ، تنتظر من يدلّلها ويحنو عليها ويسيجها ، تشهق دهشة وهي تلوّح لهم أن اقتربوا ، اقطفوا نور الثمار والدواء فيمرون ويتركونها تتلقّى سهام الجفاء .

الليبيّ يترك شجرة الزّيتون لا يقطفها ولا يهتمّ بها . فتنحني وتقع هباءً منثورًا .

يذهب الليبيّ ليشتري الزّيت والزّيتون الإيطالي والتونسي ويترك شجرته تنتحر!!

عندما علا نحيبها ، واحتجت ، صار الفلسطينيّ يذهب إليها يعتذر عن الجرح الذي أصابها . استغرب الليبيّ من حنوّ الفلسطينيّ على شجرة الزّيتون وطول باله ونشاطه وهمته العالية وما علم فنون القطاف وأجواءه الرائعة في فلسطين!! عندها قرّرنا نحن المدرّسين الفلسطينيّين أن نبدأ بقطف الزّيتون وخَرْطه ورصْعه والاستفادة منه

بدلاً من شراء الزّيت والزّيتون الإيطالي!!

أتعلم الآن فنون القطاف من زملائي . . أتذكّر أخي «أبو رجا» الذي كان يحثّني على الدّراسة والدّراسة فقط . أقول له ، الله يسامحك لو أجبرتني على قطف الزّيتون حتّى لا يكون منظري مضحكًا كما هو الآن . . الكلّ يعلق على الفلاّح الذي تُقَرْقع عظامه كلّما اعتلى السلم للقطف!! أسمعهم يتهامسون . . يضحكون على قلّة حيلتي وارتباكي أمام الشّجرة . . كما يرتبك الحبيب الصغير أمام محبوبته التي تمر فجأة من أمامه . . في كلّ مرّة يراهن على جرأته وبعض الكلمات التي تعلمها ، لكن ، لا تلبث الكلمات أن تتفلت وتتدحرج كما حبّة الزيتون الآن .!! الآن أستيقظ على وقع حبّات الزيتون . . أجدني مكللاً بالبركة . . أشعة الشمس تختلط بصوت هدير البحر بأغانينا الفلسطينيّة . . إنّه الخريف الذي يحمل ذات الرائحة . . وذات اللون . . وذات الأجواء . . صرنا نغني كما أمّهاتنا ونجلب معنا الشّاي والقهوة وزوّادة تشبه زوّادة أمّي (بندورة ورصيص وخبز بَسْ مِشْ خبز طابون!!) تندفع بقوّة في أعماقي الآن لحظات القطاف . . بالدهشة ذاتها . . بالانتصار . . بالاحتفال . . أستعيد كلّ الصّور . . والألوان . . الخضراء المختلطة بلون الأرض البهيّ الذي يعانق زرقة السّماء . . أتبعثر لصوت المطر وشفافية لونه . . أعشق رائحته وهو يمنح الأرض عمقًا واتساعًا . . في تشرين أضع يدي على قلبي . . أحاول أن أسترجع تلك التفاصيل . . نبضة بنبضة . . حرفًا بحرف . . تنساب المشاهد من وديان الذّاكرة . . فيضج قلمي بحكايا القطاف . . فلشجر الزّيتون في تشرين حكايا فكلّ حبّة تقع في حجر أمّي لها صوت يشبه صوت رجوع الأحبّة إلى الدّيار!!

تربط أمّي أطراف ثوبها الأماميّ إلى نطاقها لتصبح المقدمة الأماميّة لثوبها وعاء لجمع المحصول الأخضر. كلّ حبّة تغفو قليلاً في حجرها على صوت أهازيجها لتصحو بعد ذلك عندما يتم نقلها إلى أكياس الخيش.

على دَلْعُوْنا.. وْعَلى دَلْعُوْنا
زَيْتُوْنِ بْلادي أَجْمَلْ ما يْكُوْنا
زيتون بلادي واللوز الأخضر
والميرامية ولا تنسى الزّعتر
وقْراصِ الْعجّةْ لَمّا تْتْحَمّر..
ما أَطْيَبْ طَعْمَا بْزِيْت الزّيتونا
عَلى دَلْعُوْنا.. عَلى دَلْعُوْنا
بارِكْ يا رَبّي شَجَرِ الزّيتونا
في مِنُّهْ الأَخْضَرْ.. فِيْ مِنُّهْ الأَسْمَرْ
مِنْ غِيْرُهْ السُّفْرَةْ وَلا مرّة بْتِعْمَر.

كلّ حبّة لها قصّة عشق. كلّ حبّة تحلم بعشاقها الكُثر. تشتاق لهم. فكلّ القرية تخرج عن بكرة أبيها، تدب دبيب النمل. كلّ شيء فيها يتحرك. الكلّ يسرع لعناق المعشوقة الأولى. كلّ العائلة تجتمع ولا تجتمع إلاّ على قطاف الزّيتون!! كلّ النّاس يهبون هبة واحدة قبل بزوغ الشّمس للذهاب للحصيدة.

أمّي.. أختي عائشة، أختي وجيهة، أخي أبو رجا، أولادهم، أزواجهم حتّى الأطفال في القماط، يوضعون في المهد، تضع الأمّ المهد فوق رأسها وتذهب للحصاد، فالزّيتونة تنتظر لترتمي فوق صدور العاشقين. لا يبقى في القرية سوى الشّيوخ والعجائز والطّلبة وأنا منهم طبعًا.

كانت أمّي تقول لي :

- مْنيحْ إنّه اللهْ سَتَرْ عَليْكْ بْنِتْفِةْ لِقْرايِة!! لأنّي كنت لا أتقن التّعشيب ولا نكش الأرض ولا تقليم الشّجر ولا حتّى قطف الزّيتون فأنا فلاّح بالاسم فقط!!

تجتمع النّسوة عند القطاف يستعدن ذكريات مضت . تتبلل الحكايا لتكون مزيجًا عن عودة الغُيّاب ، عن لص القضبان والزّنازين الذي يسرق زهرة الشّباب ، عن العرس القادم والولادة القادمة والتي غالبًا ما تكون في الحقل . (لقد جاء المخاض أختي عائشة وهي عالقة على رأس الشّجرة وزوجها يرجوها أن تنزل وهي تصرّ أن تكمل ما بدأت به . وما أن نزلت عن الشّجرة حتّى تفاجأت بالوليد يفر ويجاهر بصوته تحلّقت النّسوة حولها حتّى انتهت عمليّة الولادة بسلام وقطعوا لها الحبل السري بحجر!!!)

كانت أمّي وعندما تسقط منّي حبّة زيتون فلا ألقي لها بالاً تقول بصوت يشبه نواح الريح :

- اِنْقَلْعَتْ عِينّا وْإِحْنا بِنْدَوِّرْ على حبّة الزّيتون وْبِالآخِرْ بْتيْجي بْتِرْميها!!

القطاف للزّيتونة كليلة العرس للعروس ، يجعلها زاهية راقصة بين أصابع الفلاّح الذي يتفنن في التعامل مع الشّجرة وكيفية تسلّقها بطريقة معيّنة تمكّنه من القطف بخفة وسرعة .

للمة حبّات الزّيتون عن البساط تشبه الثرثرة بين الحبيب والحبيبة . فجدتي كانت تجلس تحت الشّجرة ، تتلقف الحبة الساقطة ، تدلّلها ، تحنو عليها ، تسيّجها بيدها تشعرها بلمستها الناعمة ، تنظّف الحبّة من الأوراق والأغصان العالقة بها ومن التراب ومن الشوائب!!

أمّي كان لها سلّة ذات ألوان زاهية يختلط فيها الأحمر بالأخضر بالأسود بالأبيض في تناغم عجيب . صنعتها خصيصًا لموسم القطاف ، كانت أمّي ماهرة في صنع هذه السلال ولم تكن معظم النساء يتقنّ هذه الصنعة . كانت تغزل السلّة من أغصان رفيعة وطويلة من الزّيتون أو بعض الأشجار البرية الحرجية مثل البلوط والسريس . كان لها سلّتان بحجمين مختلفين واحدة بمقبض هلالي والأخرى نصف دائري بحيث يمكن إمساكها أو تعليقها في اليد أو الذراع أثناء عمليّة القطاف .

في آخر النهار وعندما ينتهي الفلاّح من تمشيط جدائل الزّيتونة ، تهبّ نسمات باردة وتنوح السّماء على عري الشجرة من الثمار فيسقط المطر وتنبعث من التّراب تلك الرائحة الآتية من قاع الأرض ، رائحة ليس لها شبه!! لا تشبه حتى فلق الصبح ولا شهقة ضوء الشمس عندما تقبل خدّ الأرض القبلة الأولى!!

تلك هي الرائحة الأولى للشّتوة الأولى تجلل روحنا بالنصر تجعلنا رهيفي الحسّ .

لقد ظننتُ أنني أستعيد ذات الأجواء . . ذات الرائحة . . لكنّني ومع كلّ المحاولات لصنع أجواء مشابهة شعرتُ باليتم ؛ فكلّ حبّة زيتون تقع في حجري . . أقارنها فوراً بتلك الحبة التي وقعت في حجر أمّي ذات حصاد!! كلّ رغيف خبز آكله يذكّرني بخبز الطّابون الذي تخبزه أمي!!

كل كأس شاي أشربه . . يذكّرني بكأس الشاي الذي تغليه أمي!! كلّ شيء هنا يشعرني أنّي في غربة . . أقف بعيداً عن أصدقائي . أنظر إليهم . . وأشعر بأنّ كلّ ما حولي منزوع الدسم . . بلا طعم وإن اكتمل الشبه!!

عماد عقل
هي

يا ترى ما جدوى استحضار قصّة أم نضال الفرحات مع عماد عقل وإعادتها بالكتابة . . ما المنطق في أن أركض وراء كلّ جملة وفاصلة ونقطة في علاقتها العجيبة مع عماد!! ها أنا أنبش الحكاية مرّة أخرى لأحييها . . أصلاً هي حكاية لن تموت بموت صاحبيها حتى وإن لم أنبشها!! كلّ ما أفعله الآن هو أن أزيّن شبابيك روحي المهترئة بأحواض الزهر والريحان وأتقن غزل خيوط النور والنار . . فقبل هذه الحكاية كان قلبي يرتع في باحة ساخنة . . هذه الحكاية أضافت لي درجة جديدة من الغليان!!

حكاية أم نضال الفرحات مع عماد عقل حكاية حورية ناعمة . . رقيقة . . مذهلة . . حكاية الترقّب والطمأنينة والحنوّ على المهد وظلّ لا يترك صاحبه حتى في الظلام!!

لم يُتح عماد عقل لأم نضال فرصة كي تتوقّف وتتأمّل وتربط بين ذلك الفتى الشابّ المطارد الذي جاء من الخليل وبين الرأس المهشّم الذي تخردق بالرصاص فسقط المخّ تحت زيتونة خلف دارها .

كانت تسمع من أولادها عن معاناة المطاردين المجاهدين . . حيث يلفظهم أقرب المقرّبين!! فذاك يذهب إلى عمّته فترفض استقباله وآخر يذهب إلى خالته فتتوسّل إليه أن يذهب بسرعة حتّى لا يوقعها في

مصيبة هي وصغارها وزوجها .

في كلّ مساء تجتمع مع أولادها وزوجها وتتحدّث عن المطاردين المعدودين على الأصابع والذين كان اليهود يرتجفون عندما يسمعون أسماءهم!! ومع ذلك فالناس تحتضر من الخوف والعجز . . تخاف أن تستقبلهم مع أنّهم يحضنون الموت لأجلهم . . فطلبتْ من ابنها نضال أن يحضره إلى المنزل وفعلاً أتى به وجلست معه وقالت له :

- «بدنا» نعمل لك ملجأ ، غرفة تحت الأرض وتعيش فيها!!

عندها انفرجت أسارير عماد ورحّب بالفكرة وبالفعل قام وأولاد أمّ نضال ببناء غرفة تحت الأرض كملجأ ووضعوا فوق الغرفة مزرعة حمام للتمويه ، وصارت الغرفة منطلقاً لعمليات عماد عقل!! ومع ذلك لم يكن دائم المكوث بالغرفة ولكن عندما يكون لليهود حركة مكثفة في قطاع غزّة كان يلجأ للغرفة حتّى تهدأ الأمور ثمّ يعود لممارسة المقاومة هو ومجموعة المطاردين ، حيث لم يكن في ذلك الوقت إلاّ عماد ومجموعته الصغيرة!!

قالت لعماد عندما جاء إلى بيتها وكان بصحبته محمد دخان :

- اعتبر هذا البيت بيتك . . أنا أمّك وأبو نضال أبوك وهَذولْ إِخوتَكْ وأسْتَحْلِفَكْ بالله إذا بِدْكُمْ إِشِي إِنْتَ وِصْحابَكْ لا تِسْتَحوا!!

كانت تلمح عماد في كلّ الطرقات وفي كلّ المساءات . . عندما يشتدّ الحزن والوجع تجد عماداً ، وعندما ينفد الصّبر من قلوب الأمّهات تجد عماداً وعندما تسيل دمعة حارقة من عين أسير ترى عماداً ، وعندما يتمادى الاحتلال في وقاحته وتتفحم اللقمة والأمنية قبل أن تصل الفم وترتعش الدمعة تجد عماداً . . لم يكن الطّريق لعماد صعبًا فأينما وجدت يدًا ترتفع إلى السّماء بدعاء منهك يكون عماد!!

عندما رأت عماداً لأوّل مرّة شعرت به ابن بطنها . . قريبًا من غضبها وجمرها . . بعيدًا عن الصم والبكم والمغشي عليهم ، ممتدّاً من الجرح إلى الجرح . . يحضر عند كلّ ثكلى ويسند من أعجزها صوتها عن النّهوض . عندما رأته توحدت أسنتها بجرأته وتراقص لهبها على حوافّ يديه .

عماد بعينيه المتّقدتين . . بيديه الملوّنة بالتحدّي . . يمزق . . يدمر . . يطلق . . يقتلع الخطى المرتعشة من الأرض . . عندما كان يُجبر الشّباب في الخليل على الخروج ليتدرّبوا على إطلاق النّار ولو في الهواء ليكسروا حاجز الخوف والرهبة من استخدام السّلاح!!

وجهه الأسمر يبرق لها في سجودها . . يؤجّج وجعًا في قلبها . . يقطر الفجر نديًا من جبهته وتعبق رائحة الليمون من ثيابه . . يرتاب منه الرياء وترنو إليه قوافي الإخلاص!!

كان عماد سيفًا . . ما زالت ضحكته ترنّ في أذنها . . ما زالت تسمع وقع خطواته وهو قادم ، نبض قلبه وهو جالس وشكل نعليه . . في كلّ يوم تنزل إلى غرفته ، عندها يستفيق ويردّ عليها السلام .

تناديه بوجع :

ـ يا حبيب الدّار والزّيتونة والليمونة والدوالي والصبّار . .

مكث عماد عندها حوالي ١١ شهرًا ، ولو قالوا لها اتركي هذه الغرفة وسنملأها لك ذهبًا فلن تتركها لأنّ فيها رائحة عماد .

في تلك الليلة وقبل المغرب بقليل جاء عماد وأدخله ابنها نضال من المدخل الثاني كالعادة ، نظرت إلى وجهه . . قالت في نفسها :

– ما شاء الله عماد وجهه زي العريس . . منوّر . . الله يحميه .

لم تشاهده من قبل بهذا الجمال كان حلواً حلواً رغم أنّه كان

صائمًا لأكثر من ١٤ يومًا وكانت تعتقد أنّها ستراه مصفرّاً ذابلاً فوجدت العكس!

سلّمتْ عليه وسألته :

- لِيْشْ طَوَّلْتِ الِغيْبة يمّا يا عماد؟

أسند ظهره إلى الحائط وطمأنها بأنّ كلّ شيء على ما يرام .

- سألته يا عماد :

- صايم وِيلّهْ مفطر؟

- قال اليوم صايم .

خرجتْ من الغرفة لتجهز له الإفطار . . اكتفت بما هو موجود بالبيت وأخذ له ابنها نضال الطّعام وعند أذان المغرب أفطر عماد ولم يكد يكمل طعامه حتّى دخلت عليه مرّة ثانية وقالت له :

- بِدِّيْ أَعْمَلْ لَكْ كاسِة شاي .

عندها قال نضال ربما لا يستطيع شرب الشّاي فالسّائق سيحضر سريعًا ، ولكنها صمّمت على إعداد الشّاي لأنها تعرف أنّه يحب شرب الشّاي بعد الأكل . عملت الشّاي بسرعة ، شرب نصف الكأس . . في هذا الوقت جاء وليد حمدية ونزل على مكان عماد السري والذي لم يكن يعرف به أحد ، نظرت من شبّاك المطبخ وإذ بالدّنيا تنقلب كأنّ القيامة قامت ، أصوات غريبة وحركات مريبة عندها خرج ابنها وكانت سيّارة فولكس فاجن واقفة بباب البيت مدّ يده ليسلم على من في السيّارة ليكتشف بأنّهم قوّات صهيونيّة خاصّة والسيّارة فيها عشرات الجنود!! فجأة امتلأ المكان بالجنود المدجّجين بالسّلاح وحوصرت المنطقة بمئات من الجنود والصحفيين وسيارات الإسعاف وأخذت تجري في البيت من غرفة لغرفة مثل بندول ساعة

فقد اتجاهه ، لا تعرف ماذا تفعل فقد بلغت القلوب الحناجر وضاقت الكلمات ووقفت في حلقها ، لكنّها صرخت يا عماد الجيش على الباب!!

في ذلك اليوم ومن دون الأيّام لم يكن مع عماد سوى مسدّسه الشخصي ، عندها احتضنه ابنها نضال ، وقال عماد بصوت كلّه يقين :

- وصيّتي لك أن تدعو الشّباب يكملوا المشوار فأنا ذاهب للشهادة . صلّى ركعتين في صالة المنزل وصعِد إلى سطح الدّار وصعدت وأولادها معه . سطح الدّار كان مثل النهار من كثرة الأضواء الكاشفة التي سُلِّطت عليهم ، ودَّع أبناءَها واحدًا واحدًا . . أحسّت نفسها كَبَراشُوت تتهيّأ للطيران معه . . تقدّم عدّة خطوات وإحساس عارم بالفخر يكتنفه لأنّه اختار طريقه بنفسه ، بأنفاس مفعمة بآيات القرآن . . كبَّرَ . . وأطلق طلقات متتابعة على الجنود!! تمتم بدعاء لم تتبيّن ما هو . . أفرغ سلاحه من طلقاته باتّجاه الجنود ، هاهي الطّلقات تنتصب من سلاحه تلتهم الخوف والعجز ، لكنهم عاجلوه بنيران أسلحتهم المكثفة . . قفز من السّطح ولَفَّ حول البيت واحتمى بشجرة الزّيتون ليسحب نفَسًا عميقًا من الصّبر والإرادة المملّحة بالدم . . ما زال عماد لآخر لحظة يُتقن مسح الذّاكرة من مفردات الاستسلام والتلصّص على المقاومين من وراء النّوافذ . .

أنفاس عماد كانت تصلها محملة بعطر الليمون وصوته يبتلع التّردّد . . يركض من زاوية إلى أخرى لا يعرف اليأس ولا المساومة . . يطلق الرصاص وأنفاسه تتهدّج بذكر الله!! الجنود يلتفّون حوله من الجهة المقابلة . . يضيّقون عليه الخناق من كلّ الجهات . . كلّ هذا ووليد حمدية يراقب المشهد ، يُهدِّئ من روعها وروع أولادها ، يقول لها :

- اطمئنوا لن يفعلوا لكم شيئًا ، لن يعتقلوكم!!
تنظر إلى وجه عماد . . كان كالملاك .
رأت في وجهه الصبح الذي أضحى قريبًا . . رأت فيه القصيدة التي تتمنّى أن تكتبها .
عندما تصل الأنثى لحافة الموت تنبثق روحًا أخرى وعندما ينظر الشهيد لروحه الطائرة ينبثق شهيد آخر!!
تُشيح بوجهها بعيدًا عنه بعدما مزّقوا جسده بالرصاص ، رأسه تهشّم . . رأت مخّه وقد سقط من رأسه بجانب الزّيتونة!!
- يا ترى ما وجه الشّبه بين زيتونة أبي الولهى التي ترقص بين أصابعه جذلى ، وبين تلك التي قدّت أوراقها لتحضن رأس عماد؟
- أفي الزّيتون حنوّ كما الأمّهات؟
- أيّ مشاعر راودت الزّيتونة وهي تحني أغصانها وتخفي دمعها بصلابة؟
- كيف احتملت الزّيتونة المشهد وجمعت ثنائية الفرح (فرح الحصاد) والموت (موت الأبناء)؟

عندها نزلتْ من السّطح تركض إليه ، تلملم هذا الرأس الذي تفتّت ، لا تدري من أين جاءت بالقوّة . نزل ابنها نضال وراءها ليعيدها ، صرخ الجنود :
- مرة إرجع بِيتْ ، مرة إرجع بيتْ ، وكانت بنادقهم مصوبة نحوها .
أمسكوا بنضال . . أمروه أن يخلع ملابسه بقي بملابسه الدّاخلية . . أخذوا كلّ أولادها للتحقيق . أوصتهم بالصّمود .

كان صوت وليد حمدية مرتعشًا ، وعيناه زائغتان ، شعرتْ أنّه يخبئ شيئًا ما!! بعد أيّام جاء اليهود إلى البيت وأخذوا الكلاشنكوف من المكان الذي وضعه فيه نضال بيده مع وليد الملعون!!

وليد حمدية ذلك الشّابّ الذي كان ينمو ويتطاول كشرنقة بينما وطنه في جوف السّعير!! تموت فلسطين يموت المقاومون لا يهم المهم أن ينمو هو ويعلو!! يمثّل ويداهن ويدافع عن المقاومة والمجاهدين حتّى أنّها كانت تحسبه منهم . . ها هو يشق سمعها بخبر خيانته وعمالته!!

عرس (أبو رجا)
هو ١

للذّاكرة مفاتيح تفتح الحكايا والمشاهد والصّور والرّسائل التي ركضت سريعًا وأوغلت في الغياب . . صورة تستدعي صورة ومشهدًا يجر إلى آخر . . زغرودة من المستادنات[1] اللواتي طرقن بابنا لدعوتنا على عرس ابنهم . . أيقظت صوراً وقصصاً كانت مستلقية بكسل . . أشعر بانتعاش غريب يملأ فراغات الذّاكرة . . يسحبني من يدي لأملأ عيني وأذني بسحر ليلة عرس أخي (أبو رجا) . . تفاجئني الذّاكرة بتفاصيل أفلتت مني . . لكنّها تعود بوضوح أكثر!!!

ولدا في نفس اليوم . أخي أحمد (أبو رجا) صباحًا وابنة عمّي بديعة مساءً . فقالوا على الفور أحمد لبديعة . لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً . فالسّنون مرت (تِرْمَحْ رْماح) وكان ما أرادوا . هل قلت ما أرادوا؟

أرادوا وأراد أخي أحمد . عندما جاء في ليلة من ليالي كانون الباردة وكانت أمّي تجلس بجانب الكانون ونحن حولها نتدفّأ وقال :

- أريد أن أتزوّج بديعة . فقالت معترضة : ننتظر حتّى يرجع أبوك . إلّي مالو كبير مالو تدبير . والعرس بدون عزوة مالو طعم يمّا . وبعدين ما معنا مصاري من وين بدنا نجيب؟

---

(١) المستادنات : مجموعة من النساء الليبيات تخرج من بيت العريس لتوجيه الدعوات إلى الأهل والأصدقاء والجيران يرافقهن الغناء والزغاريد .

- قال لها مستنكرًا :

- ما حَدا بِعْرِف متى بِرْجَع أبوي!! من يُوم ما سافَر ولا حِسْ ولا خَبَر . بْنِعْرِفْ إنّه عايِشْ وْحَيْ يُرْزَق من خالي حْسِيْن وأهْل الزّاوية إلّي في البرازيلِ ومع هِيْك حتّى رسالة ما في!!

- عِزوة أيّ عِزوة!! بِدْنا عِزْوة وْجاهات لما بتجوز غريبة . أنا بدي بنت عمي . وشغلة المصاري لا تِهْكِلي هَمْها أنا بَدَبِّرها .

كانت أمّي محقّة . فأجمل شيء في العرس أن يكون والدا العروسين حاضرين . لأنّ العريس بدون والده كالشّجرة المرْميّة على قارعة الطّريق مقلوعة من جذورها . الفرحة ناقصة بدون الأب والحياة باهتة بلا نظرته!!

مع ذلك ارتاحت أمّي لفكرة زواج أخي من ابنة عمّه فقد سمعتها تردّد بينها وبين نفسها (عليك بالطّريق ولو دارت وببِنْتِ العَمْ وَلَوْ بارَت) ثمّ تعدّل شاشتها البيضاء وترفع صوتها قليلاً وتقول لأختي عائشة (بِنْتِ الْعَمْ بْتُصْبُرْ عَلى الجْفا . . أما الغَرِيْبِة بِدْها تَدْليل) وهذا ما لمسته أمّي ورأته بأمّ عينيها عندما تزوّج ابن عمّتي من بنت حلوة وبيضا غريبة ومدنيّة . كانت لا تعرف من أمور الفلاحة شيئًا ، لا تعشيب ولا نكش ، ولا حصيدة . تبقى جالسة في البيت ، . وكانت عمّتي (صدّيقة) حماتها تعلق عليها ساخرة (والله لأكتب جريدة على إبريق الزّيت . . يا شاطرة في الخلا يا معدّلة في البيت . . والله لأكتب جريدة عَ بلاط رخام . . يا شاطرة في الخلا يا معدّلة في الدّار) وكنّتنا لا في الخلا ولا في الدّار!!

لذلك كلّه فرحت أمّي لاختيار أخي بعد تجربة عمّتي صديقة مع كنّتها المدنيّة ، وهكذا كان أهل البلد على العموم يحبون أن يتزوّج ابن

العم من ابنة عمّه ولا يحبون الغريبة . وارتاحت أمّي من (الرّم)[1] فهي ابنة عمّنا وتعرفها جيّداً وتعرف أنّها مْعَدّلِة وْشاطْرَة فلم يتم فحصها فحصًا دقيقًا . فلم تقبلها لتشم رائحة فمها كعادة النّساء في الزّاوية عندما يخطبون بنتًا غريبة . لم تعطها إبرة لتلضمها أو نقوداً لتعدّها لترى قوّة بصرها ولم تعطها حبّة لوز لتكسّرها ولم تفحص البيت ونظافته فكلّ هذه الأمور معروفة لدى أمّي مسبقًا!!

تمّت الخِطبة بدون تعقيدات أمّا الزواج فتأجّل إلى الموسم حتّى يكون هناك غَلّة من الأرض . واضطرت أمّي لبيع دونم من أرضنا رغمًا عنها مع أنّها غالية على نفسها وأنفسنا كلنا!! ولكن كلّ شيء يرخص لأخي أحمد . العرس تمّ في فصل الصيف كمعظم أعراسنا لأنّ الأموال تكون متوفّرة .

عرس أخي أبو رجا استمرّ سبعة أيّام بلياليهن . أمّي أخواتي عائشة ، وجيهة وقريباتنا ، بقين يغنّين ويرقصن . في الليلة التي تسبق العرس وهي ليلة الحنّاء غنّينا ورقصنا كثيرًا . اشترت أمّي بعضًا من الحنّاء والبعض الآخر لقطت أوراقه من شجرة الحنّاء القريبة من دارنا ، ثمّ جففّت الأوراق وطحنتها ثمّ جبلتها هي وأختي عائشة . وضعوا الحنّة في أكياس صغيرة وصفّوها على صواني كبيرة مزينة بالورود ووضعت أمّي الصينية على رأسها وطوال الطّريق وهي تغنّي وما أن وصلت إلى بيت أهل العروس حتّى بدأت في النقش . كانت بارعة وكأنّها رسامة ، كنت أرقبها من بعيد وهي تنقش الحنّاء على كفّي العروس وقدميها وساقيها ، ترسم نقوشًا جميلة وجذّابة استعارتها من

---

(١) الرّم : البحث عن عروس .

مكتبة

الطبيعة (أشجار وأزهار) تحني وتغني .

هالحِنة إللي جَبَلْناه . . بيجي رطلين ووقية

كله في عرس أحمد . . ياريت منه الذرية

هَالحنة إللي جبلناه . . بيجي رطلين وحفنة

كله في عرس أحمد . . ياريت منه الخِلفة

مْنين جِبْتِ الحِنَّة . . يا طيب الأصل .

من كلّ عطَار شَوية . . ت َفرّيْت مصر

خرجت لألحق بسحجة الشّباب والرجال في الخارج . كانوا يقفون في صفين متوازيين . صف يبدع والآخر يرد ، يهزون أكتافهم برزانة وبحركات متوائمة مع نغمة الغناء ، ثمّ يحْنون قاماتهم إلى الأمام ويصفقون مرتين ، أما الأقدام فكانت تدك الأرض دكًا بصوت عال وأحيانًا يجلسون القرفصاء مع تصفيق الأيدي وإدارة وجوههم شمالاً ويمينًا مع حركة الرّأس .

بدؤوا السَّحْجة بالصلاة على النبي وذكر الله .

وأول كلامي أصلي عَ النبي الهادي . . محمد إللي يشرّفْنا على العباد

أول كلامي أصلي على النبي المختار . . محمد اللي يشرفنا على الكفار

ويحَيُّون الحضور :

يَمسِّيك بالخِير ياللِّي جايْنا تَوَّك

وإنت النجم في محلّ والنجم ضَوَّك

يمسيك بالخير يا قوال يا شاطر

يمسيك بالخير خلي القول عَ الخاطر

يمسيك بالخير يا قوال يا عايق

يمسيك بالخير خلي القول عَ الرّايق

يظلّون يدبكون ويغنون أكثر من ساعة متواصلة دون كلل أو ملل ودون أن يكرّروا ولا حتّى جملة واحدة!

أما الختيارية وكبار السنّ فيدبكون دبكة خاصّة تسمى السّبعاويّة أو الطيّارة . لا يبذلون فيها جهدًا جسديًا ويختارون السبعاويّة لأنّ إيقاعاتها تتميّز بالهدوء والرّزانة وعدم كثرة الحركة .

في هذا اليوم ومع فرحة أمّي التي لا توصف إلاّ أنّني رأيتُ قامتها وقد انحنت وغبار الدّنيا قد علا وجهها!! مع كلّ زغرودة كانت تطلقها تضع يدًا على فمها والأخرى على ظهرها ، أتراها تذكر نصلاً انغرس في ظهرها وظهور أولادها . تضع يدًا على فمها وتغمض عينيها لكي لا تَذَر الريح رمادًا .

عند فجر يوم العرس بدأت نساء البلد بالتّوافد على أمّي ليساعدنها في الطّبخ للعرس . جئن يحملن القدور الكبيرة جداً والمغارف والصّحون والملاعق وذلك لأنّ كلّ البيوت لا يوجد فيها الكثير من الأطباق والقدور . جاءت عمّتي صدّيقة ونساء عمّي وكلّ قريباتنا يحملن الأرزّ والبرغل والسّمنة والزّيت واللحم . طبخت أمّي لكلّ أهل البلد وذبحنا عجلين كبيرين .

عند الظهر أخذوا أخي أحمد ليتحمّم حمّام العريس . أخذوه إلى دار خالي صابر كعادة أهل البلد فالعريس يتحمّم في دار أحد أقربائه أو أصدقائه حيث يقوم الشّباب بتحميمه وإلباسه القمباز والحطّة والعقال والكندرة .

بعد الانتهاء من الحمام أخذوا يغنّون له :

طِلْع الزِّيْن مْنِ الحْمّام . . الله واِسْمَ الله عَليه

طايِحْ عَ الحْمّام يا أحمد . . يا بَعْدي وَالبَدْلِة حَرير والشعَر مَندي

عرسك والله يا أحمد . . عرس غالي علي

حمّامَكْ يا رِيْتُهْ مَبروك . . وْفي دَلالْ أمّك وْأَبوك

وكل العالم يْحِبّوك . . بْها السّاعة الرّحْمانية

عندها انفجرت أمّي بالبكاء . أعياها الوجع المسافر ، هل اشتاقت لخلّها كي تضع يدها في يده وترقص فرحًا بولدها؟ آه . . لقد جعل فرحها هشًا زائفًا . لكنّها استدركت أمرها ومسحت دموعها بسرعة كعادتها وعادت تغنّي له أغاني التلبيس :

اِلْبَس اِلْبَس يا أحمد وِمْبارك المْلبوس . . ثُمّكْ يْحاكيني وْعِيْنيك عَ الْعَروس

اِلْبَس اِلْبَس يا أحمد ومبارك لِعْقال . . ثُمّك يْحاكيني وْعِيْنك عَ الغزال .

ركب أخي أحمد فرسًا جميلاً عليه الكثير من الزينة والدّناديْش وحمل شمْسية مزيّنة بالورود الكثيرة . الرجال حوله يغنون ويصفقون والنّساء خلف الرجال يهاهون ويزغردون .

خرجنا إلى ضواحي القرية وجلسنا تحت أشجار الزّيتون ، شربنا العصير وأكلنا الحلوى وبعد العصر عدنا إلى القرية وبالطبع كلّ أهل القرية يلتزمون بالحضور وتقديم الواجب فالأفراح تكون دون دعوة النّاس الكلّ يأتي دون دعوة .

ذهبنا بعدها لإحضار العروس من بيت عمّي وكانت العروس تلبس ثوبًا جميلاً جداً لم أرَ مثله في حياتي . لقد كان مطرّزًا تطريزًا كثيفًا من الأمام والخلف وعلى الأكمام . لقد كان لوحة فنية . كان

الثوب أسود عليه ألوان مزركشة قرمزيّ ، أصفر ، ووضعت على رأسها شالاً طويلاً والكثير من قروش الفضة بشكل دائري على أطراف الرأس . وصلت العروس لبيتنا وكنت أراقبهم من بعيد تارة أكون عند الرجال وتارة أذهب عند النساء . .

تلتقط مريم الحكاية التي طفت الآن . . تكتب وتكتب وكأنّما عثرت على كنز . . أشعر بتأنيب الضّمير لأنّ أطفالنا الذين ولدوا في المنفى بلا ذكريات بلا أهل أو أقارب!! تحاول مريم أن تصنع ذاكرة جديدة لها ولأطفالها ، تأخذ منّي ما أكتب وتعيد كتابته بقلمها الذي ينبض بحب أرض لم تطأها . أراها تتلصّص على ذاكرة عمرها ستون عامًا بأنفاسها ونبضها!! أستطيع أن أقيس بميزان أبوّتي الذي لا أملك سواه درجة الشّوق ومنسوب العشق الذي يعبث بقلبها وأصابعها!!

أدرك جيّداً أنّ الرّواية التي تكتبها ما هي إلاّ خدعة تساعدها على العيش في تربة سبخة مالحة . . إنّها تحاول وبكلّ بساطة أن تغزل خيطًا يربطها بتلك الأرض التي تتمنّى وطئَها في يوم ما . .!! ترسم ملامحها وأصابعها ولغتها وزغاريدها . . أشعر بألمها وكآبتها لكنّني عندما أفتح لها بابًا من أبواب الذّاكرة . . أطفئ نارًا تعبث بها . . أبلّل ذاكراتها الجافّة وأحيي عشقها الذي تخاف أن يضمر!!

قصة مؤمنة

هي

أتخيّل نفسي أُخرج الدّفّ ، أضرب عليه . . أدبك مع نساء البلد كما دبكت جدّتي يوم عرس عمي ، أزغرد ، أُهاهي وأغنّي وأُخرج الكاميرا لألتقط االصّورة التاريخيّة ، لقاء مؤمنة وبلال!!

قبل مجيئي إلى غزّة كنتُ قد أنهيتُ كتابة فصل (عرس عمّي أبو رجا) يبدو أنّني لم أنتهِ ، يبدو أنّ للقصة بقيّة . . والبقيّة هنا في غزّة . . .

ما الذي فعلته بي قصّة مؤمنة . .؟ جعلتني أقفز وأطير مع قصّة حبّها العجيبة!!

قصّتي مع مؤمنة تبدأ من الصّباح الباكر . . حيث أنهينا فطورنا في فندق كومودور غزّة وبسرعة . كان فطورًا بطعم مختلف (جبنة بيضاء ، فول مدمس لذيذ جداً ، شرائح من البندورة والخيار الغَزّيّ ، زيتون أخضر وزيتون أسود وحمص ولبنة وزيت ودُقّة وبالطبع شاي بنعنع مع تيرموس شاي إلهام الذي لا يفارقها) كلّ شيء هنا يرضع من طهر هذه الأرض وبركتها ، كانت بثينة تأكل بنهم ، تأكل لقمة وتعلق :

- وِشْ ذا الأكْل اللذيذ!! عُمْري ما أكَلْت بْشَهيِّةِ مِثِلْ هاليوم!!

جاءها تلفون من أبيها تحدّثت معه ومع أمها سمعتُها تقول له :

- يوبا تَراني في الجنة ، وِشْ أقول لك ، أنا ماني مْصَدقة روحي إنّي في غزّة!!

جاءتنا مُنى سكيك مسرعة :

- يالله يا جَماعَةْ .. تْأخَّرْنا .. مش كِدى النّاس في الجامعة الإسلاميّة بيِسْتنونا من زمان .

شعرنا بالحرج قلتُ لها :

- لقد أخذتنا أمّ نضال الفرحات ساعة كاملة على حصانها ولم نستفق إلاّ على طرقات إلهام على باب الغرفة وهي غاضبة :

- وينْكُم ، أدُقّ عليكمْ وما تْرُدّون ، مَعْكُم عَشَرْ دقايق تِنْزِلون المطعمْ في الطابق السُّفْلي ، اكبِسوا في المَصْعَد على سالب واحَد وأنا سابْقِتْكم .

خرجنا بسرعة نتبع منى التي ستأخذنا في جولة إلى الجامعة الإسلاميّة وجدول مزدحم لم أتبيّن كلّ فقراته لحد الآن . العم (أبو عادل) ينتظرنا في المكروباص بجانبه تجلس مؤمنة الرقب . أبو عادل سائق الباص الذي سيرافقنا طوال أيّام رحلتنا ، سيكون معنا بتلقائيّته ومرحه وضحكته المميّزة وقاموسه اللغويّ الأبويّ الخاصّ به .

- يلا يابا ، انزلوا هَيْنا وْصِلنا .

- أتْركوا أغْراضْكم في الباص لا تْخافوا رَحْ أديْرْ بالي .

(بو عادل على قولة إلهام) رجل ممتلئ الجسم هادئ الصوت .. صامت على الأغلب ، في وجهه مزيج من البساطة والسّماحه والهدوء ، فيه شيء من أبي ، شيء من قامته المتوسّطة وسمرته وصلعته ، هو في مثل سنّه وحزنه ويحمل الكثير من الهزائم والقليل من الانتصارات .. لكنّه راض!!

عندما نتحدّث يعدل مرآته ليعطينا ابتسامة رضا وانسجام ، أحيانًا يضحك من قلبه خاصّة عندما تتحدّث بثينة بطريقتها الخاصة أقصد

استخدامها للتصغير ، فعندما قالت بثينة يا حلاة البرتقيلة ، ضج بضحكة من قلبه وخاصة بعدما علقت جهاد على بثينة قائلة :

- صراحة أنا الآن اطمأنّيت على مستقبل اللغة العربيّة معك .

عندما نصل الفندق في آخر الليل كان حريصًا على إيصالنا إلى باب الأسنسيل مع إشارة أبوية حانية :

- ناموا كْوَيِّس عَلَشان أنا جاي مع مؤمنة ومنى بَدْري . . فْهِمْتوا!!

نضحك أنا وجهاد ونقول له حاضر يابا!!

في الميكروباص الصغير يتحمّل أحاديثنا وطلباتنا وتأخّرنا ، يضحك من قلبه ، مؤمنة تقول نحن من الوفود التي انسجم معها (أبو عادل) كثيرًا . تُخرج جهاد لوح شوكولاته توزّعه على الصّبايا ولا تنسى حصة «أبو عادل» ، تأخذ مؤمنة قطعة الشّوكولاته تقضمها وهي تقول :

- كم يحب بلال هذه الشّوكلاته!!

- تقاطعها منى : يا جماعة مؤمنة عاشت قصّة حبّ لمدّة تسع سنوات مع حبيب لم تره ولا مرّة واحدة!!

قالت مؤمنة :

- بل كان حبًا رأيته بعين قلبي لا بعين رأسي .

قلنا بصوت واحد :

- الشّعب يريد قصّة حبّ مؤمنة .

قالت :

- في اليوم الذي كان مقرّراً أن يأتي بلال لخطبتي هو وأبوه القادم في إجازة من السّعوديّة . . اعتقلوه وحكموا عليه بالسّجن لمدّة ستّة عشر عامًا ونصف!!

يومها قال أبي لأمي :

- اذهبي واسألي بنتك شو رأيها؟

- قلت لأمي سأنتظره!!

- قالت ستّة عشر عامًا . . قالتها لتتأكّد لا لتثنيني عن القرار . .

- قلت إن تخلّيت عن بلال سأتخلّى عن القضيّة وعن فلسطين وعن الأسرى!!

تنهّدت أمّي بحرقة وقالت :

- قد ترهقك هذه الكلمة وقد تتعبك . . لكنّها لم ترهقني ولم تتعبني!! فقد زادني قراري انتصارًا وكأنّي آنست نار موسى ، هذه (النَعمْ) جعلتني ممشوقة أحمل فوق رأسي تاجًا . . اكتشفت من خلالها قدرتي على الصّمود وأنّ العمر لا يساوي شيئاً أمام رجل وهب روحه للوطن ، اكتشفت أنّه لا وطن للذين يقفون على الحياد ولمن يقفون مواربة لا إلى هنا ولا إلى هناك!! لم ترهقني هذه الكلمة ولم تقتلني . لقد فتحت لي أبواباً تفوق الخيال .

وبدأ ربيع جديد في حياتي مَليء بالترقّب والدهشة والاحتمالات والأمنيات والرسائل والأحلام . قدرنا أن نحيا هنا وفرارنا من القضيّة لن يغير شيئًا من أقدارنا!!

- قالت حبيبة مندهشة : هل فكّرت قبل النطق بنعم؟

قالت :

- لا أدري كيف قلت نعم ، كلّ ما أذكره أنّني لم أتردّد ، لم أهتزّ ، لم ينهكني الدّوران . لم أملك طريقًا غير هذا الطريق . شعرت حينها بضوء قوي يتسرّب إلى أعماقي ينيرها ، يغنيني عن كلّ ضياء العالم . كان قراري حاسمًا يمتلئ صحة وعافية . . شعرت حينها أنّني قاب قوسين من ميلاد جديد!!

- لا أتخيّل أن تحبّ المرأة رجلاً دون أن تراه . . قالت بثينة :

- لكنّها أحبّته دون أن تراه وهكذا هي المرأة الفلسطينيّة ، تحترف الحبّ المدهش والموت المدهش . نحن لا نحبّ بالضرورة ما نراه ، قد نحبّ من ترتسم ملامحهم في أذهاننا نشعر أننا وجدنا ضالّتنا بهم . هذا الحبّ جعلها للضّرير عصا . . وللنهر ماء بعد أن أوشك على الجفاف . . جعلها أرقّ وأجمل وأصفى . هناك حبّ بارد وذابل يأخذ منّا كلّ شيء ويوهمنا بأننا نحوز الدّنيا ثمّ لا يلبث أن يبث فينا حزنًا وكآبةً وهمًا وقلقًا وضجرًا . .

وهناك حبّ كحبّها . . طهور كماء السّماء ، زكيّ كما الريحان ، نديّ كزهر اللوز ، ناعم كشمس الربيع ، يُغرق روحها بالسكينة يردّ إلى الرّوح بهجة الزهر ويضيف إلى العمر عمرًا ويبعث في الرّميم حياة!!

استدرجها إلى حبّه ، بجنونه وسلاحه وشذاه الذي يعبق في المسجد وهو يجمع شبّان الحيّ يوقظهم لصلاة الفجر ولأنّها لا ترضى بأقلّ من اللؤلؤ ولا تفتح قلبها إلاّ عندما تتدفق شرايينها بالحبّ أقسمت أن تصبح موطنه الثّاني!

بلال جاءها بانتصاراته وبصهيل خيله العاديات المغيرات!! مجرّد حمله للسّلاح كان كفيلاً بإيقاظ قلبها ، لم تربح بلال بعد علاقة عابرة أو نظرة أو ابتسامة . . بل ربحته بعدما راهنت على فلسطين التي تطير في قلبه كفراشة ملوّنة . في الحقيقة عندما قالت له نعم فقد قالت لفلسطين من النّهر إلى البحر نعم ، قالت نعم للأسرى وللقضية! قد تكون خطوة مجنونة فلم يكن يربطها ببلال أيّ رابط . . لا خطوبة ولا كتب كتاب ولا حتّى قراءة فاتحة فقط موعد للمجيء إلى بيتها وخطبتها!!

بلال هو من مدّ لها حبل النّجاة من دنيا يخامرها وهن ورماد . . ، أحبّته دون أن تراه ولكنّه كان تلميذ والدها النجيب في الجامعة الإسلاميّة وكثيرًا ما تسرّبت من أبيها كلمات تنفث فيها لفح اهتمام وإعجاب وتشعل في القلب جذوة نار ترتاح لها النفس وتشتاق!!

عقدت هدنة مع عمرها . . قالت له توقّف قليلاً ولا تُمعن في الانغراس . . فبلال على الباب صدّقني ولن يطول الغياب . . هذه العبارة كتبتها على مرآتها!!

- بلال . . . كيف صار هذا الاسم حبيبًا إلى قلبها في ليلة وضحاها؟

- كيف تحوّل من مجرّد شابّ يحمل السّلاح ويرابط مع الشّباب ويدرس في الجامعة إلى شابّ ذي علامة فارقة في حياتها؟

- كيف صار فارسها الذي أيقظ عينها من سهوتها؟

تشعر كأنّها عادت مراهقة . . تضع رأسها على الوسادة في كلّ ليلة لتحسب على أصابعها الولهى كم يومًا بقي لتراه . . ستّة عشر عامًا ومع ذلك كانت تتلذذ بقطف ورقة الروزنامة واحدة تلو الأخرى!!

تنظر إلى أبيه تارة وإلى أمه تارة أخرى وتقول في نفسها :

- يا ترى هل يشبه أباه؟ ثمّ تنظر في وجه أمه وتتساءل :

- ماذا أخذ من أمه؟ لون شعرها؟ أنفها . . فمها . . ثمّ تخرج من تأملاتها سريعًا!!

تقول له :

- أيّها السّجين الحبيب الغريب أنت من يبدد ضيقي وعزلتي . في كلّ مساء توشوش في أذني بكلام أزهو به . . يجعلني أمضي للأمام ولا ألتفت للوراء!! أعرف أنّ الكثيرين يتربّصون بي وبقراري . .

يأتي خُطّاب . . أمّهات وأخوات . . يحاولون إقناعها بالعدول عن

رأيها . يردّدون ذات العبارة :

- لا شيء يربطك به . اعقلي وبلا جنون!! فتمارس دورها الذي تعشقه في الصّمود :

- لن أتراجع عن قراري . . أنا مخطوبة لبلال ولن أتركه . سأنتظره!!

يسخرون منها . يقولون لها ذنبك على جنبك ، إنتِ حرة . كيف ستعيشين الانتظار وقسوته؟ ما زلتِ في ريعان شبابك . عندما يخرج ستكونين قاربت على الأربعين ستضيع حياتك هباء منثورًا .

تفزعها الكلمات وتربكها النّتائج التي توصّلت إليها أمّ العريس وتستوقفها قليلاً ثمّ تقول لها بغضب :

- بحبّه وْبِدّي اسْتَنّاه!!!

تغلق عينيها فترى بلال أمامها . . ترسم صورته بقلمها . . تسمع صوته بأذنها وتستغرب من القوّة والإصرار التي يمدّها بهما الله في مواجهة نفسها والناس .

عندما سمع أهل بلال بهذا الكلام جاؤوا لخطبتها رسميًا وعلى استحياء ، كتبوا كتابها غيابياً حتّى تستطيع أن تزوره كزوجة ولكن مضت تسع سنوات ولم تحظ بزيارة واحدة .

استغرقت في حكايتها . . تحدّثت عن التلفون الذي دخل السّجن . سألتُها وكيف دخل التلفون السّجن مع كلّ هالترتيبات الأمنية؟

قالت :

- التلفون يدخل قطعاً ويكلّف دخوله أربعين ألف شيكل أي اثني عشر ألف دولار رشاوي للجنود اليهود حتّى يدخل!! وفي أحيان كثيرة

يُصادر ويعيدون الكرّة مرّة ثانية لدرجة إنّه في ضابط يهوديّ قال لبلال :

- ما مليتوا والله تعبت منكم . .

ويقول بلال :

- إحنا ما تعبنا!!

في آخر أيّام سجنه كتب روايته (الشاطر حسن تجربة لها ثمن) وعندما كان يصل التلفون لغرفته يُسمّع لها ويُنَقِّلها ما كَتَب . . في عشر دقائق فقط ، تكتب ما تسمع بسرعة عجيبة إلى أن أنهت كتابة الرّواية في ثلاثة أشهر ودفعتها إلى المطبعة وهذا الكتاب هو أوّل مولود لها ولبلال . .

خرج بلال في صفقة وفاء الأحرار في ٢٠١١/٩/٢٠ قضى من مدّة محكوميته تسع سنوات فقط .

اتّصل الأسرى الذين وصل التلفون إليهم في الزّنزانة وقالوا لها :

- بلال أخذوه على معبر إيريز!!

جفّ ريقها ولم تدر ما تفعل . بعد الاتّصال الأوّل بدقائق . . اتّصل ابن عمّ بلال قال لها :

- أنا رأيت بلالاً وقد أخرج رأسه من نافذة الباص . . والله رأيته يا مؤمنة!!

لم تذهب لاستقباله على المعبر . . . . فقد أوصاها ألاّ تأتي . . قال لها :

- أنا آجيك مش إنتي تيجي . . إنت ملكة وأنا باجي لعندك!!

عندما وصل . . لم يكن يمشي بل كان يطير . . جاء خالها ليصور اللقطة التاريخيّة . . استدار بلال إلى الخلف وسأله :

- من أنت؟

قال له :

- أنا خالها .

قال :

- مَعْلِشْ بِدّيْ أَكون مَعْها لخَالْنا!!

رهانها كان غير مأمون إطلاقًا لكنّ يقينها ظلّ يقينًا . . عاد إليها كما كانت تجزم . . ها هي تراه أجمل مما كانت تتخيّل . . تتلمّس فرحها وزهوها واشتعالها فلا تصدّق أنّ يدها في كفّه . . ها هي تفتح عينيها على فرحتين وشوقًا واحدًا . .

يتأملها بعينين دافئتين تشبهان البحر في اتساعهما ونقائهما وموجهما الهادر ويهمس :

-أنتِ من فتحتِ لي قوس الصّمود بيدٍ وأغلقته باليد الأخرى لتقولي لي لا رجوع عن الطّريق الذي اخترتِه . . لقد كنتُ أتنفّس تمرّدك . . لقد وضعتِ قلبكِ وحياتك في مهبّ العاصفة . . لم أسمع أنينًا ولا ضجيجًا . لقد منحتني القدرة على التّحمّل . كنتُ أصحبك في كلّ ليلة نمشي على شاطئ غزّة الذّهبيّ اللامع . . نشتمّ رائحة البرتقال والليمون . . أنتقل معك في قارب الحرف ما بين غزّة ويافا وحيفا . . نأكل السّمك المشوي الذي تحبين . . نقاوم النّسيان ونصرخ صرخة كبرى تملأ الكون ضد الانصهار . والاستسلام . . أمسك بيدك نمشي في شوارع غزّة نأكل البوظة من عند معتوق ونمشي في الشّارع الطويل . .!!

تنظر إليه وتقول :

- ما أجمل اللحظة التي يمتزج فيها الواقع بالخيال . .!! كلّ لحظة

كنّا نتخيّلها معًا كانت تحدث فعلاً كنّا نحدق في بعضنا البعض مشدوهين غير مصدّقين نقبض على المشهد ونحن نضحك نرفع أعيننا إلى السّماء نشعر أن الله معنا يسمع همسنا ونجوانا .

تطلب مؤمنة من (أبو عادل) أن يتوقف أمام محلّ البوظة . . نظرنا إلى المحلّ قلنا لها هذه ليست بوظة معتوق قالت :

- رح أطعميكم اليوم بوظة مسك وعنبر وبكرة رح أضيفكم بوظة معتوق ولا يهمّكم!!

المدرسة

هو ١

أتأمّل المدرسة التي أقف على بابها أوّل مرة . . مدرسة الزّاوية الابتدائية .

وجوه الأطفال السمر تناديني ، أصواتهم الرنّانة تذكي في ذاكرتي النّور فأصحو عليَّ ، أتذكّرني طفلاً عمري ستّ سنوات وأنا في هذه السنّ الاستثنائية ألقى بي أبي عند الشيخ عبد الرّحمن الرابي ، فقد كان الأطفال يدخلون المدرسة في سنّ السابعة أو الثامنة وحتى التاسعة والعاشرة (عندما يفطن أبوه له يبعثه إلى المدرسة .)

أتذكّرني أشبه تلميذ سقراط ، ذلك الشاب الذي رغب في التعلّم فجاء إلى سقراط يبغي الحكمة فقبض سقراط على رأس الشابّ ودفعها تحت الماء وعندما أوشك على الغرق جذبه سقراط خارج النهر وأرقده على الضفة وسأله :

بماذا كنت تفكّر وأنا أمسك برقبتك تحت ماء النهر؟ ما الشيء الذي كنت تتوق إليه بشدة أكثر من أيّ شيء آخر؟

أجاب الشاب :

- أردت أن أتنفّس ، أردت الهواء .

- فقال له سقراط مقولته الشّهيرة :

عندما ترغب في التعلّم بقدر ما كنت ترغب في بعض الهواء عُد إليّ مرّة أخرى .

وهكذا كنت!!

أحاصر الأحرف وأندسّ بين خلايا الكلمات وأقايض الدفلى بالكتب حتّى أعبق طيبًا وأهب روحي روحًا أنيقة . أضع قدمي ليلاً في طشت ماء بارد حتّى لا أسهو واستمرّ في الدّراسة!!

كنت كآلاف الفلاّحين الطيّبين الذين لا يعرفون طريقًا لهم سوى الأرض والعلم . كانوا يعرفون أن العلم والأرض هما المارد في وجه الاحتلال والظلم والفقر .

اشتعل حمرة عندما جاء أبي ليسأل عنّي شيخي :

- كيف حال عبّاس؟

- عبّاس أتوماتيك .

يشع وجه أبي رضىً وفخرًا وهو الذي يعرف أن العلم للفلسطينيّ هو اليقين الذي يقاوم به التيّار فيجعله يطفو فوق الوحل والطّين!! ثمّ يقول :

- لنا العظم ولك اللحم .

أنظر في وجوه الأطفال ، أتعرّف على أسمائهم . أجعل من صدري أرجوحة . أقطر السُكّر في أفواههم . أتُرى فيهم عبد المعطي؟

أضحك فجأة ، بينما الأطفال مندهشين!! أتذكّره خفيفًا كريشة . يجيب على سؤال أستاذنا عندما يسأله عن اسمه كصاروخ لا يعرف أين يستقرّ .

- عبدك عبد المعطي مصطفى رزق .

أترنح في صدر الأرض كنوى الزّيتون الملقى حول سور مدرسة

(بديا) ، فقد كانت أمّهاتنا يدهنَّ خبز الطّابون السّاخن بزيت الزّيتون يضعن داخله بعض حبّات (الرصيص) . في وقت الغذاء نخرج خارج المدرسة نجلس متكئين على السور نرصف الأرض نوى زيتون حتّى قال أحدهم ساخرًا :

- سيأتي يوم وتكون هنا غابة زيتون والسبب أولاد الزّاوية!!

أشهق كرعشة طير عندما أرى المدير عادل خضير وهو يقف على باب المدرسة في عز المطر يمسك بعصاً غليظة يضربنا على أيدينا المثلجة من شدة البرد إذا تأخّرنا عن جرس الطابور . وقد كنّا نخرج من الزّاوية أوّل بزوغ الشّمس . نمشي خمس كيلو مترات حتّى نصل قرية (بديا) ومهما كانت الظروف الجوية نخرج ، مطر ، ثلج ، سيول ، عواصف . ولم أكن أملك سوى جزمة صغيرة سوداء كاوتشوك ومشمع أضعه على رأسي ليحميني من المطر وقميص رقيق أتعجب كيف كان يسكب دفئًا في جسدي الهش الصغير!!

ما زلت أذكر بدلة الفوتيك ذات الجيوب الأماميّة الكبيرة التي كان يرتديها الآذن محمود يسقينا كوبًا من الحليب السّاخن نحظى به إذا وصلنا مبكرًا .

يالله ما أروع فتنة المدرسة!! نعم فللمدرسة فتنة لا تقل عن فتنة أجمل النّساء ، ما زلتُ أُراقص روائع الشعر العربيّ على طرب ، فقد كانت تعطى لنا في بداية كلّ أسبوع قصيدة من روائع الشعر نحفظها ثمّ نُراقصها أمام الأستاذ . كنّا نتبارى في حفظ كلمات اللغة الإنجليزيّة .

المدرسة مرّة أخرى!! منها قرّرت إشهار حلمي . المدرسة مرّة أخرى تُلقم قلبي فرحًا ورضا . أحتمي بها . أتقوى بهؤلاء الأطفال . ألوذ بهم ويلوذون بي .

أحمل وزر خروجي من وطني على ظهري . ولكني والله يعلم أنّي ما كفرت ولكني أُكرهت!!

أكظم غيظ غربتي . أكظم وخز أشواكها لقدمي . لكنّني مع هؤلاء الأطفال شُفيت من ارتعاش الصوت . من أنفاسهم سيكون هناك شكل آخر للخيال . من بين أناملهم لمحت الصّمود . . والنصر .

أرسم لهم فلسطين الزّيت والزّعتر ، فلسطين العدس والبُرْغل ، فلسطين التّين والزّيتون والإسراء والأقصى . . الشيح . . والميرمية . . والعكوب واللوف والزعمطوط والخبيزة .

فلسطين الجدائل المحناة التي ترفض القبول بالأمر الواقع ، جدائل هي أسلاك شائكة من الغضب . أعجن لهم في كلّ حصة فطيرة فلسطين بطعم الجرح ولون الدم . أخبز لهم خبز الطّابون ودخانه المتصاعد من البيوت . دخان يرسم بألوانه السوداء جوع الفلسطينيّ وحصاره وتهجيره عنوة . ويرسم هذيان الأنظمة ولهاثها وحمايتها لإسرائيل .

في ذات يوم فاجأني (فاتح الليبيّ) الطالب ذو الثمانية عشر ربيعًا وهو يقرأ قصّة عن القدس وكأنه عاش فيها وشرب ماءها وصلى في مسجدها!!

هؤلاء الأطفال هم العجلة التي ستسير عكس العجلات العربيّة ومن لا يرغب بالسير معها ستدوسه . أنا لا أحلم . المسأله مسألة وقت . سترون . هؤلاء الأطفال هم حبّات المطر القادمة التي ستحيي الأرض الموات . فعندما تزمجر رياح الغربة في عتمة ليلي وتعوي كذئب ، يتلو الأطفال ترنيمة العودة ، ينشدون أهازيجنا وأغانينا . هم عائدون معي هم يحبون فلسطين مثلي . ففلسطين ليست

للفلسطينيّين . هي لنا كلنا . هؤلاء الأطفال صاروا غمد فلسطين القادم وهذا كان يُسَكِّن ألمي . معهم أيقنت بمقولة جلال الدين الرومي : (لا تحزن . فأي شيء تفقده سيعود إليك في هيئة أخرى) .

قصة (فاتح الليبيّ)
كعك برائحة القدس

كثيرًا ما كان يتحدّث عن كعك القدس : رائحته ، طريقة عمله معجونًا بالماء والطّحين والملح والسّمسم ، وقوفه اليومي عند باب العامود مناديًا «يا قـدسيّ ، ياكـعك . . . . ياكع . . . . ك يا قدس ، كعك القد . . . . س يا كعك» .

كنت أقضي معه أوقاتًا ولا أجمل ، ما بين زقاق القدس وأبوابها : باب العامود وباب الواد وباب الأسباط . القدس هي البطل الحقيقي لجلساتنا يوميّاً ، فأبي لا يملّ الحديث عنها وأنا لا أخفي تعطشي لزيارتها والسير في أزقتها وأكل كعكها .

كثيرًا ما كنت أقول له :

- ما دمت كنت بائعًا للكعك ، وكنت أنت الذي تصنعه وتبيعه فلماذا لا تصنعه لنا الآن؟

لكنّ سؤالي كان يرتدّ دومًا صدى دون إجابة ، كان أبي يتحاشى النّظر في عينيّ وأنا أطلب هذا الطّلب . أكان طلبي غريبًا أم صعبًا؟!

والآن وأنا أمشي في أزقّة القدس المسقوفة ، أقف عند باب الواد ، أغذّ السّير بسرعة إلى جدّتي لآكل كعك القدس الذي تصنعه ، عرفت الإجابة التي كانت تحمل دمع أبي وصمته .

كعك القدس مجبول بماء القدس مرت عليه نسماتُ هوائها ،

وخيوطُ شمسها، وتكبيرةُ مسجدها الأقصى؛ ولذلك لن تظفر بطعمه أبدًا، إذا لم تكن في القدس!

كانت جدّتي تغدقني بالكعك، حتّى لوددت أن تكون لي ألف معدة! وعندما مازحتها بذلك قالت:

- هذا الكعك ليس كلّه لك، بل لكلّ أحبابك ورفاقك في المنفى، لعله يوقظ الخلايا النائمة تحت الجلد العربيّ فيضحى الكعك ثورة وسعيرًا!

إنها تراني ذلك الصبي القادر أن يلحّن لحن العودة!! حينها وقعت في حيرة من أمري، أمام نفسي من جهة، وأمامها من جهة أخرى.

الآن، وأنا أركب الطّائرة إلى المنفى من جديد، أستحضر حكاياتها فتشتعل نار الوجد مرّة أخرى، صوتها يتأوه داخل صدري، حكاياتها شريكتي في عتمة المنفى وحاميتي من الانزلاق، ومكفكفة دموعي على أبي والشاحن الذي أشحن به قلبي المطفأ!

كانت الأحداث تتسارع داخل رأسي بسرعة توازي سرعة الطّائرة التي توشك على الهبوط في مطار طرابلس الغرب!!

صوت المضيفة يعلن أنّ علينا ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، وما أن بدأت أخطو أولى خطواتي على سلّم الطّائرة حتّى بدأت بإلقاء كعك القدس على كلّ المستقبلين، فاشتعل أرض المطار ثورة وسعيرًا.

جرثومة اسمها فلسطينيّ
هو ١

مدير المدرسة الأستاذ حلمي أبو لقمة رحب بي أشدّ التّرحيب وكان يصرّ أن أُدرس ابنه نجيب ، وكثيرًا ما كان يبقيني بجانبه أقص عليه حكايا فلسطينيّة .

ومع أن مستوى المدير الدراسي لم يكن يتجاوز الإعدادية فلم يكن يخجل ، ويقول :

- إن الظروف وحدها هي التي جعلتني مديرًا عليكم . كان يحب فلسطين والفلسطينيّين وكان يحييني قائلاً :

- أهلاً أبو شام .

في المدرسة أحببنا بعضنا البعض وتآلفنا الفلسطينيّ مع الليبيّ مع المصريّ مع التونسي والسوداني . كنت المترجم بينهم فالمصريّ لا يفهم كلام الليبيّ . والليبيّ لا يفهم كلام المصريّ . فعندما يتكلّم المصريّ يسألني الليبيّ :

- شِنْ بِدْوِي . أيّ ماذا يتكلّم؟

وعندما يتكلّم الليبيّ يسألني المصريّ :

- هو بِيْقولْ إيه؟ عاوِز إيْه؟

كنا نتحدّث في كلّ شيء ، لكنهم كانوا لا يعرفون شيئًا عن القضيّة ، عندهم مشاعر تتراوح بين لوم الفلسطينيّ والعطف عليه .

عرفني الزملاءُ في المدرسة أكثر وأكثر وصار بيننا عيش وملح على رأي المصريّين وذابت الكثير من الحواجز اللغوية والنفسية والاجتماعية وأصبحنا وجهًا لعملة واحدة أو هكذا اعتقدت .

ذات صباح ، وصلت إلى المدرسة مبكرًا كعادتي قبل الجميع . . وقفت قريبًا من بوابة المدرسة أرقب القادمين ، فجأة ظهر محمد متولي محمد الأستاذ المصريّ قادمًا تتقدمه خفة دمه وضحكة عالية تنتشر في كلّ ممرات المدرسة ، حين اقترب منّي أكثر وأكثر لمحت في عينيه الناطقتين اعترافًا يصعب علي التكهن به . أطلق في وجهي مجموعة من النكات ووقف بجانبي وأنا في حالة انبهار فكلّ يوم نكات جديدة لا أعرف إذا كان هو من يخترعها أم أنّه يحفظها!!

فجأة التفت إلي وخرجت من بين شفتيه كلمات مرتعشة بحياء مراهقة يدور في خلدها أسئلة مريبة تخشى أن تبوح بها لكنّها أثقلتها فقرّرت البوح . قال :

– دا انْتو ناسْ كُوَيِّسينْ أَوِي . كُنْتِ واخِدْ عَنُّكُم فِكْرَة غَلَط .

قلت وقد احمرّ وجهي رغمًا عني :

– وما الفكرة الخطأ التي كنت تحملها (عنا)؟

قال بارتباك واضح وقد بدا أنّه ندم على اعتراف خرج من فمه كطلقة طائشة :

– أذكر أنّه عندما بدأت البعثة المصريّة بالاستعداد للسفر . . قامت وزارة التربية بعمل محاضرات توعويّة للمعلّمين الجدد المبتعثين إلى ليبيا .!!

قلت توعويّة!! طيب كويس!!

سكت ولم يكمل . . انتظرت قليلاً أن يكمل جملته ، لكن دون

فائدة . . أتخيّل نفسي أسحب الكلام من فمه سحبًا . . لقد خاف المسكين إن هو أكمل أن تنقطع العلاقة فيما بيننا وبخاصّة بعدما أحبني وارتاح لمصاحبتي!! لكنّني شجعته على الكلام وقلت له :

- اتْكلَّمْ يا راجِلْ ولا يْهِمَّكْ . . إِحْنا صْحاب!!

أكمل . . . . .

- في هذه المحاضرات التوعويّة ركزوا وأعادوا وكرّروا تحذيرنا من الاختلاط بالفلسطينيّ!!

أُسند ظهري إلى الجدار . . أنظر في عينيه مباشرة . . يحضنني شاعرًا بالخجل . . بمشاعره تقول شيئًا وما سمعه يقول شيئًا آخر . . لقد تاه بين الحقيقة التي يشعر والوهم الذي صاغه طاغية!!

قلت له وأنا ألملم ذاتي المبعثرة وكلماته (أيّاً ما قيل لك فأنت في النهاية من سيقرّر صحة ما سمعت ، لا تعتمد على ما رأيته فقط وما شعرت به ، ابحث عن صحة ما قيل) .

أضرب كفًا بكف وأتمتم :

- الفلسطينيّ أصبح كالجرثومة يخاف الجميع الاقتراب منه!!

في هذه اللحظة أكتشف كم أنا وحيد ومنبوذ . قد لا تكون العبارة هي التي قصمت ظهري . . لكنّ لكلّ كلمة ظلاً . . توقظ النيران التي كنت أحاول إطفاءها مذ دخلت ليبيا!!

أعتقد أن بعض الكلمات ظالمة ومجرمة . . تقتل . . تشوه . .!! لكني في لحظة ما تساءلت إن كان علي أن أشكره على جملته التي أوضحت شيئًا مبهمًا علي إيضاحه؟ أم أعتب عليه وأغضب منه لأنّه لم يكلف نفسه عناء البحث عن الحقيقة ولأنه ما كاد ينهي اعترافه المرعب حتّى كان المدرسون القادمون تباعًا إلى المدرسة قد تحلّقوا حولنا

وسمعوا تلك العبارة التي فتحت شهيّتهم لأسئلة مماثلة فوجدوها فرصة مناسبة لفتح ملفّات قديمة لأسئلة مرعبة أيضًا كان الحبّ والودّ والحياء يمنع من طرحها . . أما وقد فُتح عشّ الدبابير . . فلتتساقط الأسئلة كيفما يحلو للسائلين!!

تساقطت علي الأسئلة وتقاذفتني ككرة تتقاذفها الأقدام .

الهلالي أبو النّور صمت قليلاً قبل أن يقذف بسؤاله :

- لماذا أنت هنا؟

- لماذا لا تذهب وتحارب وتستردّ أرضك؟

لا أعرف كيف أصدّ الرّكلات المتعاقبة . . ركلة من هنا وأخرى من هناك أجيبه بصمت :

- أنا هنا لأنّي مُبْعد . . يحرم علي دخول وطني ودول الجوار تحمي حدود إسرائيل وتمنع أيّ محاولة للتسلل!!

عاشور المرابط يسأل :

- مادام عِنْدْكُم مِيْكْلَه وِشْرَابْ شِنُو جاي إِدِّيرْ إِهِنْي؟[1]

العجيلي الغول يسأل وحبّات العرق تتقاطر من جبينه :

- لماذا بعتم بلادكم؟

- هل هو مجرّد سؤال؟

- هل يستعيضون بالسؤال عن المقاومة؟

- هل تعطيهم هذه الأسئلة نوعًا من الشعور براحة الضمير؟

- هل يستبدلون الرفض بالصّمت؟

يولد مع رائحة السؤال ألف سؤال مُوارب . حبال من القهر تلفّ

---

(١) إذا عندكم طعام وشراب لماذا تأتي إلى ليبيا .

عنقي . فزع الكفّ الوحيدة والعيون الزائغة خوفًا وقهرًا وهي تبحث عن يد تنتشلها في الرمق الأخير .

هذا شعوري الذي استطعت القبض عليه الآن . بعض الأسئلة تبعثرني . . تشرّدني من جديد وبعض الأسئلة توقظني وبعضها يدفنني والآخر له طعم السكين .

لكنّني فكّرت في السكين!! إمّا أن تساعدنا وإمّا أن تجعلنا ننزف وذلك حسب المكان الذي نمسكها منه . . من النصل أو من المِقبض!!

جمعت شظايا نفسي المتناثرة في عمق دهشتي . . رفعت رأسي المرهق بملايين الأفكار وأمسكت السكين من المقبض!!! . هكذا يجب أن أفعل ومع ذلك كانت دمائي تسيل إلى الدّاخل لا يشاهدها أحد غيري!!

أصبح صدري ثقيلاً ، وأنفاسي أجرّها جرًا ، أُتمتم بكلمات مرتعشة . . يحاولون أن يرفعوا الغطاء عنها ليفهموها . لكنهم عجزوا .

أيها السّائل الذي يسري دمك في عروقي . . هل تدري بأنّ روحي قد بلغت التراقي بعدما تسلحتَ بأسئلة تشبه الصخر في جثوها على صدري؟ هل تعلم ما معنى أن تطرح علي أسئلة كهذه؟ إنك الآن تزحف فوق جثتي وترقُب دفني . . أنا الآن لستُ حاقدًا عليك ولا غاضباً منك ولكنّ جرحي أكبر من أن يحتمل مزيدًا من التّوغل والدّمع المملح!! القتلة . . السفلة أفهم دافعهم . . وأحتمل جلد سياطهم لكنْ يصعب علي أن أحتمل هذا منك .

– كم تبدو هذه الأسئلة هشّة ومفرطة في الاستكانة والضعف؟ إنّها باعتقادي أسئلة تمثل فضيحة لصاحبها . . فضيحة لكنّها على أيّة حال ليست أكبر من فضيحة الصّمت والخوف!!

- لماذا أعتبر هذه الأسئلة فضيحة؟

لأننا ببساطة نردّد العبارة ذاتها التي روّج لها الصهاينة يومًا ما وهي أنّ الفلسطينيّين باعوا أرضهم واليهود اشتروها بالحلال من حُرّ أموالهم!!

أبتلع أسئلتهم وأجيب بكلمات حبلى بالغيظ والاختناق والكلّ ينتظر ماذا سأرد :

- حصل اليهود على الأراضي الفلسطينيّة بطرق عدة . فقد أصدر السلطان عبد الحميد تعليمات صارمة تمنع هجرة اليهود والاستيطان اليهوديّ لكنّ سيطرة حزب الاتّحاد والتّرقّي وتوغّل الماسونيّة داخل الجهاز الإداريّ هو الذي سهّل استملاك اليهود للأراضي الفلسطينيّة . خاصّة عندما عجز بعض الفلاّحين الفلسطينيّين عن دفع الضرائب المترتّبة عليهم فاستغلّ الماسونيّون الأمر وعرضوا الأراضي عن طريق المزاد العلني فاشتراها اليهود!!

أما الطّريق الثّاني الذي حصل اليهود فيه على الأراضي الفلسطينيّة هو الملاّك الإقطاعيون اللبنانيّون والسوريون الذين يقيمون في خارج فلسطين ومُنعوا رسميًا من الدخول إلى هذه المنطقة مثل آل سرسق وتيان وتويني ومدور .

يشهق عاشور المرابط ويلوذ الآخرون بصمتهم ، يحاولون أن يدفنوا انفعالاتهم في أرضيّة الغرفة . هناك يتأملون أنفسهم أكثر وأكثر ويبدؤون بالتعرّف على ملامحهم المختلطة!!

أُكمل فيما الميزان الأعوج بدأ ينعدل في عيون أحبتي .

أقول :

- اضطرّت الدّولة العثمانية لبيع أراضٍ أميرية لتوفير بعض

الأموال لخزينتها فقامت بشرائها عائلات لبنانيّة غنية . وعندما جاء الاحتلال البريطانيّ منع هذه العائلات من استغلال هذه الأراضي بحجة أنّهم أجانب ، ونحن نعرف أن فلسطين وسوريا ولبنان والأردن كانت بلادًا واحدة . بعد ذلك تمّ فصل فلسطين عن سوريا ولبنان وفق تقسيمات سايكس بيكو .

عندما مُنع اللبنانيّون من استغلال أراضيهم باعوها لليهود الذين دفعوا فيها أسعارًا خيالية بنوا بثمنها العمارات الشاهقة في بيروت وسوريا .

فقد قامت العائلات اللبنانيّة ببيوع كثيرة لليهود في أثناء الاحتلال البريطانيّ مثل (آل سلاّم ، آل قباني ، والصبّاغ وتويني والقوتلي وشمعة) هذه العائلات باعت آلاف الأراضي في مرج ابن عامر ووادي الحوارث وحول بحيرة الحُوْلة شمال فلسطين ، وتسببوا بتشريد الآلاف من الأسر الفلسطينيّة!!

أبتسم فيما ألمح خيال سؤال يتدافع على الشفاه . السؤال هو .

– هل الفلسطينيّون بريئون من هذه التهمة؟

– الفلسطينيّون لم يكونوا يعلمون بنوايا اليهود وتعاملوا معهم بطيب النّية على أساس أنّهم أقلية . . لكن بالتأكيد حدثت حالات بيع قليلة بسبب ضعف البعض وفقره!! . . لكن عندما بدأت الأمور تتضح وأصدر المجلس الإسلاميّ الأعلى بقيادة الشيخ عبد القادر الحسيني فتوى بتحريم بيع شبر أرض من أراضي فلسطين ، بل واعتبرت الفتوى أنّ البائع والسّمسار والوسيط كلّهم خارجون عن الدين ، مارقون ولا يُصلّى عليهم ولا يُدفنون في مقابر المسلمين!! بدأ النّاس حينها يعون ما يحدث ويتيقظون!!

يبتسم رفاقي وتشرق عيونهم ببراءة الفلسطينيّ، يشبك رمضان الرتيمي ساعديه ويضمّهما على صدره بارتياح بينما أتابع:

طبعًا كان هناك العديد من الذين يسيل لعابهم لرؤية المال، حيث إن اليهود كانوا يدفعون في قطعة الأرض الصغيرة عشرة أضعاف المبلغ الذي يدفعه الفلسطينيّون.. هذا عدا عن حالة الرّفاهية ومتع العيش التي يحصل عليها البائع. لكنّ أصحاب الضمائر الحية كانوا متيقظين تمامًا ويقومون بتخريب أيّ عمليّة بيع بمساعدة مؤسّسات وطنيّة أسهمت في وقف بيع الآلاف من الأراضي، فقد اشترى المجلس الأعلى الإسلاميّ قرى بأكملها مثل شفا عمرو وزيتا والأرض المشاع في الطيّبة وعتّيل والطّيرة وأُوقف البيع في ستين قرية من قرى يافا وكان هناك مؤسّسات وطنيّة كانت توقف بيع الأراضي مثل (صندوق الأمة)!! وقاموا بإنقاذ أراضي البطّيحة التي تقع شمال شرق فلسطين!!

لكن نَفَس اليهود طويل، فعندما أدركوا صعوبة إغراء الفلاّح الفلسطينيّ ببيع أرضه اخترعوا حيلة أخرى!!

فقد أذاقوا السّماسرة بطرف الملعقة عسل المال والمنصب والمتع الحديثة الدخيلة على المجتمع الفلسطينيّ، فاشترى هؤلاء السّماسرة الأرض من الضّعفاء والمساكين الفلاّحين بما أنّهم فلسطينيّون مثلهم وسجّلوها بأسمائهم حسب الأصول ثمّ بعد ذلك وضعوها في حوزة المؤسّسات الصّهيونيّة!!

طبعًا سمعت الكثير من القصص التي تحدّثت عن إنقاذ الأراضي بعد بيعها لليهود من المهاجرين الذين جاءوا إلى بلدنا في الـ٤٨ حيث كانوا يشيرون إلى رجل اسمه (أبو سليمان) بكثير من الاحترام لدوره في إنقاذ بيع أرض. والقصة تتلخص كما سمعتُها من رفاقي

المهاجرين أن هناك رجلاً باع أرضه لسمسار فلسطينيّ ، واكتشف بعد ذلك أن هذه الأرض بيعت لليهود فذهب فورًا إلى (أبو سليمان) الذي كان معروفًا بقدرته على حلّ مثل هذه القضايا بالحيلة أيضًا!!

بعد استشارة المحامين الذين كانت تجنّدهم القيادة الوطنيّة لمساعدة الفلاّحين الذين يتورطون في البيع ، وضعوا خطّة لاسترجاع الأرض تتمثل في تغيير سجلات (الطابو) التي تُظهر بأنّ هذه الأرض ليست ملكًا لهذا الفلاّح ولا يحقّ له بيعها واستطاع إقناع موظّفي (الطابو) بعمل تلك الحيلة عن طريق تجميع مئات الليرات الذهبيّة من أهل القرية ووجهائها لإبطال عمليّة البيع ، واستطاع الموظّفون في يوم واحد تغيير كافة الوثائق ، وتوجّه المحامي إلى المحكمة وقدم الفلسطينيّون أدلتهم واليهود كذلك ، بعدها خاف الشاري اليهوديّ إلاّ ينال شيئًا فتنازل عن الأرض مقابل أن يرجع المال وهكذا صار!!

أرض فلسطين لم يسلمها أبناؤها لليهود . . أرض فلسطين ضاعت بعد هزيمة الجيوش العربيّة في حرب ١٩٤٨ وإنشاء الكيان الغاصب على ٧٧٪ من أراضي فلسطين ، وقيامه مباشرة وبقوة السّلاح بطرد أبناء فلسطين والاستيلاء على أرضهم ، ثمّ بعد ذلك احتلال باقي أراضي فلسطين إثر حرب ١٩٦٧!!

طبعاً هذا عدا عن عطايا المندوب السامي البريطانيّ وهباته لليهود ؛ فقد أعطى المندوب السامي البريطانيّ منحة للوكالة اليهوديّة ٣٠٠ ألف دونم (ماهيْ أرض أبوه)!! وهناك أراض باعها المندوب السامي للوكالة بأسعار رمزيّة - تقريبًا ٢٠٠ ألف دونم - وبعض الأراضي بيعت نتيجة نزع البريطانيّين ملكية بعض الأراضي لصالح اليهود وفق مواد صكّ الانتداب البريطانيّ التي تعطي المندوب السامي هذا الحق!! ليس

هذا فحسب بل منح هربرت صموئيل أوّل مندوب سامي بريطانيّ على فلسطين ١٧٥ ألف دونم من أخصب أراضي الساحل بين حيفا وقيسارية لليهود ، وتكرّرت الهبات الضخمة ، فأعطاهم جزءاً كبيرًا من الأراضي الساحلية في النقب وساحل البحر الميت!!

لم أنتظر أن أسمع جوابًا على ما قلت فقد كانت عيونهم تمتلئ بما أريد أن أسمعه!!

الإضراب
هو ٢

يا وجه الفجر المعطر بالصبر .. الموشّى بالحنّاء، يا ندى الصبح يحفر بقطراته ظلالاً ناعمة في أرواحنا ويبقى كالوشم جريئًا، متشبّثا .. بمذاق عزّ!!

القيد يحُزّ معصمه ومعصمنا، البرد يلتهم عمره وعمرنا . هو طبيبنا في غياب الدواء، هو رماد السجائر لتضميد الحروق وتبريد حرقة المعدة، هو تحميلة الصابون التي كنّا ننتظرها لتخفيف الحرارة والألم والإمساك يلوب أمعاءنا، هو لصقات الجرائد المخرمة والمشبعة بالزّيت لامتصاص الرطوبة ولفحات الهواء ووجع الظَّهر، هو الحزام الذي يدفئ معدتنا .. هو كاسات الهواء .. هو من يمسح بيد مطمئنة وبلسان يلهج بالقرآن فتعود لنا عافيتنا .

كم يدهشني الشيخ علي .. يدهشني بقدرته على الاتزان رغم عصف الريح!! يدهشني بروحه القويّة الصامدة رغم هشاشة جسده وشحوب وجهه .. يدهشني بقلبه الصلب .. بنظرته التي تظنها جامدة فإذا بها كقطرة المطر ناعمة وحانية .. بحزنه وألمه الذي يمر كسحابة تسقط حبّات مطره القابضة على الجمال والخيال!!

ويبهرني هذا الشيخ بصوته الذي يمتص قسوة السّجن بسخرية؛ مقولته الشهيرة : إن السّجن الحقيقي هو الخوف .

ويزعجني ما يزعجه من الصّمت الرابض خلف القضبان . . تعذبه تلك الشّظايا والطّلقات الباقية في أجساد الأسرى المصابين وتعذبه تلك النظرات الضّائعة من الأسرى الذين أصيبوا بأمراض نفسية نتيجة التّعذيب ، ويكسره منظره ومنظر رفاقه البهلواني المضحك وهم يلبسون رغمًا عنهم ملابس لا تليق بهم ، ولا بعذاباتهم وقاماتهم (ضيقة جدًا ، واسعة جدًا ، قصيرة الأكمام والأرجل) .

يحدق مليّاً في تلك الأجساد المبللة بالمطر وهي تنبطح أرضًا وأيديها فوق رؤوسها ، ومئات السّجّانين والجنود فوق رؤوسهم مسلحين بالهراوات والتروس والقنابل ومدافع الغاز وبنادق الرش والأسلحة النارية في عمليّة الاقتحام التي يمارسها الاحتلال متى شاء . . في هذا اليوم استشهد الأسير محمد الأعرج برصاصة استقرت في رأسه أطلقها عليه أفراد الوحدة الخاصة (متسادا) وتم سحبه كما تُسحب الذبيحة ونحن ننظر إليه بلا حول لنا ولا قوة . . والقهر يرتعش في القلب .

لكن هذا الشيخ صاحب النظرات الحادّة . . أخذ القيد يشتعل في جسده أكثر وأكثر . . بدأت شعلته تزداد بريقًا وهو يطيل النظر إلينا وإلى نفسه التي تقضي عمرها في متر مربع واحد للأكل والشرب والنوم والطهارة والحركة والصلاة!!

كنت أفكّر دومًا في مقولة المهاتما غاندي وأنا أنظر في عيني الشيخ علي وفي وجوه إخوتي السجناء :

«عندما يتملكني اليأس أتذكّر كيف انتصرت الحقيقة والحب طوال التاريخ دومًا ، لقد كان هناك طغاة وقتلة ، وفي بعض الأحيان بدا وكأنهم لا يُقهرون ، لكنهم في النهاية ينهارون!!»

طُردنا من بلادنا ، وتكالب علينا الطغاة والقتلة وأولاد الخنازير والقردة . راهنوا أنّهم سيمحوننا من الذّاكرة ومن الخارطة ، وأنا في أشدّ حالاتي حزنًا أُراهن على فلسطينيّتي وأني باق!! باق بإخوتي المنفيين وبإخواني الجدد وبأطفالي القادمين وبرجالنا وراء القضبان . سننتصر في اللحظة التي نظن فيها أنّه لا فائدة!!

الدّمع يهتز مكابرًا . . على شفتين تلتمعان بذكر الله . . عندما بكى الرّجل عرفتُ حينها أنّه لا وقت لفرك العيون من بقايا النعاس ، لا وقت للكلمات ولا للتأوهات . . عندما بكى الشيخ بكت لدمعته كلّ الزنازين وامتدت لكلّ المعتقلات . . لكن يا تُرى . . كم نحتاج من وخز الذل والمهانة حتّى نصحو . . حتّى نصبح مساوين للبشر .

الشيخ علي بلحيته البيضاء الخفيفة التي تزيده جمالاً ووضاءة . . فمه الرطب بمذاق التكبير والتهليل يعرّي الخوف . . يجعله تافهًا كرغوة فاسدة . يهزنا الشيخ علي بقوّة ليوقظ فينا مرارة غاصت أو تاهت أو تبلدت .

غدًا نبدأ الإضراب!! هل أنتم مستعدون؟ إن كنتم متردّدين ولو ١٪ لن نتقدم فهذا طريق عار ومكشوف ليس هناك ما يغطينا!!

وفعلاً أعلنا الإضراب في ١١-١٢-١٩٧٧ واستمرّ ٤٥ يومًا .

إضرابنا لم يكن في سبيل الحرية . . فتلك الأنثى كم ألقت بجسدها قربنا تنتظر وصلنا لكنّنا لم نجرؤ على الاقتراب منها أو لمسها فيدُ السجّان كانت لنا بالمرصاد معفّرة بدمنا .

إضرابنا كان لتحسين شروط حياة القبور الاعتقالية ، إضرابنا كان بلون العتمة ، وبرائحة الرطوبة والغاز الذي يُرش في غرفنا ، وبطعم الجوع وصوت اصطكاك الأسنان بردًا . . قبل الإضراب كنّا نموت في

اليوم مئة مرّة بجرعات بطيئة ، كنّا نموت عندما نُغمَس في بئر الانكسار والذل والمهانة ، عيوننا ضاقت وضاقت حتّى غدت مملّحة ، فالجدران والشبك والقضبان والصاج والستائر وعصبات العيون كلها زُرعت لتقتل فينا الرؤية .

أفواهنا معبّدة بطعام مُلىء بالحشرات والأتربة . طعام بلون واحد (ربع بيضة ، بطاطا ، فاصوليا ، زربيحة ، والزربيحة هي ماء ساخن وزيت) طعام بلا منكهات لا ملح ولا ليمون ولا بهارات ولا ثوم . . نحن ميتون ميتون فلنمت بجرعة واحدة . . نحن اخترنا هذا الطّريق ونحن نعرف أنّه طريق النصر والشّهادة فلننهِ هذا الارتعاش المعلق على حبل الحياة وكفى!!

ما إن تمّ إعلان الإضراب حتّى جنّ جنون السجّان وبدأت سْكِتْشات جنونه بتمثيلية التخويف والترهيب حينًا والترغيب حينًا آخر .

جاء الضابط كاظم وهو يهوديّ عراقي أقل عنفًا من بقية اليهود الذين ينتمون لبلدان أخرى :

– لماذا هذا الإضراب يا شيخ علي؟ ماذا ستحققون؟ أنتم أقزام وليس باستطاعتكم أن تقفوا في وجه العماليق!! أتعتقدون أنكم بهذا العمل ستنتصرون علينا أو تحققون ما تريدون؟ ألا تعلمون بأنّ النصر والتاريخ يكتبه من يقف خارج القضبان؟

نظر الشيخ علي إلى الضابط نظرة تجرده من كلّ أسلحته دفعة واحدة وقال :

– ألا تعرف بأنّ الذي يكون خلف القضبان هو مارد حقيقي وعظيم يدفع أمامه كلّ شيء ، المسألة . . . مسألة وقت .

ثم اعتدل الشيخ علي في جِلسته وأكمل بهدوء فيما السجّان يتابعه بدهشة:

يُحكى أن سلحفاة تجرأت على أرنب وعرضت عليه عرضًا غريبًا. قالت له:

- ما رأيك أن نجري معًا في سباق؟

- قال الأرنب موافق.. فأنا سأكون الفائز. لكنّ السلحفاة قالت بتحدٍّ واضح لو دخلت معي في السباق فسأفوز وسأحصل على المركز الأول!!

بعد مرور عدّة أيّام عقدا اجتماعًا للترتيب لهذا السباق واختارا الأسد ليكون حَكمًا لهذه المسابقة ولم يعلم الأرنب أن السلحفاة الماكرة قد رتبت أمرًا لتفوز!!

لقد اتفقت السلحفاة مع أصدقائها السّلاحف أن تقف كلّ سلحفاة في طريق السباق على بعد خطوات من الأخرى من بداية السباق إلى نهايته. وأخيرًا بدأت المسابقة وبالطبع كان الأرنب هو الذي يتقدم السباق وبعد عدّة خطوات بدأت السلحفاة الأولى المختفية تتحرك أمام الأرنب لتسبقه وكلما تقدم الأرنب عدّة خطوات وجد السلحفاة أمامه ولم يدرك أنّها سلحفاة غير الأولى وكان يزيد من سرعته ويجري بقوّة ليسبق السلحفاة وبعد أن سبقها بعدة خطوات رأى سلحفاة أخرى أمامه فأخذ يجري بسرعة ليسبقها ويقول في نفسه:

- كيف تسبقني هذه السلحفاة؟!

وعندما اقترب من خطّ النهاية سمع تصفيقًا من الجمهور فظن أنّ الجمهور يهتف له لأنّه الفائز، لكنّ السلحفاة الأخيرة التي كانت تختفي بالقرب من خطّ النهاية أنهت السباق لصالح السلحفاة الأولى

وصفقت الحيوانات للسلحفاة الفائزة وسط ذهول الأرنب!!

سأل الضابط كاظم : ولماذا تسرد علي هذه القصة؟

- أتقصد أن اليهوديّ هو السلحفاة!! لكنّه سلحفاة ذكية على أيّة حال وتستطيع الوصول إلى هدفها .

ضحك الشيخ علي وسط ذهول السّجناء وقال :

- عليك أن تعرف يا سلحفاة أنكم وصلتم إلى ما وصلتم إليه بالمكر والخيانة والخديعة التي عُرفتم بها على مرّ التاريخ . إخفاء الحقيقة لا يُلغيها . وفوز السلحفاة لا يعني أنّها الأسرع!! لقد لعبتم بالتاريخ . . زورتم . . كذبتم . . طمستم . . وإذا كانت أمريكا وأوروبا تكفر عن خطيئة المحرقة بدعمكم فلا بدّ أن تعرف يومًا أنكم لصوص ومجرمون وفاسدون ومرتزقة .

نظر الضابط إلى الشيخ علي ونحن نتحلّق حوله كسياج ، وقال كمن يريد أن يقدر قدرة الكلام على التحوّل إلى أفعال ، ثمّ قال بهدوء مصطنع :

- أنت بارع بالكلام يا شيخ علي . . يبدو أنك لم تسمع مقولة راسيلاس (هؤلاء أقوالهم أقوال ملائكة وأفعالهم أفعال بشر) أنتم في النهاية بشر ولن تصمدوا ، أقوالكم شيء وأفعالكم شيء آخر!!

هذا الإضراب يا شيخ علي يؤثر على صحتكم . . يعرضكم للموت ولضعف النّظر ولسقوط الشعر وللعقم والضعف الجنسي!!

- إننا هنا نموت ببطء ونعيش على حافة الحياة وأعتقد أن إضرابنا مضحك لأنّه ليس لأجل الحرية بل لتحسين حياة القبور الافتراضية .

- أنتم من حفرتم هذه القبور!! أنتم من اختارها بغبائكم وعنادكم!!

- بل أنتم من حفرتموها لنا . . لأوّل مرّة في تاريخ المعمورة

يُستأصل شعب ليقوم مقامه وعلى أنقاضه شعب آخر ، ما حصل هنا لا يشبه ما حصل في الجزائر ولا في جنوب إفريقيا ولا في فيتنام ولا في أمريكا . لقد شُرِّدنا في المنافي . . لم يبق أحد من عائلتي إلاّ وشُرِّد ، لقد أصبح ثلثا الشّعب الفلسطينيّ خارج أرضه قسرًا ، وقُتل الكثيرون وصودرت ملكياتهم ، في كلّ عام من ذكرى حرب ٤٨ تحتفلون باستقلال إسرائيل . . تُقيمون احتفالاتكم على صوت خرير دمائنا . . لقد أصبحنا شعبًا بلا أرض . . لقد أصبحت كلمة فلسطينيّ نذير شؤم لا يجرؤ أحد أن يتلفظ بها!!

– لكم الوطن العربيّ بطوله وعرضه . . لماذا تصرون أن تبقوا هنا ، اتركوا لنا هذه الأرض الصغيرة!!

– مشكلتنا ليست في الجغرافيا . . القضيّة ليست قضية تراب نحبه أو عِرق زيتون نعشقه يكبر بلمسات أيدينا إنّها قضية وجود وعقيدة ومقدسات!!

– أنتم تعملون على محونا . . ومحو أيّ آثار لأقدامنا . . أقدام اليهود الجدد قدمت لتمحو آثار أقدامنا ، لكنكم نسيتم أننا هنا منذ ملايين السنين!! نسيتم أنكم لا تستطيعون محو آثار عظام أجدادنا ، لقد بنيتم دولتكم على أنقاض شعب آواكم وعاملكم أفضل معاملة ، أوروبا طردتكم وأحرقتكم ، وكفَّرت عن هذا بمنحكم وطنًا لا حق لكم ولها فيه ، وهذا ردكم الذي يحمل رائحة خيانتكم المعروفة منذ فجر التاريخ!!

– هذا الإضراب لن يتوقف . . يا خنزير قل هذا لقادتك .

انهار الضابط اليهوديّ العراقي فجأة وقال :

– أنا أسير مثلكم ، أعيش معكم أكثر مما أعيش مع أسرتي!! أشتاق لبلدي العراق . . أحِنُّ إليه . لقد خدعتنا الصّهيونيّة لكنّنا أدركنا

ذلك بعد فوات الأوان . العنصرية واضحة في تعاملهم معنا نحن اليهود الشرقيين ، فلا امتيازات ولا مناصب كلّ ذلك يُمنح لليهود الأشكناز على حسابنا نحن اليهود الشرقيين!! صدِّقني أنا أفكّر بالعودة من حيث أتيت لولا القيود المالية والقانونية التي كبلتنا بها الصّهيونيّة!!

حزِنّا عليه وعلى حاله ، لكنّ حالنا كان أصعب بكثير . . عندها جمعنا البطانيات وأضرمنا فيها النيران على مسمع ومرأى من الضبّاط الذين فروا مذعورين!!

من جوف الشيخ علي المشتعل بالجوع والقهر اشتعلت الهُتافات الوطنيّة وأخذنا نردّد وراءه ، طبلنا على الأبواب بيد واحدة ملأت صوت الزّنزانة بصوت مرعب ، وما هي إلاّ نصف ساعة حتّى جاءت قوّات كبيرة جداً من جيش الاحتلال والشرطة الخاصة وألوف السّجّانين والسّجناء اليهود ، ليس هذا فحسب ، بل تجمهر آلاف المستوطنين في محيط السّجن محاولين اقتحامه ، كلّ هذه القوّة غير المسبوقة كانت متزامنة مع كميات غير اعتيادية من الغاز والقنابل الصوتية وطلقات الرش!!

تحسّسنا أجسادنا العارية تمامًا . . إنّها هي مع كثير من الدماء والكسور والأصابع التي تشد على بعضها البعض . . لقد انهالت الألوف المؤلفة من السّجّانين والشرطة علينا بالضرب الوحشي الذي يتركز على الرأس والوجه والسّباب بأقذع الألفاظ . . أبقونا مشبوحين عراة تمامًا طوال الليل دون طعام أو ماء!

وحتّى يُضعفوا حِدّة الإضراب تمّ نقل عدد كبير من المضربين إلى معتقلات أخرى وقسم كبير تمّ نقلهم إلى أقسام العزل . . منهم صديقي صبحي وأبو السُكّر .

واستمرّ الإضراب واشتعلت باقي المعتقلات تضامنًا معنا ، وبدأت الدائرة تتسع وتتسع بازدياد حملات التضامن معنا سواء الرأي العامّ العربيّ أو الدولي أو مؤسّسات حقوق الإنسان والصليب الأحمر عدا عن أهالينا .

لكن الأمور بدأت تنحو منحىً خطيرًا عندما جُنّ الاحتلال واستشرس ولم تبق أمامه أيّ وسيلة لحل الإضراب سوى إجبارنا على الطّعام!!!

نعم هذا ما حدث!!

حيث قاموا بربط عدد كبير من الأسرى منهم الشيخ علي . . الذي ربطوه بكرسيّ وأمسك به خمسة سجانين غلاظ شداد . . أمسك الممرضون بَرْبَيْشَ «الزوندا» دفعوا البَرْبيش بقوّة عبر الفم الجاف . . وبين أنفاس الشيخ علي الضعيفة وبين البربيش الذي يلج الوهن . . تمرّد يعصف بجسده كله . . .صبوا كأسًا من الحليب عن طريق محقن عُلق في طرف البربيش الخارجي فيما جسد الشيخ علي يتلاطم كموج غاضب . . ينساب الحليب عبر المحقن ليصل إلى المعدة الجافّة المختنقة قسرًا . . سحبوا البربيش بحركة سريعة وفُجائية وإرادة الصّبر تتأرجح بين مدّ وجزر!! عندما خرج البربيش خرجت نتف من روحه الصابرة وتسرّب المزيج السّائل والمواد اللزجة والدماء وعُصارات المعدة إلى الخارج وجزء منها تسرّب إلى القصبات الهوائية فيما أخذ الشيخ علي يسعل وكأنه يقلع غرسًا تمادى في التوغل . . يسعل ويختنق . . لقد أُصيب بنزيف داخلي . . مزّق رئتيه حد التلاشي . .

لم تمض إلاّ ساعات قليلة حتّى أوشك الوهج أن ينطفئ . . تذكّرت قول الضابط اليهوديّ «تقولون أقوال ملائكة وتفعلون أفعال

البشر» انتبهت من غفلتي . . تعال أيّها الضابط لترى أفعال الملائكة . . تعال أيّها السجّان لترى القناديل وهي تشتدّ اشتعالاً مع عصف الريح . . تعال لترى قدح البرق وهو يُشعل السماء . . لقد حنّكنا آباؤنا بالعنفوان والأقحوان وغار الصّبر وأذّنوا في آذاننا صلوات الأقصى وكحلوا أعيننا برمل الوطن الجريح!!

في ساعاته الأخيرة كان يزرع نفوسنا بجرأة الاحتراق . . يروي ظمأنا برائحة محملة على ظهر التحدّي . . يصرخ بصوت يمتزج بالدم الخارج شلالاً من المعدة :

إنهم يُنكرون علينا حبًا بحجم الكون . . يُنكرون علينا رفض القيظ ورفع الصوت!! يستكثرون علينا أن نُشرع النبض . . هؤلاء اللصوص لا يعرفون معنى الوطن . . لأنهم لَم . . نتحلّق حوله . . ظلال الموت تختلط بالحياة ومازال كالملائكة يرفض أن يفك الإضراب . . تتمزق الكلمات على شفاهنا وتستحي الملائكة وهي تزفه شهيدًا!!!

ولادة
هو ٢

أشعر بالاختناق . . هذه الأسوار العالية المسيَّجة بأبراج المراقبة والحراسة والكلاب البوليسية وأنظمة الإنذار تشيع في الأجواء رائحة احتراق شواء الأجساد!! فيما العيون ما زالت معلقة على الأبواب ترنو لميلاد جديد ترفرف من عل!!

بالقضبان يظنّ اليهود أنّهم يُغطُّونَ الحكاية كاملة!! لكنّني هنا ومن خلف القضبان أرقب الحياة . . صوت أمّي يحدّثني بكثير من الصلابة عن نشوتها وفخرها بهذه القضبان . . بصوتها الصلب يشتدّ إحساسي بوطني!!

أدخل الزّنزانة . . الشّمس والقمر والهواء والأشجار والسهول والجبال والوديان كلها كانت تمشي خطوة خطوة . . كلها كانت آتية معي . . وافقت أن ترافقني إلى داخل الزّنزانة . . لم تخف من الجنون ولا من الهلوسة ولا من العزل الانفراديّ ولا من القيود التي تحز الجسد فتجعله مُدمى ، لكنّها فجأة وعلى بُعد خطوات من بوابة السّجن الرئيسة . . تتيبَّس ألسنتها ، وتتعثر أقدامها ، وتمتزج نبضات القلوب بسياط الجلاد وقسوته فتتراجع إلى الوراء وتتركني أدخل وحدي إلى الزّنزانة المكتظّة المختنقة دون شمس ولا هواء . . دون التماع النجوم وحفيف الشّجر وهمس النجوم!!

أدخل الزّنزانة لأصبح مجرّد رقم . . لا يحمل من صفات البشر شيئًا!! الزّنزانة تصبح قبري المتحرك ، الشّبابيك والممرات والفتحات والقضبان والشبك والصاج كلها مغطاة بستائر التعمية لحجب الرؤية والضّوء والهواء ، ووسط هذه الأجواء أشعر بثعبان كريه يلف أنفاسي . . يحشرها في زاوية ضيّقة فأنبطح أرضًا ألتصق بالبلاط لأستنشق الأوكسجين الذي عز وغلا!!

من تلك الزّنزانة يكبر الحلم بالتحرير والعودة . . الأيّام تمر بطيئة . . وأنا أعاني الغثيان والقرف والرائحة الكريهة المنبعثة من الأجساد الكثيرة المحشورة في الغرفة الواحدة . خلطة عجيبة للرائحة ممزوجة بسنوات الانتظار الطويلة ، خلطة بنكهة العَرق الشّديد وروائح الأقدام والأحذية مضافًا إليها نكهة السجائر!! كلها اجتمعت لتضيف رائحة منفّرة . . خانقة هذا عدا عن الغبار الخانق المنبعث من البطانيات!!

بقدر ما تزعجني هذه الزّنزانة . . بقدر ما تقربني من الحقيقة!! حقيقة ضعفهم . . وقوتنا!

ضيق هذه الزّنزانة هي اتساع أرواحنا واستشهادنا هو السبيل لتحرّرنا . . وألمنا هو السكين المغروزة في قمة رأس الاحتلال .

ها هي أصوات أقدام الجنود القادمة للعد الصّباحي تجرح آذاننا . .

يصرخ الضابط المناوب عبر السماعات المثبّتة في الغرف بالنفخ المتكرّر والصراخ المتتالي مصدرًا تعليماته للسجانين بالأقسام المختلفة لإيقاظ الأسرى . .

ألتفت إلى صديقي صبحي الوحوش أقول له بصوت هامس :

– كلّ صباح يسلمنا إلى صباح أسوأ!!

أرتدي ملابسي على عجل . . أطوي بطانيتي وفقًا للتعليمات ،

أُجلل البطانية ببشكير يتداخل بين طيات البطانية بشكل حلزوني وأضع فوقها أوعية الطّعام الشخصية (صحن ، زبدية ، كأس ، ملعقة) أصطفّ وزملائي في أنساق متتالية أفقيًا وعموديًا بانتظار وصول طاقم التعداد حيث يبدأ السجّان بدوره المهزلة!!

إشعال النور ، فتح الأقفال ، التطبيل على الأبواب بالمفاتيح والقبضات والصراخ لحث الأسرى على الإسراع في تطبيق التعليمات!! تستمر المهزلة ساعتين متتاليتين ونحن منتصبون إجباريًا في حالة استعداد تام دون أن يُسمح لنا بالارتخاء حتّى يمر طاقم العدد علينا . ليس هذا فحسب بل وحتّى انتهاء عمليّة أخذ العدد والتفقد في كافة أرجاء المعتقل والتأكّد من صحة العدد الإجمالي في كلّ غرفة وقسم وفقًا للأرقام الموجودة . عندها فقط يتم الإعلان عبر السماعات أن عدد الأسرى صحيح وإلا فالويل لنا ، لأنهم سيعيدون الكَرّة مرّة أخرى حتّى يحصل التطابق ، حينها يُسمح لنا بتناول وجبة الإفطار البائسة المكونة من (نصف بيضة رائحتها كريهة ، خمس حبّات زيتون ، ورغيف خبز يجب أن يكفي لعشرة أشخاص وفي بعض الأحيان نصف ملعقة مربى ومَرْجَرين) .

أرفع رأسي بصعوبة . . ثمّ أقول لصبحي :

نحن من قرّرنا خوض المعركة ونحن الذين سنشكل النصر بأيدينا هذه!!

يصرخ الجنديّ :

- عرب ، بدو ، متخلفون ، رجعيون!! يبدو أن طريقة ترتيب أبراشنا لا تعجبه وعلينا أن نرتب الأبراش بالطريقة التي يريدها!!

يتكرّر التعداد وبنفس المراسيم ظهرًا قبل الغداء وعصرًا بعد انتهاء

فترة العمل للعاملين في المرافق الخدمية والإنتاجية ومساء قبل إغلاق الغرف بالأقفال ، بعدها فقط يُسمح للأسرى بالتكويع ، بالتمطط ونزع الأحذية وفرد الأمتعة استعداداً للنوم مسايفة على الجانب نظرًا لضيق المكان . ننام على حصيرة القش لأنّه لا يوجد فرشات ولا مخدّات وكثيرًا ما كنت أستخدم حذائي وغياراتي كوسادة للنوم وغالبًا ما كنت أُحوّل بطانيتي إلى وسادة خاصّة في فصل الصيف تلك البطانية المهترئة ذات النوعية الرديئة التي عفا عليها الزّمن والتي تلتقط الغبار . . فما أن نقوم بفردها حتّى نستنشق الغبار الكثيف رغمًا عنا!! أما شتاءً فالوضع أسوأ بكثير حيث لا كنزات ولا جرابات ولا كفوف ولا قبعات ولا أيّة وسيلة تدفئة .

في هذه الزّنزانة يزهر الوطن في قلوبنا ليمنحنا رجولة مكابرة صامدة . هذه الزّنزانة ستمنحنا وطنًا كبيرًا يتسع لنا وللمنفيين والمطرودين والمهجّرين ، صدّقني يا صبحي لن تخذلنا آلامنا ولا تضحياتنا ، لن تخذلنا هذه الزّنزانة .

**

أحلم بأن ألفها بذراعي ، أمدّ يدي الحانية تحت بساطها لأتلقف حباتها . . الكلّ يرنو إليها . . عين الله تحرسك يا عروسة عمري ، كلّ السّجناء كانوا يتطلعون إليها . . إلاّ أنّني لم أكن أغار عليها من أحضانهم وقبلاتهم وهمساتهم لها . أصابع عُشاقها الكُثر يواصلون العشق هكذا على مرأى من الجميع من غير شعور بالذنب ولا خجل!! فكلنا يهب لها روحًا ولهى ترمح في امتشاقها البكر وتهب لنا الصخب والحب والأحلام وهديل الحمام وزقزقة العصافير .

لكنهم وكعادتهم عندما اكتشفوا علاقتنا الحميمة معها تلك

النخلة الوحيدة الموجودة في ساحة السّجن أعدموها بعد أن أعدموا رفيقاتها القريبات من المباني بذريعة الفرح المحرَّم علينا أو بذريعة الأمن الكاذب!!

يومها ظللتُ واقفًا . . صامتًا . . لم يستوعب قلبي الأبيض هذه البشاعة والسادية . . لم أتمالك نفسي ورُحت في نوبة بكاء هستيرية ، وطار الحمام قبل أن يهدل ، ولم يبق من مشهد أمام ناظري سوى الجدران العالية السوداء والجنود الذين يحملون الأسلحة ولغة مفرداتها العنصرية والفاشية والأسيجة الشائكة والبوابات والدربزينات الحديدية ، لقد صادروا واغتالوا كلّ مشهد موشح بالشّجر والمطر والشّمس والقمر فلا مكان في دفتر السّجن لأحرف الطبيعة وهمسها وفرحها ، في هذا القبر الافتراضي دخل كلّ القبح والقتامة والازرقاق والارتعاش والوجع يقطر وجهًا فلسطينيّ الصّمود!!

ثلاثة أيّام مرت على قلع النخلة الوحيدة من ساحة السّجن حتّى جاءت إلينا القطة (أم العبد) وكأنّها جاءت لتلطف وحشة المكان وتمسد على كتف انفرش فوق الشّوك . كيف تجرأتْ ودخلتْ؟ بل كيف ذابتْ وانسلتْ؟ كيف غافلت السّجّان؟

– كيف قطعت الأسيجة والأسوار العالية والقيود الحجرية والبشرية؟

– ما هو سرها؟

لا أنكر أن الفرحة نبتت في مسامات جلدي عندما رأيتها لكنّني أشفقت عليها من الجحيم والأنين والظّلمة والاختناق . كان لنا في الزّنزانة رقم ١٠ شرف استقبالها والعناية بها فهي على وشك الولادة كما يبدو . تتجول في الزّنزانة . . تغفو على صدري وتصحو على لمسات

أصابع صبحي تروح وتجيء وتقفز ، تلملم تبعثرنا وتضيء ظلمتنا وتسكننا واحدًا لا غير في حبّها!! هذه القطة المجنونة الضعيفة تمد يدها إلينا ، تُشبهنا بضعفها وجنونها وارتعاشها ، تطبع على باطن أكفنا الخشنة قبلة المؤازرة ، نطالبها أن ترحل لكنّها تصرّ أن تقف إلى جوارنا إنّها قطة اللامعقول فلماذا اختارت السّجن لتلد فيه .

في ليلة من ليالي آذار . . في ١٥-٣-٧٦ أخذت أمّ العبد (قطتنا المهاجرة إلى الزّنزانة) تتجول بشراسة في الغرفة ، تُصدر ضجيجًا ، مواءً متواصلاً مصحوبًا بالأنين ، تلعق نفسها حينًا ، تدور حولها حينًا آخر ، صياحها يعلو ، تنفّسها يصبح سريعًا جدًا ، أخذت ترتجف ، تنظر حولها ، تنظر في وجوهنا واحدًا واحدًا نرجوها أن تهرب . . أن تخرج . .

ارجعي إلى وطنك خارجًا .

لكنها تنظر إلينا نظرات محمَّلة بالمقاومة وكأنّها تقول :

- لست بأقلّ منكم!!

استيقظ الجميع في ليلة من ليالي آذار الباردة ينتظرون ولادة القطة . . ينتظرون الحدث الأجمل والأكثر إثارة منذ دخولنا السّجن .

ترقد أمّ العبد على إحدى جانبيها . . تمد رجليها إلى الأمام . . تموء وتموء مواء يقطع قلوبنا ولا نعرف كيف نساعدها ، كلّ ما فعلناه الوقوف بجانبها والتمسيد على ظهرها . . مرّ وقت ليس بالقصير ونحن ندعو لها ونشد أزرها إلى أن خرج المولود الأول ، عيون مغمضة أغشية مخاطية تحيط به . . ولم تمر عشر دقائق حتّى خرج المولود الثّاني والثالث والرابع والخامس بين كلّ صغير وآخر عشر دقائق إلى ربع ساعة . . الكلّ ينظر بذهول . . وما أن نزل آخر صغير حتّى بدأت مهمة الأمومة الصعبة ، تلعق كلّ صغير لتزيل الأغشية المخاطية من على أجسادهم ،

تدلك أجساد الصّغار واحدًا تلو الآخر، تجفّفهم، تقطع الحبل السري، تأكل مشيمتها بعد الولادة وتنظف المكان تمامًا وكأنّ شيئًا لم يكن!!

صار الصّغار وأمهم واحتنا الجديدة الغنّاء، نصحو على موائهم وننام وهم في أحضاننا، توطّدت العلاقة بيننا وبين المواليد الجدد ونسينا أننا في زنزانة، أصبحوا النجم المضيء الذي يضيء تلك المساحة القاحلة في حياتنا.. عاشقة السّجناء عرفت أن حياة السّجن مغامرة ليست هيّنة، وأنها تحتاج لوقت طويل حتّى تعتاد الإجراءات التعسفية والعدائية، فما إن اكتشفوا أمر ولادة القطة حتّى اعتقلوا صغارها بعيدًا عنها وراء مجمع مباني الأسرى. لكنّها نجحت في إعادة مواليدها الجدد إلى غرفة الولادة واحدًا تلو الآخر في مشهد غرائبي مثير، تتحين فرصة فتح البوابات الخمس الموصلة إلى الغرفة تركض بكامل سرعتها تحملهم بأسنانها من أجل إرجاعهم إلى حضنها وأحضاننا في عمليّة جريئة وصعبة، تحضرهم وتحضر دهشتها على جدران السّجن ودهشتنا، ياالله كيف كانت تجري نحونا نحن بالذّات تطمئن إلينا، تفرق بيننا وبين جنود الاحتلال، تتحفز عندما تراهم، تموء بصوت مخيف، تنظر بترقّب وغضب!!

في كلّ مرّة تعود بصغارها تترك الفرصة لنا كي نطمئن عليهم ونحملهم ونداعبهم ونلهو معهم، تتركنا لنمارس أبوتنا المكبوتة على أجنحة الحُنُوّ، كلّ قط صغير هو طفلنا الذي نحلم، صارت القطط الوليدة قوس قزح يلتمع في ليلنا يوحدنا ليبهج نفوسنا!!

لكن القطة شمّت رائحة الغدر والخيانة عندما قام الجنود برمي صغارها أوّل مرّة فصارت في حالة من التّرقّب والحزن، وكانت على حق؛ فما كادت تمضي عدّة أيّام حتّى قام الجنود للمرة الأخيرة بمصادرة

الصّغار ورميهم بعيدًا خارج الأسوار حيث لم تفلح في العثور عليهم هذه المرة!!

ترجع وحدها ومرجل الغضب يتأجج في عينيها . . تخطو بوجع يحطم قلبها وقلوبنا . . يختلط مواؤها بدموع السّجناء . . تلفّ الغرفة بجنون . . ألفُّها ببطانيتي حتّى أبعث في جسدها البارد السكينة والدفء . . تنظر إلي بعتب ممزوج بالقهر . . تئن أمومتها المغتصبة الجريحة وبشراسة أمٍّ أخذوا صغارها . . تشحذ أظافرها ، تخرمش القضبان . . تموء وتموء وعندما يقترب الجنود تهجم عليهم تخرمشهم . . دماء ، ورعب يقطر من أجسادهم ، وفي لحظة موجعة حادّة ترتطم بالأرض وهي تقطر دمًا برصاصة جنديّ سادي!!

ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذه القطة

هو ا

كتبت [illegible]

في الغربة قد تظن لوهلة أنك قد تركت كلّ شيء وراء ظهرك واسترحت لتنعم بلحظات هدوء مسروقة ، قد تعتقد أنك تركت أقدامك تسبح بحرية في الفراغ هكذا بلا هدف ولكن بكثير من اللذة والنشوة!! تشعر أحيانًا بالامتنان الصادق لها وقد تظن أنك تخلصت من مفتاح بيتك الجاثم فوق صدرك!!

في الغربة تختلف الأحاسيس والأصوات والصّباحات وحتّى الروائح ، ولكن في لحظة ، تعرف أنك مازلت واقفًا أمام عتبة وطنك وأنّ مفتاح بيتك مازال في يدك ومعلقًا في رقبتك!!

هذه اللحظة شعرت بها الآن وأنا في طريقي إلى المدرسة . . لأوّل مرّة أذهب إلى المدرسة بالسيّارة . . بعد ستّ سنوات في الغربة اشتريت سيّارة لادا حمراء . . لأراها في الشّارع ذات القطة بأنفاسها الرافضة بسخريتها من القضبان ، بمقاومتها للسجان ، إنّها قطة اللامعقول . . تسير في نفس الاتّجاه . . لا تلتفت للخلف . . لا تعبأ بالتيّار الجارف!!

قطرة دم سالت من قطة اللامعقول (قطة أبو رجا) في سجن جنيد اتحدت مع قطة الشّارع فكان الرفض جنونًا!! كان لونًا لطريق بدأ يرتسم وإن ببطء!! عندما رأيتها تتربع على إسفلت الشّارع وأبواق السيارات

تطلق صفيرها علّها تخاف ، تتراجع ، ترحل لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث!! عندها قلت بدأ الصّمت يفر!!

قلت يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذه القطة منتصب القامة . . هكذا قلت ، بينما الجمع ينتظر أن ترحل القطة من الشّارع حتّى لا تنكشف سوءتهم .

زفر أحد السّائقين بسخرية وهو ينفث غليونه .

- والله قطة عجيبة وصاحبة قرار!! الدّنيا آخر زمن حتّى القطط باتت تتمرّد .

- قلت بل جاءت تُعلمنا!!

نزل أحدهم من سيارته الفارهة وزمَّ شفتيه وركل القطة بقدمه وهو يحاول أن يقتلعها من الشّارع صارخًا :

- هذه مهزلة!!

تمطت القطة بلا مبالاة ، نفضت وبرها وقرّرت أن تحتضن حلمها بكل ما أوتيت من قوّة لا تحيد قيد أنملة ولسان حالها يقول :

- من يملك القرار يملك المواجهة!!

تابعتُ المشهد تفاجأت أن جسد القطة أصبح أكثر لمعانًا ونعومة وأناقة أيضًا ، التصاقها بحقها ، في التّعبير عن رأيها جعلها أكثر صلابة من الصوّان .

- ماذا أرادت أن تقول هذه القطة لي؟

- لماذا جاءت في هذه اللحظة بالذات؟

في الليلة السابقة فقط كنت أسمع صوت أخي (أبو رجا) يحدّثني عن قطته!!

لقد جاءت لتنزع طعم اليأس الذي ملأ فمي ذلاً وانكسارًا!! لم

أشعر يومًا بأنّي ضعيف إلى هذا الحد كما اليوم!! لو كان الزّمن يعود لتخفّيت ، لصهرت ملامحي وما لعبت لعبة المنفى السخيفة . .

– كيف استطاعت أن تقف في وجه السيل الجارف؟

– كيف استطاعت أن تمرر خيطها العظيم في سَمّ الإبرة المهترئة؟

ها هي تحاول أن تصلح التجاعيد التي علت وجوهنا .

نزلت من سيارتي الجديدة ، حدقت القطة طويلاً في عيني دون كلّ الرجال ، أتخيّلها تسألني :

– لماذا تغيرت؟

– تعبت والله تعبت ، تعبت من انتفاض عصفور مبلل لا يقوى على الطيران ، قيدتني خطواتهم للخلف وخطوتي اليتيمة للأمام ، سئمت يدي المشقّقة الحبلى بالرفض والمقاومة وأيديهم النّاعمة الباردة ، نظراتهم الحكيمة البلهاء ونظراتي الشجاعة المقيّدة . رميت مفتاح بيتي في الـجُبّ ، وتنازلت عن الدرع وعن السّلاح ، وما عدت أتدثّر إلاّ بسخونة دمع لم يره أحد سواي ، حينها قرّرت أن أقتلع نفسي من وسط الشّارع ، مالي ولهم! بل مالي وللدنيا كلها!

في هذه اللحظة التي بدأت فيها الغربة تنقش زخارفها على صدري جاءت هذه القطة لتعيدني إلى . . الوطن من جديد!!

وكنت أظن حينها أنّي أهرب من النّار ، وما دريت أن النّار تشتعل في أنفاسي عند كلّ خبر من هناك ، عند كلّ رسالة تصلني من الأهل غربي النهر ، كنت أظن أنّي أحذر رصاصهم ، فتساقط على نافذتي أرقًا وعجزًا وحيرة!

لكني أعترف لك ، أيتها القطة ، اعترافًا خطيًا وعليه أوقع : أنك كنت الشرارة عندما ألقيتِ على وجهي قميص وطني فارتد علي

بصري وسمعي ، عاشقًا حرًا مُحمَّلاً بهمِّ الوطن الذي ينتظر يدًا صلبة .

هل أشعلت انطفاء روحي؟ نعم ، جعلتني أركل بقدمي لعبة الدّمع والمراقبة ، مراقبة شعب يتساقط كحبّات المسبحة شهيدًا وجريحًا وطريدًا .

**

وبايعتُ القطة على ألاّ أُشرك في حبّ الوطن شيئًا ، لكنْ لم أستطع أن أُكمل بنود البيعة حتّى باغتني أحدهم :

– لن نتركها تتحكم في مسارنا ، يجب أن تعرف أننا طوفان عاتٍ وهي مجرّد قطة حقيرة ، عليها أن ترحل من طريقنا وإلا داستها عجلات سياراتنا .

شعور بالانقباض يلفّه شعور بالرضا يباغتني ، أتوسّل إلى القطة أرجوها ألاّ ترحل ، وحدي عرفت أن شارة البدء قد أطلقت ، البداية من هنا ، من الشّارع ، الشّارع جوع ومنفى ، لكنّه رغم ذلك ثورة ووعد بالعودة!

الكل يتناقش علّهم يصلون إلى حلّ يرضي القطة صلبة الملامح . هل يغيّرون طريقهم وكفى الله المؤمنين القتال؟ أم يدوسونها بعجلاتهم ؛ لأنّ الحاكم بأمر الله في الأرض لن يرضى بأقلّ من ذلك؟

في النهاية قرّروا أن يدوسوها بِعجلاتهم فهي مجرّد قطة ، وما أكثر القطط!

حينها همست في أذن القطة ، توسّلت إليها أن تتحوّل في هذه اللحظة فقط إلى رجل من الجمع! .

لكنّ القطة أخذت تزأر بصوت حاد وعيناها تبرقان بخيط من التحفز ، فسّرته بأنّه رفضٌ من القطة أن تتحوّل إلى رجل من الجمع ولو لبرهة من الزمن ، لسبب يعرفه كلّ الرجال الذين أتقنوا ثقافة الانحناء!

بِسَّة مغمضة

هو ١

في ليلة من ليـالي آذار وفي منتصـفـه بالضـبط ١٩٧٠/٣/١٥ بدأ جبين بُشرى يتعفر بآلام الولادة مع أنّها ما زالت في شهرها السّابع!!

السّاعة الثّانية ليلاً ، بعينين نصف مغمضتين ، وبقلب يمتلئ قلقًا ورعبًا خرجت مسرعًا بالبِيجامة وبـ(حذاء بالمقلوب) أركض نحو جارتنا القابلة المصريّة زكية والتي لا تبعد عن بيتنا سوى مائة متر. (وِيْنِكْ يا سِتّي)؟ فقد كانت تشرف على عيادة الأمراض النسائية في الزّاوية!!!

تُولِّد جميع النّساء في القرية! وتزور الوالدة أربعين يومًا ، تدهن جسد المولود بزيت الزّيتون ، تحممه ، تُمرِّجه ، وتقدم جميع الخدمات المتعلقة بالأم وطفلها مقابل مبلغ زهيد من المال وغير مشروط ، أي ما تجود به عائلة المولود تأخذه بنفس طيبة!! وكانت تصرّ على الأم وبتمام الأربعين يومًا أن تكون قد انتهت من أكل تنكة زيت كاملة لترُمَّ عظامها وتعود إلى حقلها وعملها بكل همة!!!

طرقت الباب في هذه السّاعة المتأخّرة وكلي خوف أن تهاجمني برفضها ، فأنا وحيد وغريب وليس لي قريب واحد ، ولم يمض على وجودي في هذه البلاد سوى ستّة أشهر!!

فتحت بابها وامتلأ قلبي طمأنينة ورضا عندما وافقت على

الذهاب معي لترى زوجتي . فحصت بُشرى وقالت بقلق واضح يجب أن تنقل إلى المستشفى .

في البداية كان الوجع رقيقًا خفيفًا متزامنًا ، كلّ ساعةٍ طلقة ، كلّ أربعين دقيقة ، كلّ ربع ساعة ، كلّ عشر دقائق ، كلّ خمسٍ دقائق ، كلّ دقيقة . كانت ترتعش كعصفور بلا ريش داهمه المطر فجأة!! أهو ارتعاش الوجع الذي يهد الصخر؟ أم ارتعاش الغربة والوحدة؟ أم ارتعاشهما معًا؟

يمر الوقت بطيئًا ، مُرًا ، ملوّناً تارة بالصّمت ، تارة بالفرح المرتقب ، وتارة أخرى يشتعل كاللهب المتراقص الذي لا يطفئه سوى الدّعاء والدعاء ، أدعو كما كانت أمّي تدعو (يا رب يا مُخلّصْ رُوحْ من رُوحْ خلِّصْها وْقوِّمْها سالمة غانْمة بِجاه نبيكْ مُحَمَّد) .

يربكني سماع صوتها المختنق ، أقف عاجزًا لا حول لي ولا قوة!! صوتها عود جاف اشتعلت به النّار ، أذوب شفقة عليها ، أحاصر وجهها بأصابعي ، أذكرها بذخيرتها من آيات القرآن ، تتلوها . تهدأ قليلاً تأخذ نفسًا عميقًا لتستعد لجولة أخرى من الطّلقات المتتابعة ، طلقة وراء طلقة تقتلع أنفاسها ثمّ تعيدها بترقّب مرعب إلى طلقة جديدة!!

فجأة يهدأ الصّوت المختنق ليعلو صوت برذاذ ندى صباحي النسمات ، ربيعي القطرات . ركضت باتّجاه الصّوت الجديد ، الضعيف ، الغريب ، القوي ، الحاد ، النّاعم ، بعينين جاحظتين وإذ بممرضة فلسطينيّة تبشرني ، مبروك توأم بنات .

بعدها بساعات قليلة توفّيت واحدة والأخرى خرجت معنا . أمسكت بشرى بالصغيرة تقبلها ، تشتم رائحتها ، تتأمّل ملامحها الدقيقة ، تتفقدها ، تسألني من تشبه؟ أرد تشبه البِسّة المغمضة!! ما

بَعْرِفْ أَشَبِّه!! أمرر إصبعي على فمها بشكل دائري تلحق الأصبع تظنه مصدر رزقها . من الذي علمها لتوها أن تمص ثدي أمها؟ من ذا الذي أوحى لها إذا أحست بجوع أن ترضع!! يا ربي سبحانك .

حملتُ الصغيرة بيد بينما بُشرى تستند على اليد الأخرى ، خرجنا ثلاثتنا من المستشفى ، عائلة جديدة بلحن جديد ، لحن ملائكي الصوت ، تصرخ فنركض ، تغفو فننتظر بجانبها الساعات حتّى تصحو ، تصحو فنصفق لها ونحاكيها وكأنّها كبيرة تفهم كلّ كلمة نقولها ، تبلل نفسها ، أحملها ريثما تحضر بشرى الفوطة وتجهز البانيو لتغسلها ، سكنت روحي هذه الصغيرة في يوم واحد ، كلّ يوم أعود مسرعًا من مدرستي ، ألاعبها ، أهدهدها ، أغفو بجانبها وعندما تحرك رأسها يمينًا أو شمالاً أصحو عليها . أصبح ليلنا يضاء بالأنوار وبصوت الصغيرة ، وفجرنا يمتزج فيه صوتها بصوت الله أكبر . أتأمّلها ، أشعرها كلّ يوم تكبر أقول لبُشرى ، لماذا جاءت هنا في الغربة؟ لماذا رحلنا عن الوطن؟ تشهق بحسرة وترد : ليس الأمر بأيدينا .

بعد أسبوع واحد فقط رجعت من المدرسة عصرًا لأنّ دوامي كان مسائياً ، وإذ ببُشرى تنتظرني عند الباب ، تخبرني أن الصغيرة لا تتحرك ، لا تبكي ، لا تفتح فمها لتلتقم رزقها!! ذهبتُ بسرعة وأحضرت الدكتور سلامة أبو عويمر ، وكنت قد تعرّفت إليه منذ فترة بسيطة جدًا ، جاء وفحص الصغيرة فوجدها ميتة ومنذ ساعات!!

زوج وزوجة في بداية حياتهما ، وحدهما في الغربة ، لا أمّي ولا أمها ، لا أختي ولا أختها ، لا تلفونات ، والرّسائل تحتاج لشهر كامل حتّى تصل ، لا قريب ولا صديق ، التصقنا ببعضنا نحتمي بأنفاسنا الحارة عسى أن تذيب صقيع الموت القادم! لم نقتلع خطانا عن الأرض ،

بقينا متسمرين بلا حركة .

كم هو حارق طعم الدّمع عندما يسيل إلى الدّاخل!! رائحته . . رائحة البارود!! كم توسّلت لحظتها لعيني أن تُفرج عن دمعي ولكنها أبت إلاّ أن تسجنه وتترك ظلاله على روحي!!

على حوافّ الصّبر ، بتنا ليلتنا بجانب الصغيرة الملاك التي ما احتملت الغربة ، مسكونين بجرح طازج ؛ فهذه أوّل حادثة مؤلمة تصادفنا في الغربة .

في الصّباح جاء جارنا العجيلي وزوجته العجيلية ، أخذوا الصغيرة ، غسلوها وكفنوها ودفنوها في الحديقة ونحن ننظر إليها وقد تفحمت الفرحة على نار الموت السريع ، فالموت هو الحقيقة الوحيدة ، الموت يلحقنا أينما كنا في الوطن في الغربة . وفي الغربة يصنعنا الموت ونصنع المقاومة!!

هكذا نحن الفلسطينيّين ، نهرب من موت إلى موت .

أيها الموت لمَ لم تمهلنا حتّى يطول شعرها ونضفره ونلبسها فستانًا أحمرَ وأساور ملوّنة؟

جاءت سريعًا وذهبت سريعًا ككلّ أفراحنا . كحبة مشمش لم تعش إلاّ جمعة .

أرتعش لصمت بشرى ، أخاف عليها ، وهي تتشبّث بالطفلة المكفنة والجارات يَحُطْنَها يدعون لها بالصّبر والعوض ، ثمّ يسحبنها بعيدًا ، حتّى لا ترى الصغيرة وهي تدفن . أتأمّلها ، وفي جعبة الكلمات لم يتبقَّ أيّ حرف ملوّن ، كلّ الأحرف اصطبغت بالسواد ففي المسافة بين الحياة والموت شعرة وبين الغربة والوطن صرخة!!

للسماء لون يشبه زرقة عينيه!!
هي

أكتب وأكتب حتّى لا تضيع التفاصيل في زحام الزّمن والأماكن . . تنتابني حالة من الازدحام في الأفكار والمشاعر . . هناك الكثير الذي سأحكيه لأبي . . سأقول له إنّني أكتب له حتّى يبقى الوطن حاضراً وطازجاً!! سأتلمس كلماتي التي كتبت ليعود إليّ الوطن ممتلئاً بالحكايا . . يغسلني من النكد والانتكاسات الحياتية . . ، أواصل الكتابة لأنّ أبي سيتصل بي في أيّ لحظة ليسألني كما كلّ يوم ، ماذا فعلت البارحة . . سيقول لي كما في كلّ مرة ... اكتبي كلّ شيء ، لا تنسي شاردة ولا واردة . . ها نحن نتناوب الأدوار . الآن هو الذي يقول لي اكتبي . .

أكتب . . . . . .

للسماء لون يشبه زرقة عينيه!! عينان لم يلوثهما اليتم ولا الشجن!! لشعره لون ذهبيّ كرمال غزّة . .!!

رأيته يقف على حافة جدار قديم متهالك . . مليء بشعارات المقاومة . . كلمات تدفع بمن يقرأها إلى سابع سماء . . لكنّها تسحق الاحتلال . . وترعبه . خلفه صورة كبيرة لوالده الشهيد . .

نزلنا من الميكروباص . . تسبقنا مؤمنة بخطواتها السريعة وبرنامجها الحافل . وجدت نفسي أقف قبالة طفل في العاشرة من

عمره . . يحمل في عينيه شوكة ستكون غصة في حلوق اليهود . . أتأمّله في لحظة أخرى فأراه يحمل كلّ الهزائم يرصها رصًا فوق بعضها البعض . . يصعد عليها ليقذف حممًا من الغضب . . في العاشرة من عمره ، لكنّ له هيبة القائد . . تنقشع عتمة اليتم بلمعان عجيب من عينيه . . استقبلنا على البوابة السفلية . بوابة من الحديد الصلب المتشابك من الأعلى ، المهترئ من الأسفل .

عرّفنا بنفسه قائلاً :

- أنا ابن الشهيد أشرف مشتهى . . اقتربت منه في محاولة منّي لضمه وتقبيله ومسح رأسه . . لكنّه رفض وابتعد وكأنه يقول لي :

- لست بطفل!! أنا أكبر من أن تستوعبني يداك . منذ تلك اللحظة أحسست بأنّه لا طفولة ولا أطفال في غزّة!! إنّهم ينضجون في يوم وليلة كالورد يملؤون الدّنيا بضجيج مختلف وحارق!! إنّهم أطفال فوق الكلمات والنياشين .

في هذه اللحظة يستعصي الدّمع عليّ كما استعصى على أبي ذات موت!! معك حق يا أبي . . . .كم هو حارق طعم الدّمع عندما يسيل إلى الدّاخل!! رائحته . . رائحة البارود . . كم توسّلت لحظتها لعيني أن تُفرج عن دمعي ولكنها أبت إلاّ أن تسجنه وتترك ظلالها على روحي!!

وعلى غير ما توقّعت . . . يواصل الدّمع العصي ممارسة دوره في العبث بعيني . . . كما عبث بعيني أبي ذات غربة وموت!!

ابتعدت قليلاً وأنا أتأمّله . . أزهرت كلماته على شفتي!! فكلما سقط شهيد . . أزهر آخر. . يملأ الفراغات ، ويرمم الخيبات ، ويسد الثغرات . . هاهو نعيم يملأ مقعد والده . يدفئ برد الحائط . . يستعيد ما

سلبه الاحتلال منه . . هاهو الحائط يتماسك وينبض ويضج بالحياة!!

وهي . . كانت في استقبالنا . . صبية شابة . . تقشّر الحزن بيديها لتصل إلى ثمرة الرضا والصّبر!! تعانقنا وهي تطير فرحًا بقدومنا . . كلماتها تسيل رقة وحفاوة . . إنّها ترى زيارتنا لها . . قاربًا يأخذها بعيدًا عن جنون العاصفة . . ونرى زيارتنا لها أشبه برتق جرح غائر بسلة ورد!!

في هذا البيت كلّ شيء يذكر بالجرح . . ثوانٍ، وكان الغداء موضوعًا على طاولة مستطيلة الشكل تقع بين صالة الضيوف وصالة الجلوس . . المقلوبة تتوسط الطاولة . . السلطة . . اللبن . . العصير والماء .

قالت مؤمنة :

– ما معنا وقت كثير . . برنامجنا حافل ، رَحْ نِتْغَدّى ونِسْمعَ من أمّ نعيم ؛ لأنّه بعد نصف ساعة لا زم نْكون في الفندق . . فيه إعلاميين وكتاب بِدْهم يجتمعوا مع جهاد ومريم .

شيء ما في صوتها يجعله يضج ويتفتح بالفرح رغم دخان الاغتيالات والركام والموت الملتصق بجدران البيت وحواشيه . أعتقد أن السبب يستعصي عليّ فهمه!! فكيف تستطيع فتاة شابة . . زوجة شهيد وعندها خمسة أطفال . . أن تفرغ حمولتها الزائدة وتحكي عن زوجها . . وابتسامة الرضا لا تفارق شفتيها . . تحكي عن أشرف وعيناها كنبع النهر . . صاف ونقي . . متدفق وسلس وعذب . . أحسست بشعلة قلبها تتوقد وهي تمرر أحرف اسمه من بين شفتيها!!

أتخيّلها تفتح الخِزانة كلّ يوم . . تشمُّه وهو يختبئ خلف الثياب . . تركض خلفه عندما يخرج وعندما يصل إلى الباب السفلي تنادي عليه :

– أشرف تعال . . تعال . . لقد نسيتَ شيئًا ما!! فيعود إليها كالطير

لا تحمله أجنحته من فرط الشوق . . الضّحكة ترفرف على وجهه . . يصعد الدرجات كالبرق . . تسمع صوت دقات قلبه تسابق خطوات قدميه ، يقول لها وهو يرشفها بنظرة تشبه الغيمة في رقّتها :

- أنا فاهْمِكْ!! أنا ما نْسِيْتْ إشِيْ . بِدِّكْ ياني أَرْجَعْ بَسْ!!

يقف ، تتأمّله طويلاً وكأنّها تراه لأوّل مرة . . تحس بأبخرة خوفها وعشقها تنسل من أهدابها وتحيطه بالدعوات . تلفّ وجهها عنه وتشير إليه بيدها فقط :

- وهبتك لله يا أشرف . . إنّي وهبتُ ما في قلبي محررًا!!

- خَلَصْ رُوحْ . . الله يُجْبُرْ بْخاطْرَكْ ويِعْطيكْ لَيِرْضِيكْ .

تنحدر دمعة على خدها بينما تتكئ على ابتسامة تفتح لها كلّ أبواب الضوء . كان يعرف أنّها تشتاقه وهو في البيت . . فكيف إذا خرج . .!! لم تكن تسأله أين أنت ذاهب؟ ولم تكن تعاتبه على تأخّره وغيابه الدائم وانشغاله عنها طوال الوقت لأنّه علّمها أنّها شريكته في المقاومة . . تمنحه الهدوء والسكينة ، ويمنحها سماء مرصعة بالنجوم ، وقلبًا ينبض بالحياة والسمو!! تفتح له الأبواب الموصدة . . تلقي بألمه وأحلامه . . تغلق الباب . . وتتقاسم وإياه وطنًا تتنفّسه عطرًا . . لا دخان فيه!!

في ليلة من الليالي جاء متأخّراً . . حوالي الثّانية صباحًا . كان الجو باردًا جدًا . . السّماء ملبدة بغيوم اجتياح وشيك . دخل على رؤوس أصابعه حتّى لا يوقظها . . فتح الخزانة بحذرٍ وهدوء . . أخرج نقودًا كانت تلزمه لتنفيذ عمليّة ما!!

صَحَتْ فجأة قفزت من سريرها :

- والله . . كُنْتْ حاسّة إنّك رَحْ تِيْجي . .!!

رأى ذلك في عينيها الولهى المتلهفة!!

نظر في عينيها مليًا . . وأجلسها قِبالته تمامًا وقال :

– الله يرضى عليك يا (ريم)قدّيش بْتُصبُري عليّ!!

مازالت كلماته ترن في أذنها . . تكبر كلّ يوم في روحها وعقلها . . تتحايل على بردها وعمرها المسروق تصنع لها سحابة من حلم لا تريد أن تصحو منه!!

كان أشرف في كلّ لقاء يأتيه إلى البيت يعلمها الطيران معه لا تحت جناحه . يُصغِّر الدّنيا في عينيها كجناح بعوضة . كفها في يده والعمر قارب يكسر الأمواج الهادرة!!

كانت دومًا مهيأة لهذه اللحظة . كانت ترسم المشهد في مخيلتها بدقة . . لم تكن ترسم لحظة استشهاده على أنّها لحظة فاجعة . . أو لحظة غياب وخوف ورعشة وخسارة قاسية!! كانت ترسم هذه اللحظة بألوان قوس قزح . . تُطيِّر البالونات . . تُشعل شمعة جديدة من عمره وكأنّها تحتفي بميلاده لا بموته . . وهو فعلاً . . مازال حياً يرزق!!

ترسمه وقد فاز بما اشتهى!! أتراه كان بذكائه يُمسك بأصبعها ويجعلها ترسم ما يريد!! أم إنّها أُصبعها فعلاً التي استنشقت رؤياه وحلمه؟ تتأمّل ما رسمت في خيالها . . إنّها اللحظة التي كان يتمنّى ويعشق . . أجبت ما يحب حتّى لو كان الثمن . . هذا الفراغ الموحش . . وهذا السفر الذي لا ينتهي .

كم تتمنّى الآن أن تعوِّض كلّ لحظة ضاعت هدرًا وسالت من بين أصابعها كما يسيل الماء عنوة؟ كم تتمنّى أن تكون نورسًا على شطّ هواه الهادئ الغامض الذي يقاوم جبروت القوّة الظالمة؟

كلما سمعتْ صوت نعيم . . تسمع صوته ينقر أذنها كما حبّات

المطر على زجاج قلبها . وكلما مسح نعيم دمعة فرت على خدها كما يحدث الآن في هذه اللحظة وسنين تنشد أمام الجميع أنا يتيمة . . تشمّ رائحة يديه المعفرة بتراب غزّة تهدهد دمعها ، وكلما نظرت في عيني محمد وإخوته تذكّرت أيامها التي قُطفت قبل أن تنضج!! وحينما يحمل أولادها الكلاشنكوف خاصته ويأخذون لقطات تذكارية ضد رياح النّسيان . . تعرف أنّه حاضر معها . . يعطيها جرعات مناعة لتستمر في الحياة .

كانت تصحو كلّ يوم . . تستعد لاستقبال خبر استشهاده ، في كلّ مساء كانت ترهن أذنها لسماع صوت يخبرها عنه . . كانت تعيش اللحظة قبل أن تعيشها فعلاً . كان يهيئها لهذا اليوم بكل تفاصيله وألوانه . . بريق ارتعاشها وخوفها عليه يبرمه معها هناك!! حيثُ لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!!

يهمس في أذنها كلّما خرج من البيت :

- أنا أسعد رجل في العالم . فأنتِ المرايا التي أرى فيها نفسي وأنتِ أوّل النبض وآخره!!

كانت تعرف أنّه يستدرج قلبها للدفء والفرح والنور والحياة ، كان يشعر بأصابعها باردة ومرتعشة فيقول هذه الكلمات ليشعل بردها ويطفئ ارتعاشها . يقولها ويمضي سريعًا دون أن يلتفت .

تقف على نافذتها التي تطل على الدرج ، تتابعه وهو ينزل درجة . . درجة ، وكأنّما يسابق النّور ويصيد العتمة . . تهمس له دون أن يسمعها :

- كم تسعدني خطواتك ولكن يعز عليّ فراقك؟

إن كنتُ أنا أوّل النبض وآخره فقلبي أصغر كثيرًا من النبض الذي

يحمله لك . . اذهب يا نبض قلبي . . سأنتظرك العمر كله!!

لم تشعر أنّه فارقها!! لو شعرتْ بذلك لجُنَّت . . وما قدرت على الاستمرار . . قد تضحكون وتقولون هذه سكينة زائفة!! لا . فهي تعيش على توقيته ، تصحو في ميعاد صحوه . . تُجهز الأولاد للمدرسة معه ، يقبلهم معها تسمعه يقول لها يا ريم :

- لازِمْ نْخلِّفْ كْثِير . . إمبارِحْ عِيلةِ كامْلةِ . . سِتّ أَطْفال راحوا بْقَصْف!!

تودعه عند الباب . . تُرتِّب البيت . . تطبُخ ما يشتهي . تقول للأولاد طَبَخْتْ اليُومْ مَقْلوبِةْ عَشان بابا بِيْحِبْها . تنام وعينها نصف مفتوحة لأنّه سيعودها في أيّ لحظة كي يمنحها إصرارًا على الحياة تتنفّس كلماته وحكاياته ويلقيها في جنة كلها ألوان ، وعندما يتعب بندول ساعتها عن المسير تجده أمامها . . يقص عليها نكتة من نكاته فتضحك وتتلون كالربيع وتعود رائقة وشفافة وراضية .

أشياء كثيرة كانت تود أن تقولها له ولكن انفجار منزل بيت لاهيا حين كان يضع ورفاقه اللمسات الأخيرة لتنفيذ مهمة جهادية خاصة ، قطع عليها كلّ شيء . كانت تود أن تقول له . . بقايا أحلامها وحكايا كثيرة مُخبَّأة . . نسيت أن تقول له قبل أن يتركها في ذلك اليوم أنّه كان عطرها وألقها . .!!

الآن بعد الفراق . . تجده أقرب إليها من أيّ وقت مضى .

آكلُ لقمة . . فأختنق بالدموع ، أشعرها في حلقي لا في عيني ، تتزاحم دموعي كما تتزاحم كلّ المشاعر في صدري . . تنزلق رغمًا عني . . أذهب للمغسلة . . أغسل وجهي ثمّ أعود متماسكة بعيون تتقد جمرًا .

يقف نعيم، ينشد بصوته، وسنين تقرأ الشعر، وبُشرى ومحمد ينتظران دورهما . . تدمع عين الأم، يسرع نعيم ليمسح دمع أمه، يقويها، يصلب طولها!!

ودعتُ الأطفال وأمهم . . ركبت الميكروباص ومازال مشهد العائلة يلتمع أمام ناظري . . أحدث رفيقات دربي :

– كنت دومًا أخاف الاقتراب من وهج الأشخاص والأشياء . . لستُ كالفراشة تعشق الدّوران حول النّور لأنّي أخاف أن يبهت النور . . وينطفئ في عيني!!

أهوى الوهج من بعيد . . لأنّ الاقتراب لا يعني احتراقي أنا بل احتراقهم هم . . فكم من الأشخاص يبهرك على الورق أو على شاشات التلفاز وعندما تلتقيه يحترق أمامك كسيجارة وتلقيه في المنفضة بلا أسف!! إلاّ في غزّة، الأمر يختلف!! كلّ الأشياء الجميلة والأشخاص الرائعين . . عندما تقترب منهم يشتعلون بين يديك ليغطوك دفئًا واتساعًا وامتلاءً ونورًا . . تقترب منهم فتشعر بأنّهم كرمش العين أو أقرب، تلمسهم فتشعر بنداوتهم وأنهم بلا رموز مبهمة . . تتعافى برؤيتهم . . تشعر بشبه كبير بينك وبينهم، بهم تربح نفسك وعقلك وقلبك!!

لو لم يكن وجع التّراب الذي يدوس عليه أعظم من دمه ما فعلها أشرف. التّراب الذي يدوس عليه لا يُشفى إلاّ بدماء أحبابه!! الألم اليومي في مكان مغلق ومحاصر ومعزول . . يحتاج إلى هذا القدر من التضحية!! الألم كان قويًا والخيارات محدودة بل لم يكن هناك أيّة خيارات أصلاً!! شابّ كهذا تشتهيه الدّنيا وتداعبه وتحاول أن تسحره وتأخذه لحضنها . . لكنّه يتسلل من بين أصابعها . . يعبرها إلى صفقة

رابحة . . يترك زوجة وأطفالاً كلون البحر وعمر الزهر يلقيهم من على كتفه . . يطبع قبلةً على أيامهم القادمة ليلحق بموعدٍ مع رائحة المسك والعنبر . .!! إنّه شابٌ أزال الغشاوة عن عينه وامتلأ بحبّ الوطن!!

مكتبة

الرعشة الأخيرة بين الموت والحياة

هي

خرجنا من بيت الشهيد أشرف مشتهى . . وفي القلب أشياء كثيرة أريد أن أحكيها ، لكنّها استعصت وركَنتْ في أقصى ركن في القلب لتزيده ألمًا واشتعالاً . .

أسمع صوت نقرات كلماتها . . فأشعر بالقوة والحزن معًا . . خرجنا ولا نعرف كيف سنواجه بقية اليوم . . . فكلما دخلنا على مكان في غزّة . . قلت لا شيء بعده . . لأكتشف بعد قليل أن الدهشات والأفراح الصغيرة . . لا تتركنا أبدًا!! كلّ لحظة في غزّة لها دهشتها وشهقتها وحبها!!

نعود من حيث أتينا نمشي في شوارع غزّة . . في طريقنا إلى الأنفاق كما علمت من منى سكيك ومؤمنة . . أرقب الطرقات والسيارات ووجوه النّاس والإعلانات المنتشرة هنا وهناك . . أتوقف عند أحد الإعلانات

- أيّها المُتخابر . . قف وفكر!!
- أما آن الأوان للخروج من الوحل؟
- آخر موعد للتوبة ١٠ يوليو .
- قلت لمنى . . والله هذه مبادرة طيبة . لكنْ هل تعتقدون بأنها تنفع مع هؤلاء العملاء؟

ردت منى :

- هذه أوّل مرّة يُفتح فيها المجال لاستيعاب من ابتزته وضغطت عليه المخابرات الإسرائيليّة ، فهناك الكثير من وقع في وحل العمالة رغمًا عنه وبتهديد من اليهود . . لذلك يجب أن نحتويهم ونوفر لهم حضنًا دافئًا يعيدهم إلى الوطن . . قدمنا لهم ضمانات بأن لا يعرف أحد بهم وأن تُعامل قضيتهم بمنتهى السرية والكتمان ، وأن لا يغيبوا عن بيوتهم ولا يُحتجزوا حتّى لا تثار حولهم الشبهات ، وأن نعيد دمجهم في المجتمع ، ونحافظ على أسمائهم وقضيتهم وشرفهم أمام المجتمع!!

إنكم تركضون لتحقيق حلمكم بكافة الطرق . . كلّما أمشي خطوة . . أشعر بأنّ غزّة تكبر في عيني وتتعملق في قلبي . .

- أسأل ما الذي جعلكم تفكرون بهذه الطريقة الإبداعية في القضاء على مشكلة العمالة؟

- يا جماعة . . نقطة التحوّل التي تولدت عنها هذه الفكرة هي الحرب الإسرائيليّة الأخيرة على قطاع غزّة . . حيث تبيّن حجم الدور الذي قام به العملاء . . اليهود عميان وهذه الأرض أرضنا نحن من نعرف مسالكها . . وأزقّتها وشوارعها . . عندما يدخلون غزّة . . تكون لهم عيون هي التي تدلُّهم على الأهداف والطرق التي يجب عليهم أن يسلكوها . . ولولا هؤلاء العملاء لما نجح العدو في استهداف المدنيين والمؤسّسات الوطنيّة والتعليمية وغيرها!!

أضع يدي على قلبي وأنا أسألها سؤالاً أخاف من إجابته . .

- وهل تعتقدين بأنّ هذه الحملة ستنجح؟

- لا تخافي . . أعتقد أنّها نجحت بالفعل . . فهناك الكثير ممن سلّم

نفسه ، ويوجد من بين هؤلاء من يعملون في مؤسّسات أهلية حيث كانوا يوصلون المعلومات لليهود . . يستغلون عملهم لتقديم التسهيلات لليهود ، وكانت الصدمة بالنسبة للأجهزة . . هو أن كثيراً من العملاء الذين اعترفوا وقدموا أنفسهم كانوا بعيدين عن الشبهة!! وهناك الكثير من العملاء الذين هربوا من القطاع عبر الحدود الشّمالية لقطاع غزّة!!

تبرق عيون الصّبايا . . بالفرح والنشوة . . تصرخ إلهام يا سلام :

- أَبغي أشُوفْ منَظْرَ اليهود وهم يصابون في مقتل . . أكيد الأخبار هاذي صادمة لهم . . رَحْ تخليهم يدوخوا .

- صحيح يا إلهام ما نفعله هو رسالة لليهود . . بأننا قادرون على محاربة ظاهرة العمالة . الحملة كان هدفها محاصرة المتعاونين مع إسرائيل وإخراجهم من الكابوس الذي وضعوا أنفسهم داخله . . كثير من العملاء اعترفوا بأنّهم لا يستطيعون النّوم ولو لدقائق . . إنّهم يعيشون في حالة هذيان . . يضعون فوق أعينهم عُصابة لأنهم لا يستطيعون رؤية النّور الذي يخرج من بين الشقوق ويكبر ويكبر . . إنّهم يريدون أن يغادروا الوحشة والظّلمة والضيق ، يريدون أن يمسحوا بقايا الدّم العالق بأظافرهم وثيابهم . .!!

سذاجتهم . . طمعهم . . ضعفهم . . وأشياء أخرى كثيرة كانت السبب في انكسارهم . . عندما وُضعت الإعلانات في الشوارع . . شعرتُ بأننا أعدنا الطيور إلى أعشاشها . . سيعودون ، ولكن يجب أن نفتح قلوبنا وأحضاننا لهم!!

ها نحن نتمادى في دخولنا . . إلى أرض ترابية رملية بعيدة نوعًا ما عن العمران . . يقف أبو عادل . . ننزل من الميكروباص . .

كيف لي أن أصف المشهد؟ وماذا أحكي عن المعجزة؟ كيف

استطاع هذا الغزّيّ وفي اللحظة نفسها أن يضع قدمه على الأرض . . يحفرها بأظافره في ذات اللحظة التي تصعد فيها روحه إلى السّماء!!

أضع ساعدي على صدري بحركة تشفٍّ ، وأميل بجذعي وأستعيد ما قاله الضابط اليهوديّ للسجناء رفاق عمّي (أبو رجا)

- (تقولون أقوال ملائكة وتفعلون أفعال البشر)

تعال أيّها الضابط . . . تعال لترى مرّة ثانية القناديل وهي تشتدّ اشتعالاً مع عصف الريح . . تعال لترى قدح البرق وهو يُشعل السّماء . . . تعال لترى أفعال الملائكة!!

ها أنا أمشي في حنايا النفق . . تارة أهرول في ثناياه . . وتارة أقف أتأمّل . . وأسبح وأكبر . . قد يكون الأمر أشبه بالصعود إلى القمر منه إلى الهبوط داخل نفق!!

هذا النفق هو إجابة الغزّي على التواء الأنظمة وسوء أدبها وتنازلها . . هي فكرة ابتدعها حين رفض الخنوع وتوضأ ببحر التمرّد . . هي صفقة عقدها الأسمر مع باطن الأرض حيث استكانت لأصابعه . . وأعلنت الولاء!!

الأنفاق هي المرآة التي عكست وجه الأنظمة العربيّة من المحيط إلى الخليج . . عكست لون العتمة وملامح العجز ونظرات التّيه وارتعاش الذل على الشفاه!!

كيف حفروا الأرض بأظافرهم؟ كيف لونوا المستحيل بالممكن؟ أمشي وأتأمّل المكان المغرق في الصّمت والبرودة . . أتساءل من أين أتتني تلك القوّة لأدخل نفقًا تحت الأرض دون تردّد أو وجل وأنا التي أعاني من فوبيا الأماكن المغلقة؟ ما هذا المزيج الذي أسرني وأغراني بالدخول؟ فيه نفحة من روح الله وقبضة من طين!!

الأنفاق هي الرعشة الأخيرة بين الموت والحياة!! هي الرّوح الجديدة الملتصقة بحوافّ جسد الغزّي . . هي ميلاد جديد للإنسان وللأرض وللمقاومة . . هي ثورة وتنبيه وإرادة!!

هي الرّأس العالية وهي الخطام الذي يلتف حول الحياة لينزع منها رشفة تبقيه ولو حتّى على حوافها!!

اعتقد الاحتلال بأنّ الفريسة لن تطيق المزيد ولا حيلة لها ولا نصير . . فالجرح مع صمت القطيع كفيل بأن يجعل الفريسة تتهاوى وتخر ساقطة . . وحينما ظن الاحتلال بأنّ الفريسة قد سقطت من نهش أنيابه وأنها قاب قوسين من موت وإذ بها تستيقظ ويخرج مارد على جلده بقايا الهول والفزع ليحفر نفقًا يرتقي به من القاع الهابط إلى القمة السامقة!!

غزة أرض كالكف . . ليس فيها من تضاريس المقاومة شيء . فلا وادٍ ولا جبل ولا هضبة ولا تلة ، والأيدي العربيّة متواطئة في صنع الأغلال!!

هذه الأنفاق اختراع مسجّل للغزّيّ . . اخترعها لينتصر على ذلك الخواء والإفلاس العربيّ وليغير قواعد اللعبة ويقلب الطاولة على رأس الاحتلال .

أمشي في النفق والصّبايا أمامي يقفزن قفزًا!! ماهر أبو صبحة رئيس هيئة المعابر والحدود استضافنا في مكتبه . . وتكلّم لنا عن الأنفاق وبعث معنا بشابين لمرافقتنا في رحلتنا داخل الأنفاق .

أبو أحمد يمشي أمامنا يحكي قليلاً . . ويدير رأسه للوراء ناحيتنا حتّى يبقينا داخل المشهد . . على باب النفق آية معلقة على برواز كبير ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ . .

- يحكي أبو أحمد ونحن نمشي وراءه .. يقول :

- ما زلت أذكر ذلك اليوم الأسود الذي تحوّل فيه النفق إلى قبر . . كنّا أنا ورفاقي ننقل الحليب والعدس والسُّكّر وفجأة انقطعت الكهرباء وتدفقت مياه الصرف الصحي القذرة من الجانب المصريّ. وصار النفق مظلمًا باردًا ونتنًا ومفزعًا!! ركضنا ورفاقي باتّجاه باب النفق لنخرج . . لكنّني تذكّرت صديقي جمعة الذي كان قد توغل في الدّاخل قليلاً . رجعت وركضت باتّجاهه . . ناديته فلم يرد ، لكنّني أذكر أنّني أمسكت بيده وبعدها انقطع الشريط!! ولم أجد نفسي إلاّ في المستشفى حيثُ دخلت في غيبوبة لم أستفق منها إلاّ بعد خمسة أيام . سألت عن جمعة قالوا لي : مات!!

شيء ما صعقني نظرت إليه بدهشة وسألته :

- وما زلت تعمل في الأنفاق؟

- يَعْني شُو بِدْنا نْسَوِّيْ يَخْتي!! اليهود مْسَكْرِيْنْ علينا والعَرَبْ مْسَكْرينْ علينا والعالَمْ كلُّه مْحاصِرْنا وْإحْنا شَعْب لا فُوقُه ولا تَحْتُه . . أعزل في أرض مكشوفة . . ما إنتي شَايْفِة ما إلنا إلاّ تَحْتِ الأرضْ ، بِدْنا نْطَعمي وْلاْدْنا وِنْعيش .

أبطأتُ في سيري . . فقد صار النفق أمامي وكأنّني أصعد تلة وصارت أنفاسي تضيق . . التفت إليّ وقال : قرّبنا يخْتي ما تْخافِي!!

- قلت له : لأوّل مرّة لا أخاف . . دمي ليس أغلى من دمكم!!

أتفحص المكان جيدًا . . أضع يدي على الجدران التّرابية هنا وهناك أتلمس أسلاك الكهرباء ، ثمّ أنتقل بنظري إلى السقف الطيني الرملي . . أتأمّل الأرضيّة المرصوفة بقطع خشبية كأنّها درج حتّى يتفادى العابرون الانزلاق . . أنظر بحيرة وعجب . . أشعر بالأسئلة

تحاصرني . . أشعر بأنّ هذا الوقت المناسب لطرحها وفي نفس الوقت أقول ليس وقته!! ثمّ أتجرأ وألقي بسؤالي :

- أسمع كثيرًا عن انهيار الأنفاق ، لماذا تنهار؟

- المصريّون يقومون بضخ مياه الصرف الصحي ويستخدمون الجرافات للهدم ، وتربة غزّة رملية مفككة فتنهار بسرعة وفي بعض الأحيان يضخون الغاز فيختنق العمال . . يَخْتي ماتِ كْثيرْ مِنِ العُمّال يِمْكِنْ فوُقِ الـ ٢٥٠!!

صاحت بثينة :

- وِشْ ذي المُعاناة ، وِشْ ذَا الظلم؟

- أنا توقّعت إنّه بعد ذهاب مبارك ستكون الأمور أحسن!!

- يَخْتي مْبارك راحْ صَحْ بَسْ رْجالُهْ لِسّه موجودين ، زي الحَيّة بِتْموت وسُمها لسّه موجود!!

- يقولون إنكم ادّخلون سلاح من خلال الأنفاق ويمكن عشان كِدى يغلقون الأنفاق ويهدموها!! قالت بثينة .

- شُوفي يَخْتي . . فِشْ إِشِيْ مْخَبّى . . الأنفاق أنواع . . أنفاق جهاد وأنفاق للتجارة وأنفاق للمرضى . . شايْفِةْ هايِ الشّياطة إلي زي القُفة بْنِحْمِل فيها المرضى إلّي مِشْ قادرين على المشي!! وبَعْدين إذا دَخّلْنا سْلاح يَعْني حَرام!! إِحْنا شعب بِيْجاهِدْ ضُدْ الاحتلال وَمِنْ حَقْنا إنّه نْدافِعْ عن أنفسْنا . . ومن العار أصلاً على الأنظمة العربيّة إنّها تُوْقَفْ ضدْنا وْتِتْفَرَّجْ على شعب كامل بْيِنْذَبَحْ وِبْيِتْحاصَر!! يا عمّي بِدْهُمِّشْ يِعْطونا سْلاح بَلاش . طُزْ!! بَسْ كَمان يِمْنَعُونا نْدَخْلُهْ وَالله هذا حَرام!! عملوا جسر جوي وبحري وقت الحرب على غزّة عَشان يْجِيْبُوا سْلاح لإسرائيل!! ما حَدا حَكى!!

ما أن ألتقِط كلماته حتّى أشعر نفسي أتأرجح في الهواء بلا قرار . . أسحب أقدامي الثقيلة بسرعة حتّى ألحق برفيقاتي . .

تعاودني مرارة الأسئلة . . أخرجها من جيب لساني :

- يقولون أيضًا إن الأنفاق يخرج منها إرهابيون وأنّ الفلسطينيّين هم الذين هربوا المساجين من السجون المصريّة وهم الذين قاموا بالهجوم على الجيش المصريّ في سيناء مما أدى إلى مقتل ١٦ جنديًا!! تتلاحق إجاباته مثلما تتسارع أسئلتي المُرة :

- بالمختصر المفيد يَخْتي . . بِدّيشْ أَلِفْ وْأَدُوْر . . فِيْه جِهات داخليّة إنتِ بْتِعْرفيها ، وْجِهات خارجية أوّلْها إسرائيل بِيْهِمْها إنّه تْشَوّهْ صورة غزّة وْأهِلْ غزّة بَعد ما انتصرت على اليهود ومن مصلحة إسرائيل إنّها تْخَرّبِ العَلاقة بِيْن غزّة ومصر!!

وصلنا إلى فم النفق من الجهة الأخرى . . . إلى رفح المصريّة . . دخلنا ساحة ترابية واسعة . . بسرعة ركض الشّباب وأحضروا كراسي وعصيراً وماءً فقد نال العطش منّا كثيراً ، رحّب بنا الشّباب هناك ، وقال لنا أحدهم : إنّه العائلات الفلسطينيّة انقسمت بعد الـ٨٥ فقد . جاءت إسرائيل وقسمت العائلات الفلسطينيّة فصارت نفس العائلة نُصْها بْمَصِرْ وِالنُّصْ الثّاني في غزّة مِثْل عائلة قِشْطة وَبَرهوم وزُعرُب والشاعر .

في منتصف الساحة كان هناك شابّ فلسطينيّ يجلس على كرسيّ صغير معصوب العين اليمنى . فهمنا أنّه قادم من مصر بعد أن أكمل علاجه و ينتظر السّماح له بالدخول .

- سألنا أبو أحمد (شو قِصْتُه) ولماذا لا يدخل فورًا من النفق ، أو لماذا لا يدخل من المعبر الرسمي؟

- قال : كلّ شخص يريد أن يعبر عن طريق النفق يجب أن يكون

معه ورقة عبور وأخرج ورقة من جيبه مكتوب عليها ورقة عبور . لا أحد يستطيع أن يدخل غزّة أو يخرج منها دون موافقة الأجهزة الأمنية في غزّة!!

تأملت ورقة العبور . . مكتوب فيها كلّ المعلومات التي تخص المسافر . .

قال أبو أحمد :

- نأخذ كلّ المعلومات نفحصه . . نسأل عنه . . ما عنده مشاكل أمنيةِ بنْدَخْلهُ حتّى نحافظ على أمن المصريّين . مِشْ عامْلينِ إشِي ونازْلين فينا اتهامات . ما بِدْنا مَشاكلْ . . بِيْكَفِّينا إليّ عنا!!

شربنا العصير والماء ثمّ رجعنا إلى فم النفق لنعود إلى غزّة . حاولت إلهام التصوير لكنهم منعوها من ذلك لدواعٍ أمنية . . عدنا بسرعة وكأننا على أجنحة الطير . . خرجنا من النفق . . شهقتُ غير مصدقة عيني وهي ترى النّور مرّة أخرى!!

ها نحن نترك الأنفاق . . ها أنا أجمع رملاً من نفق كان يحفره الشّباب للجهاد . . أجمعه في كيس صغير حتّى يكون هديتي إلى أبي وأطفالي وصديقاتي في عمّان . . علنا نحط أوزارًا من الأثقال التي أرهقتنا . . علّ هذه الذرات تمسح ما علق في قلوبنا من تيه ونكوص!!

العيد
هو ٢

اليوم هو أوّل أيّام عيد الأضحى المبارك ، كم كان قاسيًا عليَّ أن أحتمل فكرة خواء الزّنزانة في يوم كهذا!! كم كان مؤلًما أن يرقص خصر العيد فيما أنا أتلوى مذبوحًا من العزلة والوحشة في القبر الافتراضي . . في هذه اللحظة بالذّات أنا لا أحلم بالحرية!! بل أحلم بالعودة فقط إلى إخواني الأسرى في الزّنزانة الجماعية ، أن أشاركهم معاناتهم . . فقد أدهشني أن أعي في هذه اللحظة (أن المعاناة تصبح متعة بالصحبة) والجرح يصبح محتملاً عندما يكون مقسمًا قسمة عادلة ، وقديمًا قالوا (الجنة بدون ناس ما بْتِنْداس) فكيف إذا كانت زنزانة معتمة قذرة مقفلة بإحكام بباب حديدي سميك والشّمس تلوح بيدها عن بعد ولا تستطيع أن تصافحني!!

ذات عيد كانت تبعثرني الأحاسيس المزدحمة المتشابكة وتلملمني دمعة تفك حصار الروح .

على مرمى النزف . . لم أسمع تكبيرات العيد ، لم أقف بعد انتهاء الصلاة في الزّنزانة الجماعية بجانب أكبرهم سنًا ويبدأ باقي المعتقلين بمصافحته وتقبيله حتّى ينتهي آخر معتقل من المصافحة فتكون حينها قد اكتملت الدائرة الحبيبة الكبيرة!!

يومها كم ظمئت شفتاي لأنشودة العيد السّجين والتي كانت تشبه قوس قزح . . كانت هذه الأنشودة محج المعتقلين وصداها كان ألسنة

لهب ، تحرق وتبث الرعب في نفوس السّجّانين ، لكنّها تبث الدفء في الشفاه المزرقة بردًا وشوقًا!! حينها انشقت الأنشودة عنوة وأخذت أغني :

كُلْ عامْ وانْتُو بْخيْرْ يا اهْلِ الضّفّة الغَرْبِيّة
مَهْما الْغُرْبِةْ بِتطَوّلْ بُكْرَةْ تْطُلّ الحُرِّيّة

ذات عيد لم أشمّ رائحة القهوة السادة ، لم أقبّل يد أمّي المدهونة بزيت الزّيتون وهي تخبز لنا صباحًا ، لم أسمع يا بابا بدنا منك عيدية ، لم أشترِ لآخر العنقود حذاء (وبُكْلة(*) حمراء) كما كانت تحلم ، لم أهز غيمة عمري البكر على أرجوحته ، لم أنقش الحنّاء على يد زوجتي ، لم أضم أحدًا ولم يضمني أحد ، لم أتعبد في محراب الأخوات والأرحام ، لم تتعال أصواتهن بالدعاء . يمر العيد على سجين القبر الافتراضي موشى بالتلهف . . والتيمم هكذا على ألم .

هو (١)

يخيفني العيد!! يعود إلي محملاً بمشاهد لا أقوى على احتمالها ، في كلّ مرّة يأتي . . يربكني ولا أستطيع أن أضع عيني في عينه مباشرة . . الدّمع الأحمر يجفّف عيني فلا أستطيع أن أفتحهما . . الإنهاك يبعثر جسدي . . أبحث عن صوتي فلا أجده!!

خبر مجيء العيد كان يجعل قلبي وعقلي وسائر محطات جسدي تغرق في حالة من الجمود والكآبة . . أتخيّل نفسي مقيّداً بقيود متينة تحز جلدي وتختلط بدمي . أظلّ طوال اليوم أركل قسوة القضبان التي يقبع خلفها أخي أبو رجا ، أمسح شفتيّ مما علق بهما من آثار قبلة طويلة وعميقة طبعتها على كف أمّي ورأسها . أُدير وجهي بعيدًا عن

(*) بكلة : ما يوضع على الشعر لربطه .

دمعة ترقرقت في عين أختيّ عائشة ووجيهة ففي هذا الصّباح المُرٍّ لن يطرق بابهما أحد!! فأنا وعبدالله منفيان وأبو رجا في السّجن .

أصُمُّ أذُنيَّ عن صوت خيل غاضبة تقف مربوطة بجانب بئر بيتنا وقد أنهكها الصهيل!! لكنّ هذا العيد الذي يمر علينا اليوم ليس عيدًا ربانيًا . . إنّه عيد شيطانيّ!! أتقلب في هذا العيد على الأرض المحمومة ذاتها مع اختلاف وجه السّجّان . . عيدنا هو يوم ٧ إبريل!!

بعد سنوات قليلة من وجودي في ليبيا صرتُ مكبلاً من الخارج مخنوقًا من الدّاخل وتعاظم شعور المنفى في صدري!!

يطلع جاري البشتي طالب كلية الهندسة ـ سنة ثالثة . يخرج من بيته يصلني صوته وهو يرد بارتعاش واضح :

اِطْلَعْ يا خَفّاشِ اللّيْلْ . . . . جاكِ السّابع مِنْ إبْرِيْل

أسمع صوته واضحًا . . فأنا جالس في المربوعة(١) المطلة على باب بيتهم ، أتلقفه قبل أن يهيم على وجهه ، أُجلسه بجانبي يغطي وجهه بكفه وشفتاه ترتعشان بكلام حارق :

- سأترك الجامعة!!

- أتساءل بدهشة . . ولماذا تتركها؟

- لأنّي لا أملك سوى الصّمت والهرب!!

- لا فائدة من الهرب . . إن كنت تملك ذاكرة مشتعلة!!

ينتفض في مقعده ويعاود الحديث بكثير من المرارة قابضًا على جمرة تحاول التوهّج :

- تعرفني خوي عبّاس . . أنا طالب ما نِفْهَمِشْ بِالسّياسِةْ وْما نِهْتَمِّشْ فيها .

---

(١) المربوعة - غرفة الضيوف .

أنظر إليه باستغراب ويكمل :

- كنت أنتظر ورفاقي الطّلبة افتتاح المهرجان الرّياضيّ الفني الذي تقيمه الجامعة . كلّ ما كان يشغل بالي في تلك اللحظة هو كيف أَلفِتُ نظر طالبات الجامعة بحسن أدائي الرّياضيّ وأن أحقّق الفوز لفريق كليتي ، لم تكن طالبات الجامعة فقط في انتظاري بل وطالبات الثانويّة اللواتي تمّ إحضارهن للمشاركة في الاحتفالات .

بدأت الأهازيج تعلو وعمت الزغاريد كلّ المدرجات ، وقبل أن نبدأ رسميًا بالاحتفال وفي ذروة استعداداتي وفرحي ومع ازدياد أعداد القادمين إلى ساحة كلية الهندسة حتّى صاروا بالآلاف دخلت مجموعة من الرجال نصبوا مشنقة خشبية لم أُلق لها بالاً . اعتقدت في بادئ الأمر أنّها مشنقة شكلية لإعدام رمزيّ ، لست وحدي الذي لم أكترث فكلّ الطالبات والطلاب كانوا على شاكلتي ، محفوفين بالفرح والانطلاق . . الكلّ ينتظر بدء الاحتفال وفجأة حضرت عدّة سيارات مدنيّة وعسكرية وتمّ إنزال شابين أكبر منّا بقليل ، يبدو أنهما لم يمض على تخرجهما سوى بضع سنوات . أنزلوهما من السيّارة مقيّدين وسلموهما إلى مجموعة من طلاب الثّورة كما كانوا يسمّون أنفسهم ، وتمّ تعليق الشابين على المشنقة وسط ذهول الجميع في مشهد علت فيه أصوات الطالبات والطلاب . . انهيارات عصبية ، سقوط أعياه الصّمت ، انكسارات لكنّها صلبة ، خوف يلونه الانتقام ، ارتجاف يحمل غضبًا ، ضعف يمطر نارًا . العجيب في الأمر ونحن في ذروة المشهد كان هناك من يسجل الدمعة والصرخة والسقوط والتأثر البادي على الجمع لنتفاجأ في اليوم التّالي بتحقيقات واسعة شملت الكلّ جزاء على تعاطفنا مع الشابين ، مع توقيع تعهدات على عدم تكرار

الأمر ، وبعض الطّلبة تمّ فصلهم تمامًا من الجامعة ، والبعض الآخر فُصل لمدّة سنة دراسية كاملة عقاباً على فعلته النكراء!!

الشابان كانا أحد الطلاب الذين فازوا بانتخابات اتحاد الطّلبة ، الأمر الذي رفضه العقيد المهرِّج . فأعدمهما وأبقى جسديهما معلقين في الجامعة حتّى المساء تحت رقابة مشددة ، وأصرّ المهرج أن يعيد علينا المشهد مرّة أخرى فبث التلفاز مشهد الإعدام مساء!! أظنك رأيت المشهد بأم عينك؟

هززتُ رأسي بيأس .

ولأنّي أحمل ذاكرة مشتعلة كما قلت خوي عبّاس بقي المشهد متأججًا في رأسي يعاودني صباح مساء لم أستطع التخلص منه لكنّ المصيبة ليست هنا!! لم أكن أعرف أن الطاغية سيتخذ من المذبحة عيدًا سنويًا . . يصفي فيه عددًا من الخونة والإرهابيين والعملاء مع الغرب والجرذان كما كان يسميهم!!

اليوم أخي فعلها الطاغية مرّة أخرى في نفس التاريخ!! لقد أعدم ثلاثة من الطلاب أمام أعيننا . ما عدت أحتمل . . ما عدت أحتمل .

ينتابني قلق عميق وتضربني مشاعر متناقضة . . ماذا أفعل . . أين أذهب . . أفكّر في منفاي فيما البشيتي يتابع حديثه ويروي وقائع سمعتها . . قرأت عنها . . لكني لم أرها بأم عيني!!

القذافي أعياه الرّأي الآخر . . لم يحتمل أن يستعمل طلاب الجامعة حقهم في انتخاب ممثليهم في الاتحاد لم يحتمل رفضهم لتدخل الدولة في الشؤون الطلابية وإصرارهم على اختيار من يمثّلهم وتمسكهم بمن اختاروا!! . رفضوا أن تتحكم بهم اللجان الثورية التي عينها القذافي ، والتي كانت تتحكم في قبولات الطّلبة ، وفي تعيين

الأساتذة، وفي الفصل من الدّراسة والوظيفة. يوظفون من يريدون ويفصلون من يريدون بحجة المحافظة على الجامعة والثّورة نقية من الطلاب الرجعيين الإرهابيين المرتبطين بأجندات خارجية!!

رفض القذافي نتائج الانتخابات والآلية التي تمت بها بشكل قطعي، وكان رفضه بلون الدم. لكنّ الطلاب كونوا رابطة مستقلة بالكامل عن اللجان الثورية وعن اتحاد الطّلبة الحكومي وأصروا على التمسك بحقوقهم المشروعة.. حينها بدأت الحرب الحقيقية بين الطلاب والنظام، وتحوّلت هذه الحرب إلى عيد سنوي تعطل فيه كلّ أجهزة الدولة ليبقوا متسمرين أمام شاشات التلفاز ويشهدوا إعدامات الطّلبة والمخربين!!

اليوم ٩ إبريل بعد يومين من العيد السنوي الذي لم أذهب فيه إلى الاحتفالات ككلّ سنة، جاء القذافي إلى الجامعة ليسمعنا سيمفونيته النشاز عن النظرية العالمية الثالثة، وعندما وصل إلى نهاية خطابه التهريجي الذي لفه بابتسامات بلاستيكية قال:

– عندما كنت أتحدّث كان أغلبكم نائمًا أو يتثاءب.. لذا ستُمتحنون فيما قلت ومن لا ينجح لن ينتقل للعام القادم.. طبعًا ضحكنا وظننا أن الأمر مجرّد قفشة ومسخرة من مساخره!!

اليوم ١٠ إبريل تفاجأت عندما دخلت الجامعة بإعلان اللجان الثورية عن موعد للامتحان في خطاب القذافي الذي سمعناه بالأمس.. ذلك الخطاب المشوش الهستيري.. الممزّق!! وتفاجأنا بأنّ الكتاب الأخضر سيصبح مادة دراسية مقرّرة!!

قلت للبشيتي:

– مع كلّ ذلك لا أنصحك بالهروب لا بدّ من المواجهة..!!

أنا أراقبه كلّ يوم من على شاشة التلفاز . . لا أُضَيِّعُ له خطابًا . . أقفُ أمامه أحلل شخصيته . . إنّه يسير على خطى المهرِّج . . يلوّن نفسه بألف لون ويلعب على مئة حبل . . يحتال على الفكر ويشيع الخوف والرعب .

لكنّني أتساءل؟

– ترى كيف ينتفخ الطاغية حتّى يطير ويطير ويحسب نفسه إلهًا في السّماء؟

– هل ينفخه صمت البركان؟

– أم ظمأ العطشان الجاثي على ركبتيه قرب الماء حالمًا بالارتواء؟

– تعرف يالبشتي أن قامة القذافي انتصبت بجثوكم!! نعم لا تنظر إليّ هكذا!! لقد ارتفعت عقيرته بصمتكم وأعجبه صمَم آذانكم عن سماع الصهيل!!

ترون كلّ شيء وتصمتون . . تهربون . .

المرأة الحافية التي تضع حذاءها تحت إبطها وتمشي خوفًا عليه من أن يهترئ تقص الحكاية كاملة!!

سفك الدماء . . سفك الآراء . . البترول المهرب . . المشاريع الوهمية لصناعة الصواريخ . . المعسكرات الممتلئة بالأسلحة الصدئة . . الطّائرات الحربية المفككة على مدارج الطائرات . . القطع الحربية المهترئة بينما الوثائق والمستندات تقول غير ذلك . . مكاتب المشتريات تشتري وتستورد قطع الغيار!! كلّ ذلك يُحتم عليك ألاّ تهرب وتترك كلّ ذلك وراء ظهرك .

يخرج البشتي وفي قلبه سلاح لن يُقهر!!

بين العنب والحصرم
هو ٢

في السّجن لا تتعرّف على ذاتك فقط ، بل تصبح قادرًا على اكتشاف الآخرين ، اكتشاف المبهم فيهم ، تكتشف ألوانهم . . أمزجتهم . . أخلاقهم . . وحقول الخضرة واليباس ، تكتشف الليِّن (وأبو راس ناشف) ، تمتلك أدوات وتجتاز مساقات ما كنت تحلم أن تجتازها . . لولاه . . . السّجن!!

تتعود أن يكون لديك حفنة صبر . . حتّى تميز بين العنب والحصرم وبين اللينة والرطب . . بين الشّجرة التي تثمر والتي حلال قطعها!!

العين أهم أدوات معرفة الشخصية التي تمثل أمامك . خارج السّجن نحن نمثل على الدوام . . نمثل الهدوء . . الوقار . . تَحمُّل المسؤوليّة . . معاونة الآخرين . . نَتَهَنْدَم . . نتأنق . . نجامل . . نتودد . .

في السّجن نمثل يومًا . . يومين . . عشرة . . ثمّ لا بدّ أن تنكشف الغلالة وتتفتح المسام على عرق بلون أسود . . أو أبيض أو رمادي وما استعصى على العين تلتقطه الأذن فتستطيع فكّ الشيفرة الإنسانيّة العجيبة خلال ثوان . . شيفرة الكذاب ، المنافق والمرائي والجبان والبخيل والخائن!!

حتّى إجابتنا في السّجن تختلف عنها خارجه ، مع أن السؤال واحد . في السّجن إجاباتنا حقيقية . . واضحة وسويّة وبسيطة . .

خارج السّجن تكون الإجابات مصطنعة . . مزوّقة . . تخرج بعد صراع عنيف مع النفس .

بعد أيّام قليلة وعندما نبدأ بالانكشاف لبعضنا البعض وتجلو نهارات السّجن أوساخ ليلنا ، وعندما نأكل من تفاحة السّجن الوهمية لا بدّ أن تظهر السوءة ونسرع لنخصف علينا من ورق السّجن .

الكذاب يكذب مرة . . مرتين ثمّ يستسلم «على إيْشْ بِدّو يِكْذِبْ وْلَشُو» تنكشف سوءته رويدًا . . رويدًا ، يتوب حتّى قبل أن يخرج من جنته كأبيه آدم . والجبان والنهم والمتكبر والمتقلب المزاج والنكد والذي يجعط والعصبي . . السّجن يفتح بابهم على مصراعيه فيبدؤون يُدارون أنفسهم ويلملمون ذواتهم .

السّجن يكشف لنا ذاتنا فنرى أشياء لم نكن نراها من قبل ونحس بأمور ما كانت لتخطر على بالنا ، ويتكوّن جنين أقوى من ذاتنا الحقيقية . . ثمّ لا يلبث حتّى يولد بين أيدينا . . نتأمّل ملامحه التي تشبهنا وننبهر به ولا نصدق أننا كنّا نحمل هكذا جنينًا تلقَّحَ على حين غفلة من السّجّان!!

وفي السّجن تعلو قيمة الأشياء التافهة والبسيطة أو التي كنّا نظنها هكذا . . حفيف الثياب المنشورة ، فتح الباب باليد . . المشي على التّراب . . النّظر في الأفق بلا جدران تطبق على أنفاسك وتجعلك تتضاءل وتتضاءل . . . . . تلبس ما تريد ، وقتَ ما تريد بدلة . . . بيجامة بأيّ لون وبأي موديل . . أن تصحو متى تريد وتنام متى تشاء . . أن تأكل ما تشتهي وأن وأن وأن . . . . . .

في السّجن لا مكان للاشتهاء ولا للنضارة ولا للحركة فكلّ شيء آسِن ذو رائحة كريهة تشبه رائحة مياه المجاري التي تسير تحت أغطيتنا!!

السّجن يسقي بذورًا نائمة ونوازع وميولاً وقناعات كان يمكن أن نموت دون أن نتعرّف عليها أو نلمسها في أنفسنا فلم أكن أعرف أنّي أمتلك قوّة تجاه الألم!!

تعلّمت في السّجن أن أرفع رأسي ولا أنحني أمام الألم . . تعلّمت أن أحترمه . . أوقره وأتعلم أبجدياته فلقد وسّع الألم ذاتي فكلما اشتدت ريح الألم . . أشتم ريح يوسف!!

الألم في السّجن يمنحنا قوّة فوق قوتنا فبالألم تصبح أقوى من الجلاد تصبح حرًا بعد أن كنت عبدًا لذاتك التي تحبّ اللذة والراحة والرفاهية . . الألم يعيد تشكيلنا بشكل متماسك واثق مرتبط بنافذة الله يجعل (راسَكْ بْراسِ الجْلاّد) نِدًا له بل وأقوى منه!!

هذه المرة ألم الأسنان . . عندما كنت عبدًا ، أقصد عندما كنت خارج السّجن لم أكن لأتحمّل حتّى الرشح لكنّني هنا وبعد مرور ستين يومًا على الألم المتواصل صرت حرًا!! أطوي الغرفة ذهابًا وإيابًا . . أغلق فمي كي لا ينشق عن آهة مكتومة تجرح رفاقي وتحزنهم علي . أراود الألم ويراودني . . أراوده كي أغفو قليلاً على حد الحلم ، لكنّ شظايا وجعي أصابت رفاقي النائمين وبدؤوا بالاستيقاظ واحدًا تلو الآخر فانثال الصّبر على روحي!!

شهران وأنا أتعلم في صف الألم . . أتلوى حينًا . أُلملم فتاتي حينًا آخر . . الألم يذكّرني بأنّ لي جسدًا ففي السّجن تحاول أن تسحق جسدك وتنعتق فيه كي لا يقدم تنازلات ولا تسويات . . كي تتحرّر!!

الألم يعيدني إلى جسدي وعندما أعود إليه برهة أتوق للعودة إلى الرّوح السامقة . . في كلّ ليلة ينادي رفاقي على السّجّان يخبرونه بآلامي التي أروضها . . يراودني الألم فأستعصم فيقُدُّني من دبر ويكون

دليلاً على براءتي وجريمته!!

يشتعل جوفي سعيرًا ، وفي كلّ ليلة يعدني السّجّان بأن يوصل الأمر إلى إدارة السّجن ، والتي بدورها ستوصلني بالطبيب ، ولكن بلا جدوى!!

قاب قوسين أو أدنى صرت من الطبيب ، فقد قدمت طلبًا رسميًا لإدارة السّجن حتّى يتم عرضي على طبيب الأسنان ، وبت أتحرق شوقًا للخلاص .

تجهزتُ للموعد المرتقب والذي جاء بعد أسبوعين فقدت فيهما ما يزيد على عشرة كيلو جرامات . . اقتادني السّجّان في اليوم المحدد . . ركبت البوسطة ، يداي مقيّدتان إلى الخلف . . العصبة على عيني حتّى لا أرى النّور أبدًا . . أقدامي مكبلة بالجنازير والبوسطة مليئة بالسّجناء المرضى فهذا يُراجع ما في بطنه وذاك يتلوى ألمًا .

أصل إلى المستشفى . . أجلس على الكرسيّ الخاصّ وجسدي ينتفض في باحة الألم حتّى استوى على سوقه!! يلقي الطبيب نظرة سريعة ولا مبالية على أسناني التي تستعر . . أشهق وهو يتناول من الطاولة المخصصة آلة حادّة تشبه الكماشة ، ويقول لي بكل غلظة :

- سنبدأ العمل . . افتح فمك .

- ماذا تريد أن تفعل؟

- سأخلع كلّ أسنانك . . لا فائدة كلها نخرها السوس!

أقول وقد غدوت ريشة تبغي الوصال مع حبر اللثة :

- ألا يوجد بديل؟ حشو . . تنظيف . . سحب عصب . . تركيب جسر . . معالجة اللثة . . أيّ علاج آخر غير الخلع .

- نحن هنا لكي نخلع فقط . . إمّا أن تخلع أسنانك وإمّا أن تقوم

فورًا فلا وقت لدي . وإيّاك أن تطلب الطبيب مرّة أخرى . أشار بطرف عينه على السّجّان كي يأتي ويجرني خارج الغرفة .

أصمت . . أقف . . أسعل . . أفكّر ثمّ أقول له . . اخلع وجعي وخلصني من هذا العذاب!!

استسلمت لعمليّة الخلع والتي كانت تتمّ بدون بنج ولا مسكنات . . كنت أهوّن على نفسي وأقول وجع ساعة ولا وجع كلّ ساعة . . الخلع كان يتم على دفعات . . كلّ أربع أو خمس أسنان في جلسة واحدة . . بعد الانتهاء من عمليّة الخلع تكون قمة الرحمة حبّات الأكاموال والتي كنت أبتلع كلّ أربع حبّات منها دفعة واحدة . . وهكذا دخلت السّجن بـ٣٢ سِنًا وها أنا اليوم بدون أسنان ألبتة . . أنتظر تركيب طقم الأسنان منذ ما يزيد على الثلاثة أشهر في هذه الأثناء أفقد عشرة كيلو أخرى من وزني . . تنغرس الأشواك في رأسي فأتكئ على رائعة ربي : ﴿ربِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ .

**

في السّجن لا تكلُّف ولا تصنُّع فكلنا ننام في نفس الغرفة ، نرى بعضنا في كلّ الهيئات ، الشعر المجعلك ، الأعين المنتفخة ، الروائح على اختلاف أنواعها وأماكنها ، كلّ شيء يتكشف ، حتّى الخائن ينكشف في المكان الأكثر إكرامًا والأكثر رفعة!!

حُشِرتُ بعد تحقيق استمرّ ٧٠ يومًا في زنزانة انفراديّة بعيدًا عن رفاقي الذين كانوا معي في مراحل التّعذيب والتّحقيق . . زنزانة لا أعرف فيها الصّباح من المساء لا أرى فيها شمسًا ولا قمراً!! بعد هذه الخلوة التي استمرّت أسبوعًا كاملاً سُمح لي بلقاء مندوب الصليب

الأحمر، وهذا دلالة على أن التّحقيق قد انتهى أو قد شارف على الانتهاء فاستبشرت خيرًا وقلت هانت يا «أبو رجا»!!

ما إن انتهت مقابلتي لمندوب الصليب الأحمر حتّى تمّ اقتيادي مرّة أخرى مكبل اليدين معصوب العينين وزجي في زنزانة قذرة ضيّقة تفوح منها رائحة كريهة منتنة . تأملت الزّنزانة جيّداً بعد رفع العصبة عن عيني . . لأرى شابًا صغير السن . . تفوح منه رائحة الخراء المختلطة بالعرق والبول . . ثيابه قذرة جدًا . . شعره طويل متسخ متشابك وملتصق من شدة اتّساخه . . لحيته كثيفة . . وكان يظهر عليه آثار التّعذيب والسهر والتّحقيق . حاولت أن أتحدّث إليه لكنّه أشعرني بعدم قدرته على الحديث مع أيّ شخص لأنّ فترة التّحقيق الماضية قد أرهقته كثيرًا وأتعبته ويحتاج للنوم . . للنوم فقط!!

تركته ينام وأنا أقف أنظر إليه . . فالغرفة ضيّقة جدّاً ولا تتسع لي وله لأجلس أو حتّى أقرفص لا بدّ أن يصحو حتّى أستطيع النّوم فلا مجال للنوم إلاّ بالتناوب!!

عندما صحا من نومه وجاء دوري لأنام وكانت رائحتي لا تطاق أيضًا . . فجسدي مضى عليه ثمانون يومًا بلا استحمام . . كنت جائعًا جدّاً ففترة التّحقيق كانت بلا طعام إلاّ ما يُبقي على قيد الحياة . . فجأة وأنا أحاول أن أهدهد عيني لتغفو على حين غفلة من معدتي التي تُصَوْصو . . يُفتح باب الزّنزانة ومن بعيد وكأننا حشرات قذرة يرش الضابط الزّنزانة بالمبيد الحشري نفَرْفِط كالخرفان المذبوحة . . يرشوننا بالماء البارد كي نصحو!!

استدار نحوي الشّابّ المحشور وقال وهو يصرخ بيأس :

– أنا سأعترف لأنقذ نفسي . . ما عدت أطيق . . أشعر بجلدي

يتفسّخ وروحي تهوي في قعر سحيق . . جلدة رأسي يأكلها القمل . . أنا أموت ببطء . . لن أتحمّل المزيد!!

قلت له ببرود لا أدري من أين اقتنصتُه :

- بِدّكْ تِعْتَفْ . . اعْتَرِفْ . أنا ما عندي شيء أعترف عليه وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتّى انهال علي ركلاً وضربًا وشتمًا!!

- إنت أصلاً واحد وسخ بتتحمل الوساخة . . إنت حشرة قذرة بتستاهل يرشوك بالمبيد . توقف عن اللكمات والضربات . . تكوم على نفسه ككرة وبدأ يجهش ببكاء مرير وأنا أحملق فيه بدهشة عقدت لساني!!

أمسح بيدي على رأسه . . أجفّف دمعه بلمسات من أصابعي المتقيحة . . أغض الطرف عن الرائحة الكريهة التي تنبعث من جسده . . أشعر بأنّه أخي الذي لم تلده أمي!!

أسأله في لحظة حُنوّ :

- كيف صرت؟

يُبعد أصابعي عن خديه . . يبتعد عنّي متعللاً برائحته الكريهة . . لكنّ أصابعي المتقيحة التي مسحت دمعته شجعته على الكلام .

- قال : أنا آسف . . ولكنك عندما تكون مناضلاً . . وقمت بعشرات العمليات . . خططت ودبرت ونفذت ثمّ فجأة تسقط في هذه القذارة وفي هذا العذاب فلا بدّ أن تنهار . أقصد في بعض اللحظات قد تعتريك مشاعر الضعف!!

تلتمع عيناي ببطء وأشعر بارتياح لكلام هذا الشابّ ومع ذلك أشعر بأنّه ارتياح طارئ . . منهك ولا أعرف لماذا!! ارتياح قلق مشوب بالحذر!!

أعتدل في جِلستي . . بينما هو يقف . . أطلب منه أن يحدّثني عن نفسه أكثر وأكثر . .

ينطلق في حديثه وقد تحرّر قليلاً من نوبة غضبه ومن قذارة جسده . . يحكي وبِلا توقف . . أضمه إلى صدري . . أقبله متناسيًا ما علق به من قذارة ورائحة لا تطاق!! انفعلت وهممت أن أتحدّث عن بطولاتي والعمليات التي قمت بها وعندما صارت الكلمات على طرف لساني سحبها نداء داخلي . . . إياك!! فقد يكون أبا رغال!!

– أنا موسى جمعه حسن . . الناجي الوحيد من عمليّة سافوي!!

– هل تسخر مني . . هل تتسلى بي؟ هل أنت مجنون . .؟ فندق سافوي ما غيره . . معقل مناحيم بيغن . أضخم وأكبر عمليّة : أنتَ قمت بها!! أنا سمعت عنها الكثير . . وفي الصحف قرأت عنها وعن أبطالها ، لكن أن أسمع من البطل نفسه هذاغير معقول!!

ابتسم ابتسامة من تلقف حقيبة ضائعة تحوي تحويشة عمره!!

بدأ حديثه بكثير من الزّهو والانتشاء!!

ألوذ بصمتي . . فلا أريد أن أُضيّع ولا كلمة .

– أنزلنا زوارقنا من السفينة التي كان قبطانها مصرياً على بعد ٦٠ ميلاً من تلّ أبيب . ركبنا الزوارق باتّجاه تلّ أبيب وكان هدفنا البديل سافوي . فندق سافوي ، مقر قيادة عصابة الأركون بقيادة الإرهابي مناحيم بيغن . طبعًا سافوي لم يكن هدفنا الأول . لا أريد أن أطيل عليك .

المهم وصلنا الفندق فوجدنا بابه مغلقًا فأطلقنا قذيفة «انيرغا» لتحطيم الباب وبعدها توزعنا واقتحمنا كلّ طوابق الفندق وجمعنا من فيه وأخذناهم رهائن للطابق الأرضي وكنّا قد قرّرنا مغادرة الفندق .

أنتفِض على الأرض الملساء وأقول بلهفة :

- وبعد ذلك؟

- ونحن في طريقنا للخروج وجدنا جنود العدو قد تجمعوا عند مدخل الفندق وحوله وبدأوا في إطلاق النّار ، وفي أقل من عشر دقائق كانت دبابات العدو وآلياته تحاصر الفندق . حينها نقلنا الرهائن للطابق الثالث وتوزعت المجموعة على الطوابق .

طبعًا . . بقينا نراقب الوضع في الخارج وعرفنا أن هناك محاولات لاقتحام الفندق . . أطفأنا الأضواء وبدأت المعركة . .

ضربتُ كفًا بِكَفٍّ دون أن أقاطعه أو أعلق .

- وبدأت دبابات العدو تقصف الفندق من الجهات الأربعة وحاول العدو اقتحام الفندق لكنهم فشلوا لأنّ مدافعنا الرشاشة وقنابلنا اليدوية وقاذفات اللهب . . أفشلت كلّ المحاولات . استشهد خلال المعركة الملازم خضر وأُصيب نايف الصغير إصابة كانت صعبة وبليغة .

فجأة توقف الصهاينة عن إطلاق النّار وطلبوا منّا عبر مكبرات الصّوت البدء بالمفاوضات فطلبنا إطلاق عشرة من الأسرى يرسلونهم بواسطة طائرة تابعة للأمم المتحدة إلى دمشق أو القاهرة ، وبعد أن يصلوا نتلقى إشارة بذلك من قيادتنا بالراديو وتبدأ مفاوضات جديدة بوساطة سفير فرنسا والفاتيكان وممثلي الصليب الأحمر لتأمين خروجنا .

أكزُّ على شفتي السفلى بأسناني العليا وأردّد :

- الله أكبر . . الله أكبر

-ولأنّي خبير متفجّرات بدأت بإعداد العبوات الناسفة وقمت وزملائي السّبعة بزرعها في أنحاء الفندق وجمّعت الرهائن في الزوايا وجلس نايف الصغير قرب الرهائن وبيده الأسلاك وأمامه البطارية

استعداداً لتفجير العبوات وطلبت منه ألاّ يقوم بالتفجير قبل أن يسمع الإشارة مني .

– وماذا كانت الإشارة؟

– عاشت فلسطين . . عاشت الثّورة . . الله أكبر .

شعرتُ من كلام المسؤوليّن الصهاينة بالمماطلة ومحاولة كسب الوقت ؛ لأنهم تحججوا بتأخّر السفير الفرنسي . . فطلبت إحضار جسد الشهيد خضر . قَبَّلْناه واحداً واحداً وجلسنا حوله ، قرأنا الفاتحة ، وفجأة سمعنا صوت ضجة كبيرة حول الفندق . نظرنا من النّوافذ فإذ بسيارات مليئة بالجنود والدبابات اقتربت من الفندق . . فعرفنا أنّها عمليّة اقتحام وأنّه حانت ساعة الصفر .

طبعًا لم أعطِ إشارة التفجير حتّى رأيت بأم عيني جنود الاحتلال وهم يدخلون الطابق الأوّل وبدؤوا بالاقتحام فعلاً حينها اتجهت للداخل وأنا أصرخ :

– عاشت فلسطين . . عاشت الثّورة . . الله أكبر . بعدها بلحظات انفجر كلّ شيء بالفندق ولم أصحُ إلا والشّمس تملأ المكان . نظرت حولي . . رأيتُ أجساد إخوتي وأصحابي وأشلاءَهم فعرفتُ أنّهم استشهدوا جميعًا وأني أنا الباقي الوحيد على قيد الحياة . .!!

لحظات مضت وأنا شارد بأفكاري وإذ . . أصوات بالعبري تطرق أذني ، رأيتُ اثنين من جنود العدو يشقون طريقهم عبر الأنقاض . انتظرت حتّى صاروا في مرمى بندقيتي وأطلقت عليهم النّار لكنّ جراحي لم تسعفني لأكمل . . وصار الجنود يركضون باتّجاهي حتّى أمسكوا بي أمام مئات المتفرجين .

في هذه اللحظة إخال نفسي معه . . لحظات متمرّدة . . بطيئة . .

مشتعلة . . تعلو إلى السفح . . السفح يزهو بتربته الخصبة . . أشعُرُني نبتة تنمو فجأة هناك ، يكون لها سيقان طويلة تلتف حول أعناق الصهاينة ثمّ تلقيهم إلى القيعان الغائرة!!

ها أنا أنظر إليه الآن وأنا أستعيد تفاصيل أيّام خلت كنّا في زنزانة واحدة . .

ينادي عليّ المسؤول الأمني في السّجن يقول :

تعال اقرأ اعترافات سمير راضي . . عميل جديد!!

أُمسك الورقة . .

أنا سمير راضي ، اسمي المستعار (موسى جمعة حسن) . . كنتُ أدرس في بيروت وأبي مغترب في ألمانيا . . فقدت حق إقامتي في البلاد «لمّ الشّمل» أمّي كانت على علاقة جنسية مع المختار واستطاع اليهود أن يضبطوا هذه العلاقة وهددوها بالفضيحة إن هي لم تنجح في ضمي إلى صفوف العملاء . طلبوا منها أن تخبرني بضرورة انضمامي إلى صفوف الثّورة في بيروت حتّى أكون قريبًا منهم أرصد تحركاتهم وحواراتهم وخططهم وأنفاسهم وأسجل أسماء من انضم منهم إليهم وأرسل كلّ ذلك بتقارير عبر المختار وأمي!!

وعندما عُدت إلى قريتي ولحاجتي الماسة إلى المال وأن يكون معي(لَمّ شمل) وافقت أن أنضم إلى صفوف العملاء في السجون . . أسجل اعترافات من لم يعترف في غرف التّحقيق . . أسحب ألسنتهم بما لم يبوحوا به تحت التّعذيب . أفتن بين رجال المقاومة من كافة الفصائل الفلسطينيّة . أُشعل النّار بينهم . . إلاّ أبو رجا هو الرّجل الوحيد الذي لم أقدر عليه!!

نظرتُ إليه كان واهنًا . . مصفرًا . . سوس العمالة قد نخر وجهه

الجميل . . عاري لا يجد ما يستر به ذنبه . . تفوح منه ذات الرائحة التي شممتها قبل سنوات . . جلس متربعًا . . مطأطئ الرّأس . . ينتظر الحكم عليه بعد عمليّة التّحقيق الوحيدة والتي كتب فيها سمير راضي اعترافاته بخط يده وبدون أن يُضرب كفاً واحدةً من قِبَل رجال الثّورة في السّجن!!

جَرَّه رجال المقاومة إلى الحمام ونفذوا فيه الحكم الذي كان . . قلع إحدى عينيه بالملعقة!!

شعرتُ بنفسي كأنثى حملت جنينًا تغذى من دمها واختلطت نبضات قلبه بقلبها . . وانتظرت ساعات الولادة بفارغ الصّبر وبعد آلام مخاض عسيرة نزل الوليد مشوّهاً!!

زيارة
هو ٢

تسكنني مشاعر مختلطة متناقضة . . مشاعر مشبعة بالمطر . . بالجفاف في آن واحد!!

غداً موعد الزيارة . . أشعر بالحنين يمزق أوصالي . . إلى أمّي وزوجتي وأطفالي ويقشعر بدني وأنا أتخيّل ريح الاحتلال وهي تعبث بثوب أمّي (تفتيش ، مراقبة ، تدخُّل ، تطفُّل ، رقابة سمعية وبصرية ، كلمات مهينة بذيئة . . عقوبات لا تخطر على بال الشيطان) .

أحلم بالزيارة كآلاف الأسرى . . تتساقط أوراق عمري على شبك الزيارة وأذوب شوقًا وترقّبا!!

أستحم . . أحلق ذقني (أستحم بعد معاناة طويلة . فوجود دورة مياه واحدة في زنزانة تتسع لخمسين سجينًا أمرٌ يشبه الاحتراق . . في ساعات الصّباح الأولى يستعر جوف الزّنزانة ، فالخمسون سجينًا يريد أن يقضي حاجته في هذا المكان المتعدد الاستعمالات أصلاً ، فالكلّ يتوضأ ويحلق ذقنه ويغسل ملابسه ويغسل صحونه ويسخن خبزه ويُخبئ ممنوعاته من كتب ورسائل ومخطوطات وهدايا ، هي غرفة التّحقيق مع المشبوهين وتنفيذ الأحكام فيهم!! أيًا كانت القسمة على دورة المياه فلن تكون بأيّ حال عادلة!!

أنام بعد حمام منعش وقصير جداً لا يتجاوز خمس دقائق . . أنام

وفي قلبي لهفة طفل ينتظر صباح العيد ويضع ملابسه ، حذاءه ، تحت مخدّته . . يحلم بعيد أكثر بهجة وأكثر حكايا . . أكوي ملابسي بوضعها تحت البطانية!!

ينادي الضابط على اسمي من خلال السماعات . . أذهب إلى غرفة الضابط المناوب تمهيدًا لنقلي إلى غرفة الزيارة . . كلّما أعبر بوابة من بوابات السّجن يتم تفتيشي عارياً . . أقصد استفزازي . . قمعي . . إهانتي . . ابتزازي . . إلى أن أصل إلى غرفة الضابط المناوب . . ثمّ بعدها الدخول إلى غرفة الزيارة .

تأخذني خيالاتي بعيدًا . . من يا تُرى سيكون الزائر؟ من الذي سُمح له بزيارتي؟ أهي أمي؟ أم زوجتي؟ أم ابني البكر؟ أم كلهم؟ ألتفت إلى صديقي صبحي الوحوش أسأله :

- يا ترى كيف صار شكل الأولاد؟ طلع شوارب للكبير؟

أسمع صرخة قويّة من السجّان توقفني عن الحديث .

- لا تِحْكِ مع حَدَا . . بضَّلَّك واقف . وِجْهَكْ لَلْحِيطْ راسك لَتَحْتْ . إيدَيكْ لَفوقْ . ألتزم سريعًا بالأوامر فلا أريد أن يحصل معي كما حصل قبل ثلاث سنوات عندما رفضتُ هذه الإجراءات وأعلنتُ سخطي . . تمّ إرجاعي إلى الزّنزانة وسط عبارات الشتم والسب والتهديد والوعيد وتمّ إلغاء الزيارة ومعاقبتي بترحيلي إلى سجن آخر دون أن يُشعروا أهلي أو الصليب الأحمر بهذا النقل ، مما جعل أمّي وزوجتي يأتون مرّة أخرى لزيارتي ليتفاجؤوا بعدم وجودي في سجن عسقلان!! فقدتْ أمّي قدرتها على الوقوف ، جلستْ على الأرض الجرداء!! فكيف ستُقنع العمر الضارب في الضعف والشيخوخة أن يصلب عوده!! فقد باتت عجوزًا تضرب بعكازتها شهورًا طويلة تتوسّل

فيها لسلطات الاحتلال وللصليب الأحمر بتصريح زيارة . . تحوقل . . تدعو على اليهود . . إلى أن يأتي شباب من قريتنا كانوا قد أتوا لزيارة أخيهم المعتقل . . حملوها وهي تكاد تتفتت إحباطًا وقهرًا!!

أُصاب بالصّمت . . بالطاعة شوقًا وخوفًا من إلغاء الزيارة هذه المرة أيضًا!! أقف ولا أدري متى سيحين دوري . . السّابعة صباحًا . . أم التّاسعة ليلاً!! فكلّ دفعة من الزوار يتم فرزهم أمنيًا . . كلّ دفعة تتألف من عشرة إلى عشرين أسيرًا وعائلته وإلى أن يتم تفتيش العائلات تفتيشًا دقيقًا (هوياتُهم . . أجسادهم . . ملابسهم . . أمعاؤهم) وإرجاع من لم يُسمح له بالزيارة من الأهالي إلى الحافلة «مداقرة» .

إلى أن يتم كلّ ذلك . . سأبقى واقفًا . . أنتظر وجمر الشّوق يغلي تحت رمادي . . ينبض إصبعي بسرعة ليلامس إصبع أمي . . زوجتي وأطفالي من خلف الشبك .

أقف هذه المرة ويلاحقني مشهد أمّي التي خرجت من الثالثة صباحًا . . تجري مسرعة لتلحق بباص الصليب الأحمر الدولي الذي داخت سبع دوخات إلى أن حصلت على موعد مسبق لحجز مقعد فيه . . تخرج من الثالثة فجرًا والعتمة تتأرجح على حبل اللامعقول حتّى لا يفوتها الباص وتضطر لاستئجار سيّارة على حسابها الشخصي الذي يفوق طاقتها على الاحتمال .

- (معْلِش يَمّا) هذه الدقائق المعدودة تعيد تشكيل زمني القادم كما يعيد المطر تشكيل المزراب في كلّ هطول . هذه الزيارة يا حبيبة عمري تجعل مزاجي كمزاج عصفور يلهو . . يرفرف . . ويشاغب ويزقزق . . هذه الزيارة المحشوة برصيد لا ينضب من الأخبار تمنع شوك السّجن أن يُنازع الورد ، وتضمد النزف ، وتبعثر الوقت الآتي الطويل . .

تجعلني أكثر قدرة على الاحتمال . . تفك الخيوط التي اختلطت . . تجعلني أسترسل في الضّوء والزرقة!!

أتخلى عن هواجسي وخواطري ليزورني مشهد أكثر إيلامًا .

نزول الحَجَّة عند الحواجز الاحتلالية والتي أُقيمت خصيصًا لمضايقتها ومضايقة كلّ الأمّهات أثناء سفرهن للمعتقل البعيد . . وقوفها لوقت طويل أمام بوابة السّجن يوازي الوقت الذي أقضيه ووجهي على الحائط دون السّماح لها بالاقتراب من جدران المعتقل أو بواباته . . تحت شمس آب أو مطر كانون دون وجود أيّ وسيلة استراحة . . مقعد . . كرسي . . حجر . . تبقى واقفة كدالية شامخة عالية تواري الرماد الذي يتأجج في أحشائها . . تُفاصل التاجر اليهوديّ صاحب السّلّة التموينية المؤلفة من الفاكهة والبسكويت والصابون . . تعد المصاري التي بحوزتها . . تقطع عن فمها كالعادة لتطعمني وتهديني!!

ينادي الضابط على اسمي . . أركض باتّجاه غرفة الزيارة . . أبحث عن الوهج الذي سيذيب صقيع الزّنزانة . . أبحث عن جذوة نار تُشعل ظلمتي فإذا بها تجري وعكازتها أمامها . . تجري بلهفة سهم يخرج من قوس ترنو لي وأرنو لها . . فقد ضاقت الأرض بكلينا!!

- والله يمّا راجْعَة صَبِيّة وِيْنِ الْحَجْ مَطَر يْشُوْفِك؟

تبتسم وتشرق عيناها الضيّقتان ويلهج لسانها بالدعاء .

- الله يرضى عليك يا ابن بَطْني . . رِضا قلبي ورضا ربي . . اِحْكي يمّا . . احْكي يا حبيبي . . يمّا صُوْتَك في ذِناي ما بِرُوح .

- بس أنا بِدّي أَسْمَعِكْ . . بِدّي أَسْمَعْ أَخْبارْكُم . . مِيْنِ تْخَرَّجْ؟ مِيْنِ تْجَوَّزْ؟ . . مِيْنْ خَلَّف؟ جِبْتي صور لَلْوِلاد مَعِكْ . . كِيْفْ صاروا؟

كِيْفْ دِراسِتْهُم؟ مْغَلْبِيْنِك؟ مْغَلْبِينْ أُمْهُم؟ احكي يمّا . . احكي . .

تُدخل إصبعها الذي تلون بتجاعيد الفرقة عبر الشبك . . أقبله . . يبدو أكثر جرأة . . أكثر هيبة . . تقول :

– ولا يهمك يمّا . . السّجن للرجال . . إوْعَكْ تْكُونْ نَدْمان . . هَذِي الأَرْضْ بِدْها رْجالْ زَيَّكْ يا حبيبي .

كم أتمنّى في هذه اللحظة أن أقبل جبهتك وانحني تحت قدميك وأكسر هذه العُكّازة التي أراك تتكئين عليها لأوّل مرة!!

لِيْشِ الْعُكّاز يمّا؟ يمّا بَعِرْفِكْ قويّة . . أَقْوى منّي وْمِنْ كلّ الشّباب إلّي في السّجن . ليش الدّمع غافي في عْيُوْنِك؟

هذا الدّمع الغافي في محراب عينيك يطعنني . . لم أقاوم . . لم ألتحق بالمناضلين إلاّ لأبعثر دمعك ودمع كلّ الأمّهات . أريد أن أسمع منك زغرودة كتلك الزغرودة التي أطلقتها يوم أتى بي الجنود الصهاينة إلى البلد معصوب العينين . . مقيّد اليدين . . فوق ركام الدّار المهدومة بعد إعلان الحكم عليّ «هدم الدّار وسجن عشر سنين» وتجمعت كلّ البلد لم يبق أحد إلاّ وجاء ليودع (أبو رجا)!! يومها قال لي الضابط :

– هالقَدْ إِلَكْ مْحِبّيْنْ يا أحمد المطر؟ . . وبسرعة الصاروخ اخترقتِ الجموع والجنود وصحوتُ على زغرودتك التي داهمتني كخيط مطري رقيق شفيف نزل على جسدي وأزال العصبة عن عيني لأرى جموع البلد تقف تنظر إلي . . زغرودتك خرجت من فم حر أنساني لحظة وجعي لتترك وهجًا يزيد اشتعالي!!

زغرودة واحدة من فمك أحيتني . . غسلت ظلمة ضعفي وانكساري ... انتصبتْ حينها قامتي كسيف خرج من غمده!!

أخرج بسرعة من ذكرياتي وهواجسي لألحق بما تبقى من النصف

ساعة المخصصة للزيارة . . نصف ساعة بعد ثلاث سنوات متواصلة حرمان!!

نصف ساعة تضيع منها عشر دقائق في تجفيف الكلمات المبللة بالدموع شوقًا . . فرحًا والتي تضيع أحرفها وأحاول إعادة تشكيلها وتكوينها بسرعة تفوق سرعة الصوت .

في هذه الدقائق المعدودة أعود طفلاً لأبدأ من جديد تهجئة الحروف وتعلم القوافي . . هذه الدقائق المعدودة _في صحبة أمّي والأخبار _تشق البِرْكة الآسنة التي أُلقيت فيها . موسيقى هادئة ناعمة تعلو . . تعانقني . . تسمح بخروج المشاعر المحترقة وإدخال الغيمات والسنونو والمطر والتّراب والبحر والأهل والأحباب . . وكلّ شيء!!

تخرج الرتابة وتدخل الفوضى والكَرْكَعَة . . كم أحتاج هذه الأخبار والحكايا . . إنّها تشبه حبّة مسكّنة . . أو مضاد حيويّ يعيد نشاطي وحيويّتي .

أحكي سريعًا . . وتحكي . . نسابق الزّمن فيغدو أكثر رقة وأقل سطوة . أنا وإيّاك نحتل الزّمن بالحكايا والصّور . . نبني نوافذ نفتحها للشمس والهواء ونصعد الأسطح لنطير الحمام . . ونشق الرّسائل بحذر لنقرأ رسائل الغُيّاب ووووو .

-يَمّا وْلادَكْ وَمَرْتَكْ كان نِفِسْهُمْ يِجُوا . . بَسْ إنتَ بْتِعْرِفْ إنّو إلي شهور طويلة وأنا وَمَرْتَكْ رايحين . . جايين بنْراكض . . على مقر الصليب الأحمر عَلَشان تصريح الزيارة وبعد هَالْمَرْمَطَة أصدر الاحتلال تصريح لشخص واحد هو أنا!! وتبكي . . تبكي . مِشْ عارْفِةْ يمّا أَفْرَحْ وِيْلّه أَزْعَلْ على وْلادَكْ إلّي طْلِعتْ والدموع في عينهم .

-معلش يَمّا المَرّة الجّاي بِيْجُوا وْبِيْشُوفوك .

تنتهي الزيارة وكلمات أمّي في سنسلة القلب أُخبئُها وهجًا يذيب صقيع القلب .

أعود من الزيارة كنورس . . يتحلّق حولي الرفاق . . أُسرب لهم الأخبار . . أخبار العالم الخارجي . . أخبار الأولاد والجيران والإخوة والأخوات وأهل البلد . أنام على فراشي وفي أذني صوت أمي . . (السّجن دَوَا مرّ بَسْ بِقَوّي) .

صدقتِ يا أمي . . وصدق نيلسون مانديلا حين قال : الجسم البشري لديه قدرة هائلة على التكيف مع الظروف التي تواجهه . الإنسان يمكن أن يتحمّل ما لا يطاق إذا احتفظ بروحه قويّة حتّى عندما يتعرض جسده للاختبار . . الإيمان هو سرّ النّجاة!!

أم حسن سلامة
هي

لعبة الكتابة لعبة لذيذة . . لكنّها في أحيان كثيرة تنقلب من حلم إلى كابوس حين تختلط الصّور والأحداث وتنتقل الأحداث والمشاهد من الورق إلى الواقع وليس العكس!!

هذا ماحصل معي عندما رأيتُ أمّ حسن سلامة . . .!!

ها هي جدّتي صفية تخرج من الورقة التي أفرغتها وكتبتها عن زيارتها لعمي (أبو رجا) لأراها واقفة بلحمها ودمها أمامي!!

أكاد أُجن . . أرتبك . . لكنّني أُنصت لها وأترك الحبر يسيل على الأرض ويختلط بالدم النازف من الحكايا .

أُنصت لها دون أن أكتب حتّى بعض الملاحظات التي تُعيدني إلى أجواء الحكاية وتُفيدني عندما أعود إلى عمّان . . تركتُ مشاعري وأذني هكذا بلا قيود . .

أعرفُ ما ستحكي وكيف ستُحضّر نفسها لزيارة ابنها حسن في السّجن . . . اسمع وقع خطواتها . . أنصت لدعواتها ، أطرب لرنين زغرودتها!!

السّاعة الرابعة عصراً

إننا هنا في مخيم خان يونس للاجئين . . ها نحن نقف أمام بيت أمّ حسن سلامة . عندما تقف أمام باب من أبواب غزّة يستيقظ . .

النوار وتتلون الحكايا بالعابرين الكثر . . وبالأسرار . . كلّ باب خلفه حكاية تنتظر العاشقين ليطرزوا بشغف الدفء والنور . .!! كلّ باب يفتح ذراعيه ليحضن العائدين ويمسح عن وجوههم التّيه والصّمت والنّسيان!! كلّ باب أقف أمامه يهزني بعنف . . كما تهز الغيمة المطر الذي في جعبتها . . فتندلق الحكايا المعلقة على حبل العزلة والجرح . . تنفرط الغيمة . . فتسيل المساءات المبللة بالدموع والحنين وملامح الغائبين في سراديب السجون . . كلّ يندلق في لحظة مجنونة!! أحاول أن أخبئ رأسي . . أسقطه في أسفل صدري . . أبعده بعيدًا حتّى أبقى متماسكة وقويّة ، ومع ذلك يبقى الكثير في حواشي الغيمة . . وفي ثناياها تنتظر أبوابًا أخرى لتندلق حكايا جديدة!!

نتجاوز العتبة . . نصعد الدرجات الموصلة للبيت . . في أعلى الدرج . . تقف ختيارة فلسطينيّة يشع وجهها نورًا . . مضيئة كخيط الفجر قويّة كشعاع الشّمس . . تعانق كلّ واحدة فينا وكأنّها ابنتها الغالية الغائبة عنها منذ عشرات السنين . . تمازحها جهاد :

-ما شاء الله عليك يا حجة . . هلاّ عْرِفْنا لَـمينْ طالعْ حَسَن!!

حجة مثل القمر . . تبدو أصغر مما تخيّلت وأكثر حماسة مما توقّعت!! كنتُ أتوقّعها صارمة جدية قد لونها الحزن بظلاله . . لم أكن أتوقّع أن أرى حجة آسرة الجمال والروح ، طيبة ، وصدرها واسع بوسع عمرها المضوغ بالغياب . . عيناها تشعان مرحًا وخفة . . والنكتة تتزحلق على رأس لسانها بدهشة!!

أُقبل رأسها كما كنتُ أُقبل رأس (جدتي صفية) أتأمّلها طويلاً ، أراها تشبه جدّتي في أشياء كثيرة . . في عشقها ورائحة ثوبها وابتسامتها وجرحها المفتوح على صدر الوطن وخصلات شعرها

المتسرّبة عنوة من تحت شاشتها البيضاء . . تشبه جدّتي في انتظارها ويقينها بعودة الغائب!!

أحببناها بسرعة وكأننا نعرفها منذ زمن مع أننا نلتقيها لأوّل مرة . جلستْ على كرسيٍّ وسط الغرفة التي امتلأت عن بكرة أبيها . . بثوبها الأسود المطرز بالفلاّحي وشاشتها البيضاء وخلفها صورة كبيرة لابنها الأسير حسن سلامة!!

مرة أخرى يأتيني ذلك الشعور الذي يتسلط عليّ كلّما رأيتُ أحدهم «نوارة البيت» شعور باليباس والجفاف والقزامة يعكر صفو لحظتي ويوقعني في شَرَكٍ لطالما حاولتُ قرضه كفأر!!

أنظر في ملامح حسن . . ملامحه من ملامحنا وذهبيّة وجهه من قمحنا وخضرة يديه من زيتوننا والدم النابض في عروقه هو دمنا . . غير أننا لا نشبهه . . هو الحقيقة ونحن الوهم . . اختار الفعل في زمن الخرس ، واخترنا الكلمة الثورية والكتابة المغلفة بالحنين والشّوق لمطاردة وطن دُفن تحت ردم الغربة!!

أصحو من ضبابي . . لأكتشف أنّني لم أتأخّر عن اللحاق بكلماتها :

- (أهلاً وسهلاً بالجميع في بيت حسن سلامة) أهلاً وسهلاً بحبايبنا من السّعوديّة والأردن واللهْ جَيِّتْكُم عِندي بْتِسْوى الدّنيا وما فيها .

وأخذت تزغرد وتهاهي . .

يا حسن سلامة . . يا تاج على راسي

لا نحن بعناك ولا . .الناسي

ياللّي أخذت بثار يحيى عياش . .

- هَذِي يا حبيباتي زغرودة زغردتها يوم ما زرت حسن في السّجن ولما زغردت كلّ المساجين كبروا واليهود شردوا من الخوف . .

يومها قال لي الضابط :

- أنتِ هُوْن أَخْطَر من حسن ومن يحيى عياش!!

ثلاث عشرة سنة ولم تر حسن . . . تطلب زيارة ويوافقوا عليها وعندما تصل إلى معبر إيريز . . . لا يسمحون لها بالدخول (جَكَرْ(*) يرَجْعُوْها)

عندما رأته بعد هذه المدّة الطويلة . . قالت :

- آخ من الدّنيا (إنتَ مْخَتْيِرْ وأْنَا مْخَتِيْرة)!!

أوّل شيء سألها عنه الجامع والشّباب قبل أن يسأل عن إخوته .

- كيف الأشبال في الجامع؟

- على الدين والإيمان والتدريب .

- طيب كيف إخوتي؟

- قالت له : مْنِيْح إلّي فْطِنْتْهُمْ(**)!!

قالت للضابط بعد انتهاء الزيارة عندما سمعت أنّ بيرز يطالب بإعدام حسن :

- بِدّي تْبَلِّغْ لِيْ بيرِزْ تاعَكْ زَيْ ما أَخَذْ حسن سلامة بْثارْ يَحيى عياش . . فيه مِيّةْ واحَدْ بْيَاخُذْ بْثارْ حسن سلامة!!

تحترق أشياء كثيرة داخلي وتتدفق أشياء أخرى كالشلال . . تحترق الأنظمة العربيّة والانكسارات والهزائم . . تحترق كثياب البالة العتيقة الرخيصة . . وتُثقب الكروش المنتفخة ويتدفق وجه فلسطينيّ يحمل

(*) جكر : عناد .

(**) فطنتهم : تذكرتهم .

وعداً بالنصر وعشقاً منذوراً للأرض والزّيتون وميلاداً يخرج من فم الموت ومهرة لا ترضى إلاّ بأرض تفتح بابها للشمس!!

ينتابني شعور غامض إذ شعرت بأنّ حياتي كلها كانت بلا معنى . كنت أظن بأنّي أحيا وأعيش حياتي طولاً وعرضاً!! لكنّني اكتشفت بأنّني أحيا حياة الوهم المريح . . أنفاس تكفيني لأبقى داخل الدائرة المجنونة . . أخادع نفسي وأعيش!!

في هذه اللحظة بالذّات خرجتُ من الدائرة المفرغة التي كنت أدور بها وتدور بي . لفظتها . أمطت اللثام عن الصفر الذي يعبث بي . . في هذا المكان أُعيد التفكير في مفاهيم المقاومة والموت . . الآن يتعملق اليقين الذي كان يتأرجح على حبل قلبي وتتعملق المقاومة . . أسمع صوت أساورها وأقراطها وسناسلها وهي تزيّن برنينها جِيد الوطن!!

كانت تركض وراءه :

- يمّا يا حبيبي خلّيني أجوْزَكْ . يقول لها :

- بِدّيشْ أَتجوَّزْ . . صَعبْ يمّا . . حرام أبَهْدِلْ بِنْتِ النّاس مَعي . ما ردّتْ عليه . . خَطَبْتْ لُهْ بِنْتْ الحلال وَجوَّزَتُه . يُقْعُدْ يُومْ وِيْغيبْ شهر . عَقْلُه في الجهاد!! كان مسؤول عن مجموعة الصاعقة الإسلاميّة في مدينة خان يونس إلّي كانت مهمتها ملاحقة الخونة والعملاء .

تسأله :

- يَمّا يا حسن وِيْنَكْ؟ يقول لها بَشْتْغِلْ في مصنع بلاستيك .!! تقول له : يَمّا إلّي بِشْتْغِلْ . . بِرْجَعْ آخرِ النّهار وبِنامْ في بِيْتُه!! يسكت!!

في يوم جهزت أمّ حسن نفسها لتزور إحدى صديقاتها لتهنئتها بخروج ابنها من السّجن . ذهبت ورجعت بسرعة . . كانت تخاف أن تتركه وحده . عندما رجعت كان يلف ويدور في البيت . . يلف ويدور

وهـي تشعـر أنّه يريد الكلام ولا يعـرف من أين يبـدأ . قـالَ لـهـا يمّا تعالـي :

- يِمْكنْ أَغيبْ شَهَر . . شَهْرين ، سنة ، سنتين!!

- وِيْن يمّا؟ يا ساتر!! يا خُوفي بِدَّكْ تِطْلَعْ على الضفّة!!

قال لها :

- يا ولدي عليكِ يَمّا ما بْتِخْفى عليكِ خافية .

اقترب منها وقبل رأسها ويديها وقال لها :

- يَمّا أنا أخذت من مرتي جوز أساور . بِدّيْ أَرفْعَ الخَطِيَّةْ(*) مِنْ رَقْبَتي وْأَحُطْها في رَقْبَتِك . بَوَصّيكِ تِشْتْري لْها جُوْز أساوِرْ نَفْسِ النَقْشِة ، نَفْسِ الوَزِنْ والغْرامات .

حينها غضبت وقالت له :

- والسّنْسـال إلّي أَعْطِيْـتك ياه؟ يعني بِدّك تْرَجّعْ ذَهَبْ مَـرْتَكْ وَذهبي لأ؟

قال لها : معلش يَمّا إنتِ أمّي وْبِتْسامحيني!!

ذهب وصلى ركعتين وخرج دون أن تشعر به . .انتظرته لكنه . . لم يرجع . قالت في قلبها :

- الله يْسَهِّلْ عليك يمّا يا حسن وِيْنْ ما إْنتَ .

دخلت غرفته وجدت هويته وخاتم الزواج وساعته على حافة السّرير!!

في كلّ يوم كانت زوجته تسألها :

- مَتى بِدّو يرْجَعْ حَسن؟

تقول لها :

(*) الخطية : الذنب .

- بُكْرَة . . بَعِدْ بُكْرة . . بَعِدْ شَهَر . . مِشْ عارْفِة بَسْ أَكيْدْ راجع!!

وعندما تطبخ تقول لهم :

- شِيْلو لِحَسَنْ صَحِنْ طَبيخْ وْتِرْفَعْ صوتها حتّى يسمع كلّ الجيران . لإنها لا تريد أن يعرف أحد أنّه خارج البيت خاصّة العملاء (الله لا يُجْبُرْهُم) . واستمرّت على نفس المنوال حتّى قام حسن بعمليات الثأر!!

أنتفض في مقعدي كعصفورة تتهيأ للطيران . .عندما أسمع كلمة عمليات الثأر تخرج من شفتي أم حسن . . .

تلفحني برودة ذلك الصّباح (صباح العمليات) مازلت أذكر وجه السّماء في ذلك اليوم وصوت المطر والأرض الملوّنة بأوراق الشّجر الحمراء والبنية . . أتكور في مقعدي المقابل للتلفاز كتلة من الدفء والفرح . . أنتظر مثل الملايين الإعلان عن قائمة القتلى والجرحى اليهود . . . أتخيّل وجه الاستشهادي ابراهيم السراحنة وهو يعقد صفقة الشّهادة مع حسن سلامة . . أسير معهما في شوارع القدس وأزقتها . . أدخل بصحبتهما إلى محلاتها ومطاعمها . . أركب حافلاتها وأفتح عيني المهووستين بالحرية والحب والمطر ، المثقلتين بالأقفال والخيبة والخسارة مثلهما . أبحث معهما عن الأماكن التي يتواجد فيها أعداد كبيرة من اليهود أعدُّهم ويعدُّونهم معي ، ندرس المكان وعدد المتواجدين فيه حتّى تكون الضربة قاسية وموجعة ، أراهم وهم ينظرون في كلّ اتّجاه وبوصلتهم أبجديات يحيى عياش . . أرقبهم يتحينون الفرصة لينقضوا كنسر ينشب أنيابه في أجسادهم بثلاث عمليات دفعة واحدة .

أتخيّل لون الطّريق الذي اختار!! فقد اختار طريقًا لا يشبه كلّ

الطرق ، عندما سيصله لا يمكن أن يتفاداه ، الانزلاق فيه قد يؤدي إلى النقيض . . فحبل اليقين يجب أن يكون مشدودًا لأقصى درجة وإلا . .!! لكنّه هو من اختار الطّريق ورسمه .

أسمع صوت اصطدامه بقهقهات القتلة وعربدة الاغتيالات وتحرّشات الأسلاك الشائكة والدوريات الليلية والقصائد التي تستعيض بحروفها عن دمها وتمتهن غواية الكلمات وثرثرة الرصاص ورخاوة الشعوب . . ينجم عن الاصطدام . . انفجار عنيف يهز قلب القدس في حافلة ركاب عبرية تعمل على (الخطّ ١٨) المؤدي لمقر القيادة العامة لكلّ من شرطة العدو وجهاز المخابرات!!

أقفز من مقعدي عندما أسمع الخبر :

- الشهيد البطل يقتل ٤٤ يهوديًا بينهم ١٣ من كبار ضبّاط المخابرات وجهاز الشاباك إضافة إلى إصابة ٥٠ بجروح وحروق!!

تنفتح عيني فجأة كما تتفتح خيوط الفجر الأولى عندما أسمع وبعد ٤٥ دقيقة من ملحمة السراحنة وفي نفس اليوم الأحد ٩٦/٢/٢٥ خبر العمليّة الثّانية . . .

السّاعة تشير إلى تمام السّابعة والنصف ، الأرض تصحو من إغفاءة الهزيمة وتستسلم لأصابع دافئة ملساء ، نورانية . . إنّها أصابع مجدي أبو وردة حيث فجّر نفسه في أربعين جنديًا ومجندة كانوا يتواجدون في عسقلان ليقتل على الفور ٢٣ جنديًا .

ومثل النّور عندما لا تستطيع إمساكه كانت العمليّة الثالثة في صباح الأحد ٩٦/٣/٣ ومرة أخرى يحلق القساميون في الدروب الوعرة ويعلقون الصلف الصّهيونيّ وكلّ الوجوه المتآكلة على حبل عبوة ناسفة ، حيث الشهيد رائد الشرنوبي يفجر نفسه وسط (الحافلة ١٨) مرّة

أخرى!! ومرة أخرى لا يعرفون مصدر النّور ولا كيف يقبضون عليه . . إنّه النور . . لم يدركوا بعد أنّهم لا يستطيعون إمساكه!!

أرتعش وأنا أستعيد المشاهد والصّور . . أرتعش وأنا ألتقط أنفاسي التي تتهادى على مدرج النور . .

الفرح يستيقظ فيّ فجأة ، كلّما سمعت أكثر فاضت روحي وئامًا وحلقت كما تحلّق وتطرب لسماع الأذان .

نحن نفرح عندما نمسح عن الرّوح تشوهاتها وحماقاتها ومماطلاتها . . نفرح عندما نكتشف بابًا للخروج من دائرة الأوزار والأقفال . . نفرح عندما نرى من يحمل فأسًا ليحرث تربة ظنها عقيمًا!!

نخرج من بيت أمّ حسن سلامة . . أضع رأسي على نافذة الميكروباص . . أبحث في وجوه المارة عن وجه حسن سلامة . حسن الذي دوّخ الاحتلال وتحوّل المستشفى الذي يقطن فيه بعد اعتقاله إلى ثكنة عسكرية . . يأتي كبار العسكريين والعائلات الإسرائيليّة التي مات أبناؤها في العمليات ليتفرجوا على حسن!! لكنهم كانوا يحسون بعريهم وضآلتهم عندما يكتشفون أن وراء تلك العمليات شابّ لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره .

أتساءل هل سيكتب لي عمر وأرى قامة عملاقة كقامة حسن سلامة . . أم ستراه حروفي التي تضجّ بأنفاس الراحلين!!

أضع غلالة في أذني كي لا أسمع صوتاً غير صوت حسن سلامة!!

الموت في الغربة
هو ١

الغربة صباحها وحشة بلا رائحة قهوة!! وليلها رسائل مقروءة، وقُبل منتظرة، وخطايا مخبّأة وضفائر مقصوصة، أنفاس مرتعشة.. عتاب.. آهات.. نصفها جنون وجنونها عقل!!!

تغترب لتبتعد عن وهج الحقيقة والواقع. عن رائحة المقاومة. عن ارتعاش الرّوح عندما يعزف ناي الوطن. لكنك تكتشف أن الغربة مرآة.. تعكس ما وراء ملامحك، تحمل إليك لونك الذي بهت، وجلدك الذي ترفض، وسرك الذي تجتهد في إخفائه. هي كائن حيّ يصدر أحكامًا، يعطي نصائح، يفرض عليك أنماطًا سلوكية وفكرية!!

يكفي أن تجرب الغربة لتكتشف أن الإنسان اخترعها ليستطيع الإفلات!! أو ليستطيع الطيران، فلكي تطير لا بدّ أن تتخلص من الزوائد والشوائب، تطير إلى فكرة، إلى مال وتيجان أو إلى موقف، لا فرق، المهم أنك قرّرت الطيران.

أنا شخصيًا جربتها لأتخفّف من حِمل الوطن المحتلّ؛ لأصبح خفيفًا كريشة أستطيع جمع المال لعائلتي هناك.. أمي.. أخي عبدالله..، أخي أبو رجا. وتشهد غربتي أنّي ما تركت وطني إلاّ ليخضرّ عود عائلتي!!

لكنّني - ويالَفرط عجبي- صرتُ ثقيلاً.. أشتكي وهنًا في

أجنحتي . فالغريب يضيق بالغربة وإن اتسعت ، والسّجين يتسع بالسّجن وإن ضاق!!

أي غربة تلك التي تسلمنا إلى الهزيمة والانكسار من جديد!!

أي شموع تلك التي تشتعل ثمّ لا تلبث أن تخبو فلا دفء ولا ضوء!!

يوسف . . عين رأسه في ليبيا ، أما عين قلبه فترنو إلى وطن وراء السياج . هكذا كنت ألخص يوسف في جملة واحدة!!

عندما أخبرني صديقي فتحي بأنّ يوسف قد مات وعلينا أن نقوم بإجراءات كثيرة لأنّ وصيته أن يدُفن في فلسطين . . ساعتها انعقد لساني ولم أعلق على ما قال! أحسست أن الكلمة قزمة لا يمكن أن تُطاول الحدث .

عندما رأيته مُمدّداً في ثلاّجة الموتى ، بجسد غض نحيف ، بسمرة خفيفة ، بملامح دقيقة وناعمة وبابتسامة ساخرة ، بكيت!! شابّ في الثلاثينيات من عمره ، سرق الاحتلال طفولته وسرقت الغربة شبابه! لملمتْ الصّورة الباردة حكايا ساخنة كان يحكيها لي في كلّ مرّة ألتقي به . في كلّ مرّة يتذكّر حادثة أو مشهدًا تاه في زواريب الذّاكرة ، ينفض عنه الغبار ويعيده متألقًا حيًا! يتذكّر فلانًا أو فلانة ، يضيف بعض المشاهد التي تسرّبت دون أن يدري ، يتجاهل بعض المشاعر لأنّه لا يقوى على استعادتها ، فما حصل له في قريته (إجزم) عصي على النّسيان وأقرب للخيال . في كلّ مرّة ينفتح الكلام . . يرتعش ، يضطرب ، يحدق طويلاً . . ثمّ يُلقي بذاكرته أمامي ويتجول في زواريبها . يخرج كلّ ما في جعبته .

كان يجهز نفسه لفصل الصيف ككلّ سنة ، يلتقي بأمه العمياء

وشقيقاته الخمس . قبل أيّام فقط ذهبتُ بصحبته إلى البريد ليبعث برقية إلى أمه يخبرها بموعد حضوره إلى بغداد .

الحكايا السّاخنة تخرج الآن ، أسمعه يحكي عن قصّة اقتلاعهم من قريته إجزم : مكتبة *الرمحي* أحمد

كان أبي مع ثلة من المجاهدين ٤٠٠ مقاوم فلسطينيّ يحملون بنادق خفيفة ، ولأن أبي نجارًا دهن البواريد ولّمعها ولبّسها وجه خشب وانطلق مع المجاهدين وهو يوصينا بألا نخرج مهما كانت الأسباب!

خرجنا وأمي وأخواتي الست ، كنت أمسك بثوب أمّي من الخلف حافي القدمين زائغ العينين ، كلّما مشيت خطوة نظرت للوراء علّني أرى أبي ، وضعت أمّي أختي الرضيعة في سلّة قش على رأسها ، أخواتي الخمس كن خلفها يركضن بفزع بعدما رأوا العروس وعمها ملقَين في وسط البلد (عروس تزوّجت حديثًا قتلها اليهود برصاصة في فمها فاندلق لسانها إلى الخارج وزوجها كان مع المجاهدين) أتى اليهود بالعروس القتيلة وعمها ووضعوها في وسط البلد ليثيروا الرعب في قلوبنا!

خرجت أمّي ولم تغلق الباب ، تركنا كلّ شيء وراءنا ، لم نطعم العنزات ولا الدجاجات . ولم نترك لهم طعامًا ، خرجنا بعد صلاة العصر ، وكان اليهود قد دخلوا البلد عند أذان الفجر تقريبًا ، احتلوا القسم الجنوبي من البلد ، ورويدًا رويدًا دخلوا وسط البلد وطوقوها من جميع الجهات وأخذوا يطلقون النّار على كلّ شيء يتحرك ، أخذوا يلقون القنابل داخل المنازل ومع هذا بقيت أمّي في المنزل ولم تخرج بناء على وصية أبي بألا نخرج ، لكنْ عندما بدأ قصف القرية بالطّائرات ودخلت المصفحات برًا وجوًا في ٢٣ تموز ٤٨ وفي عز الحر

حملتنا أمّي وهربت والنيران تلحقنا من مكان إلى آخر ، وقد أضحت البلد خالية تمامًا من أهلها .

أمي تركض وصوت أبي في أذني :

- إياكم أن تخرجوا مهما حصل . . أردّده لأمي :

- أَبوْيْ قالْ لا تِطْلَعُوا . . أَبوْيْ قالْ لا تِطْلَعوا ، فتشد يدي وتسرع أكثر وأكثر .

قريتنا سقطت بعد ثلاثة أشهر من سقوط حيفا ، فقد شكلت مع عين غزال وجبع ما سمي بالمثلث المرعب ؛ لأنّ هذه القرى الثلاث صدت الهجمات الصّهيونيّة وصمدت طويلاً ومرغت أنف الصهاينة وأسرت عددًا كبيرًا منهم ، ليس هذا فحسب بل لقد منعت حركة مواصلات العدو الصّهيونيّ على امتداد الطّريق الساحلي!

كنا موحّدين وصامدين وكان معنا الجيش العراقي الذي بقي معنا ثلاثة أشهر يمدنا بالمواد الغذائية وبعض الذخيرة ، كانوا يهرّبون لنا الذخيرة على الجِمال ، ومما زاد في رفع معنوياتنا أن الجيش العراقي القريب منّا طرد اليهود من جنين وانتصر عليهم ، لكنّ هذه المرة وعندما استنجدنا بالجيش العراقي القريب منا ، وكنّا نُجري الاتّصالات معهم عبر جهاز اللاسلكي . . كان الرد يأتينا من قائد الوحدة :

- ماكو أوامر!

طبعًا بعد ذلك اكتشفنا أنّ ثمّة قراراً متخذاً من قبل قادتهم بعدم التدخل! ازداد القصف ونفِدَت الذخيرة وتخلى عنا الجيش العراقي ولم تأت نجدات من الجيوش العربيّة كما وعدنا ، فهربنا والنيران تلحقنا ، خرجنا عصرًا من إجزم ووصلنا صباح اليوم التّالي إلى قرية عرعرة ليس معنا لا ماء ولا طعام ولا ثياب ، حفاة . . شُعثاً .

مازلت أذكر صوت أمّي عندما فقدنا أختي . . أخذت تصيح وتولول . . بِنْتي فاطمة يا ناس . . بِنْتي فاطمة يا ناس ، كان صوتها مزيجًا من الانصهار والدهشة والرّجاء والخوف . سألت أمّي شقيقاتي عن أختنا ، قالوا إنّها كانت تمسك بنا!!

حاولت أمّي الرجوع والبحث عنها ، لكنّ النّساء أمسكن بها ، أخذن يهدئن من روعها ، قالوا لها :

- بِدّكْ تْيتَمْي خَمَسْ بَنات وْوَلَدْ ، لا بدّ أن نلقاها ، طَوّلِي بالكْ ، أكيد بِنْلاقيها عِنْدْ حَدا من المهاجرين في الطريق ، لا تخافي وسَلْمي أَمْرِك لَرَبّكْ . سنسأل عنها . وعدها خالي محمد أن يعود في اليوم الثّاني إلى القرية ليبحث عنها .

النّاس يتدافعون ، الصّغار يبكون . الشّمس دبّوس ينخز الأجساد والرؤوس . جاء الجيش العراقي لكي ينقلنا من عرعرة إلى جنين ، لكنّ أمّي رفضت أن تركب حتّى يعود خالي .

رجع خالي محمد ، نظرته كانت زائغة بلا قرار ذوبت أمّي في مكانها . . لكن بلا دموع! سمعتُ خالي يقول :

- البلد بلد أشباح يَخْتي ، شُفْتْ ستّ ختْيارات مَحْروقات ما عْرِفْتِشْ أَمَيِّزْهِنْ ، مِتْكَوْمات فُوقْ بَعَضْهنْ ، النّار لِسّه مْشَعْلِةْ في البَلَد ، دوّرْت على فاطَمة ، فتّشتْ ، نَبَشتْ البلَد ما لْقَيْتها!

سلّمَت أمّي بالأمر الواقع . . ركبت أنا وأخواتي الباقيات في الشاحنات العراقية . كان عدد الشاحنات بين ٣٠ إلى ٣٥ تقريبًا أذكر أنّي عددتهم وأنا أراقب النّاس تصعد . . أمّي تتنقل بين الكراسي تسأل عن فاطمة . . تصفها . . شعرها أسود مجعد . . عيونها خضر . . وجهها أبيض ، مثل قرص الجبنة ، كانت جدتها تحكي عنها (مِشْ بِنْتْ

مَعِيْشةِ) . . الكلّ ينظر لأمي بحزن وشفقة ويهز رأسه بالنفي!

عندما وصلنا جنين قال قائد القوات العراقية عمر العلي لأهالي جنين وقرى جبع وعين غزال وإجزم إن الذي تعلمناه في الكليات العسكرية في سنتين وأكثر تعلمه أهالي منطقة جنين خلال شهرين، لقد استماتوا في الدّفاع عن أرضهم.

في جنين التقى الوصي على العراق (عبد الإله) بالأهالي ودعاهم ليكونوا ضيوفًا على العراق لمدّة بسيطة إلى أن يُطرد اليهود فيعودوا إلى ديارهم . . صعد النّاس إلى عربات الجيش العراقي . . الذين صعدوا هم كبار السنّ والأطفال والنّساء، أما الشّباب فظلوا ولم تُعرف أيّ أخبار عن أبي . . ظلّ خالي مع الشّباب . . صعدت أمّي وهي توصيه أن يبحث عن فاطمة وأبي!

لحق أبي بخالي في جنين وظلّ الشّباب ينتظرون الأوامر من الجيش العراقي لكي يواصلوا التحرير . . مضت أشهر والحال على ما هو عليه . . إلى أن أتتهم الأخبار من أحد الضبّاط العراقيين تفيد بأنّ في الأمر خدعة . سأل أبي كيف؟

قال الضابط :

– لقد ضحكوا عليكم . لا فائدة من الانتظار . ونصح أبي وخالي أن يسافروا للعراق لأنّ السّلاح الذي معهم أخذه الجيش الأردنيّ !!

وصل أبي وخالي مع مجموعة من أهالي المهجرين إلى بغداد . . عبروا الحدود الأردنيّة بشق الأنفس . . فقد اعتقلتهم السلطات الأردنيّة بحجة أنّهم لا يحملون تصاريح دخول . . ثمّ سمحوا لهم بمغادرة الأردن باتّجاه العراق!!

لكنهم اعتُقلوا أيضاً عندما وصلوا بغداد . . وأُفرج عنهم بمئة حيلة

وظلوا يسألون عنا حتّى وجدونا!!

أنزلونا في مدارس دار المعلّمين ، بقينا في المدارس مدّة بسيطة ، ثمّ نقلونا إلى بيوت مهجورة كان يسكن فيها يهود عراقيون غادروا إلى فلسطين!!!

مازلتُ أسمع صوت الرجال في المدرسة التي نزلنا فيها بداية ، يتحدّثون عن الإنجليز الذين كانوا يقصفون القرى مع اليهود ، عن السّلاح الفاسد واليهود والحكام العرب والمؤامرة الكبرى ، يتحدّثون عن الخيانة والطعن في الظهر ، أصواتهم ما زالت ترن في أذني!!

كنت ألتقط البكاء المكتوم ، الكلمات الغاضبة المحبوسة في الصدر ، الأشجار الحزينة ، الرغيف الذي يوزع على عشرة أفواه ، ألتقط الخوف ، الحزن والقهر والخديعة والأشواك . . أخزّنها وأخزّنها وأنا لا أشعر ، إلى أن جاء اليوم الذي انفجر فيه الخزان . . برسومات كانت هي القميص الذي ردّ بصري إلي!!

الأستاذ محمود الصوص بصوته الجهوري ، بمخارجه السليمة للحروف ، بقبعته الصوفية ، يقول لنا :

- اكتبوا كلّ شيء مررتم به ، اكتبوا حتّى لا ننسى وتنسى الأجيال القادمة ، دوّنوا مذكراتكم ، أفكاركم ومشاعركم .

عندما تتلاطم أمواج غضبك . . اكتب . عندما يُشعل الحزن نارًا في قلبك اكتب . . اكتب لأنّ الكتابة ستساعدك لتفكر ، ستحضن غضبك ، الكتابة ستعيدك لتصافح وطنك في كلّ يوم ، تغريك بالبقاء والاستمرار ، اكتب وأخرج كلّ الجراح التي تنزّ ، الكتابة تجعل طريقك أقصر!! ونَفَسك أطول!!

يومها سألت أستاذي :

- هل ينفع أن أرسم؟ أرسم ما يؤلمني، ما يسحقني، أرسم حلمًا طائرًا، أرسم حرباء ملوّنة!!

اقترب منّي وبنظرة يختلط فيها الحزم بالفخر قال:

- ارسم.. اكتب.. لا فرق! لكن إيّاك أن تتلون. إيّاك أن تضع يدك في جيبك. تذكّر أنك ستصافح وطنك كلّ يوم.

حينها رسمتِ قميصًا وعندما سألني لماذا قميص؟ قلت له: هذا قميص أختي فاطمة التي ضاعت وقت الهجرة.. سأضعه على عين أمّي لترتد بصيرة، أمّي عميت من كثرة بكائها على أختي!!

أدخل إلى بيت يوسف وكأنّني أدخله لأوّل مرة، أتأمّل اللوحات التي تمتلئ بها المربوعة، لوحة علق عليها قوشان أرضه في إجزم، مفتاح الدّار التي لم تُغلق، براويز تطريز بألوان ورسومات خاصّة بالثوب الفلاّحي الفلسطينيّ، لوحات رسمها هو، القميص هو سيّد لوحاته، لوحة الأقصى وتحته في ذيل اللوحة قميص! البحر.. بحر حيفا وتحته في ذيل اللوحة قميص!

تدخل طفلته حنان ذات الأربع سنوات فجأة، تجلس في حضني، أشتم رائحة يوسف من خصلات شعرها الأسود وعينيها الخضراوين. أخذنا جوازات السفر من زوجته لنرتب لهم إجراءات الخروج من ليبيا وحمل الجثمان إلى عمّان ومنها لفلسطين!

أتأمّل بيته.. بيته كبيوت كلّ الفلسطينيّين في ليبيا. ليس فيه كنبايات ولا غرفة نوم وليس هناك شيء من متاع الدّنيا سوى الكهربائيات البسيطة. راتبه بالكاد يكفي مستلزمات الحياة ومصروفات أمه وأبيه وأخواته الخمس. لقد كان رفاقه المصريّون والسوريون يستغربون عندما يعرفون أن أكثر من ثلث الراتب يذهب مساعدات

لأهله في منفاهم. زوجته كانت امرأة مدبّرة (ودايْرَة بالها على مَصاري جُوزها) كما تقول زوجتي. ليس في بيتها خزانة لتضع ملابسها وملابس عائلتها فيها. فقد كانت تضع الملابس في (صحاحير خشب) ترصهم فوق بعضهم البعض لتوهم نفسها أن لها خزانة مفتوحة الأبواب.

أتأمّل المربوعة وكأنّني أتأمّلها أوّل مرّة ليس فيها إلاّ (دوشك من الخشب) يشبه السّرير كان ينام عليه وزوجته ويستقبل عليه الضيوف!

ليست المرة الأولى التي أكتشف فيها امتدادًا لجرحي، لخوفي ودمي المراق. لحظات من التأمل تحمل الدهشة الحبلى بالعجز! تحمل الحقيقة الباكية والوصية التي تختصر العمر في كلمة واحدة ليس لها ظلّ وهي الوطن!

هل ما حدث مجرّد صدفة؟ أنا لا أؤمن بالصدفة. كلّ ما يحدث متزامنًا هو من ترتيب القدر! لكنّ علينا أن نكتشف الحكمة ونعرف أن للحزن ظلاً ولانكسار قطرة المطر ارتداداً!

عندما اتصلتُ بزوجة يوسف في عمّان كي أطمئن عليها وأعرف هل دخل جثمان زوجها إلى فلسطين أم لا.. جاء صوتها هشًا ضعيفًا:

- أخرجوه حيًا ورفضوه ميتًا !! لقد رفضت إسرائيل دفنه في فلسطين لدواع أمنية!

قلت لها وأنا أمثل القوة:

- كنّا نعرف النّتيجة مسبقًا، اليهود يخافون الفلسطينيّ حتّى وهو ميت، يخافونه حيًا ويخافونه ميتًا!

يحكمون عليه أن يبقى غريبًا طريدًا حيًا وميتًا ولكنها الوصية ولا

بدّ أن ننفّذها . . أو نحاول تنفيذها بكل ما أوتينا من قوّة وما باليد حيلة . أغلقتُ سماعة الهاتف . . أحسست يدي تتفجر ذلاً وهزيمة!

عرفت أن للحزن . . ظلاً! عندما سمعت من التلفاز أن جثة محمد مصطفى رمضان هي أيضًا أُعيدت إلى لندن لأنّ مقابر الليبيّين العرب لا يشرفها أن تستقبل جثة نتنة تزكم الأنوف رائحتها!

جثة محمد مصطفى رمضان المذيع الليبيّ في هيئة bbc عادت لتدفن في لندن ، منعوا أهله من استقبال الجثمان ، حُرم من جنازة في وطنه ، حُرم من وسادة أبدية على ترابه! أيّ ظلم هذا الذي يصنعه طاغية بين رصاصات عاهرة وقبرٍ غريب!

وحده في القبر المظلم الغريبِ!

ما أجمل الموت حين تجد لجسدك كفنًا وقبرًا يعيد رسم خريطة الوطن من عظامك!!

ثلاث رصاصات اخترقت جسد محمد مصطفى رمضان! كم رصاصة نحتاج للكلمة الواحدة!!

ثلاث رصاصات أخطأت كلّ المصلين في مسجد بريجنت في لندن وأصابته . حاولت الرصاصة أن تدفع نفسها بعيدًا عن صدره العاري ، عن رأسه ، عن جسده الذي يغلي بحب الوطن ، لكنّها كانت في النهاية رصاصة مأمورة! خيط دمه المتعرج على ساحة المسجد . . رسم طريقًا للكلمة الحرة والفجر الندي!

دمه سال في ساحات مسجد بريجنت في لندن وسلاحه كان رسائل!!!

هل كانت رسائله التي بعثها لمعمر القذافي هي السبب؟

عند صلاة الجمعة كانت المواجهة . . محمد مصطفى رمضان

بصلاته بسجوده بكلماته اللينة الطاهرة (وموسى كوسا) وزبانيته . . برصاصهم الذي يغلي حقدًا وشراسة . كلمته كان ثمنها رصاصات في القلب . حروفه أحدّ من السكين وأنعم من وردة!!

رسائله الطاهرة اللينة كانت تحاول أن تخلق من المسْخ رجلاً . . لكنّه أبى! يقع على الأرض مضرجًا بدمائه بعيدًا عن ابنته الوحيدة حنان ذات الأربع سنوات والتي كانت بصحبة أمها عند النّساء!

الآن في هذه اللحظة . . تختلط عندي ملامح صديقي الفلسطينيّ يوسف بوجه محمد مصطفى رمضان لتخلق رفضًا بلون واحد . . لتخلق ذات الابتسامة الساخرة ، ذات القفشات والرّوح الخفيفة الطّائرة . مازلت - وكلّ الليبيّين - أذكر صوته الهادئ الذي أغضبهم ، أخافهم . كانوا يرتعشون عندما يبدأ يومه . . برنامجه بكلمة طيبة . . أصلها ثابت وفرعها في السّماء . . سلام من الله عليكم ورحمة منه وبركات . .

كنت كآلاف الليبيّين ننتظر مشاكسته . . وسخريته . . وتعريضه بالحكم في ليبيا .

مازلتُ أذكر في إحدى حلقاته حينما قال . . إن بريطانيا ستسجل في مذكراتها أغرب حدث دبلوماسي وهو قبول أوراق اعتماد خمسة سفراء دفعة واحدة يمثّلون جماهيرية القذافي!! وذلك إثر زحف موسى كوسا وأربعة من عصابته على السفارة وتعيين أنفسهم سفراء!!

في كلّ يوم ننتظره ليأخذنا حيث نبتسم . . ليذكرنا بأنّ خنجر الغضب يطعن من يتراجع أو يهادن . . يحفر لنا بكلماته عالمًا من الحقائق والتحليلات والأخبار!

محمد مصطفى رمضان . . أعتقد أنّني أعرفه تمامًا كما أعرف صديقي يوسف . . إن له قلبًا كقلب يوسف وأمنية كأمنيته!! أن يدفن

في الوطن!! حين تتشابه الأحداث وتختلف الأسماء يصبح عصيّاً عليّ . . الاحتمال!!

كان أزلام النظام يدفعونه . . يحثونه ويستدرجونه للعودة إلى ليبيا لاستلام مهام حساسة في الإذاعة الليبيّة . أو أن يشرف على إذاعة ليبية موجهة من مالطا . . لكنّه كان يرفض عروض النظام بأدب جم ولين!

وعندما كان يسمع بقرارات القذافي . . أو ممارساته وتصريحاته . . اختار طريقًا للمعارضة قد يبدو غريبًا . . ألا وهو الرّسائل مع أنّه لم يكن عضوًا في أيّ تنظيم أو جماعة إسلاميّة أو غير إسلاميّة ولم يكن له أيّ علاقة لا من قريب أو بعيد بفصائل المعارضة الليبيّة أو مطبوعاتها التي كانت تصدر في ذلك الوقت . .

رسائله كانت مجرّد ملاحظات وآراء وإرشادات وكلمات تنبض بحب الوطن . كان يدلي برأيه في مختلف القضايا السياسية والعسكرية والعلمية . . تمتد كلماته ليقطف عناقيد الفساد المستشري في البلاد . .

رسائله كانت مناجاة للوطن ليس إلا!!

كان يقول للقذافي إن ليبيا ليست بحاجة إلى الاشتراكية بل إلى العدالة الاجتماعية . . فهناك الكثير من أنواع الاشتراكية ولا ندري أيّها نتبع!!

رسائله كانت تساؤلات . .

تساءل :

- كيف تشاركون في قصف جزيرة أبا في السودان؟
- كيف تقومون بإيواء الشيوعيين المغاربة في ليبيا في الوقت الذي

تعلنون فيه حربًا على الشيوعيين في ليبيا؟

- كيف تعطل القوانين لتصبح ليبيا دولة تُحكَم بلا قانون؟

هل تدري يا رمضان أن رسائلك لم يكن لها اسم ولا عنوان سوى أنّها براعم خضراء تخرج عنوة من بين شقوق خشب يأكله السوس؟

موته كان يمكن أن يرفع الأمواج لتغرق القهر والصّمت والجنون لكن يبدو أن الأمر كان يحتاج إلى مزيد من الأسماء التي تغيب!!

هكذا هم الشّهداء يأتون . . يلتمعون . . يضيئون . . يغادرون . . ولا يجرؤ أحد على النطق حتّى بأسمائهم . . لأوّل مرّة أقف أمام الموت المزدوج . . الذي يعبر عاشقين في لحظة واحدة وبتهمة واحدة!!

هل هكذا يبدأ الموت . . برسائل . . بغربة . . وينتهي بلا قبر حتى!!

هل المصائر تتشابه إلى هذا الحد؟

يشبهون بعضهم البعض . . حتّى في الموت . . هكذا هم المنفيون!!

أشمّ الزنبق من رائحة دمعها
هو٢

مرت ثلاثة أيّام لم يتكلّم يحيى فيها ولا كلمة واحدة!! شفتاه مزرقتان وعيناه ملئتا بالفراغ، وأهدابه مثقلة ببخار دموع، يهرب بعينيه تارة إلى السقف وأخرى إلى الأرض .. يربكني الفزع الساكن في عينيه وأتساءل بحيرة:

- هل سينجو منها؟
- هل مازال في كامل عقله؟ أم أن موتها قلب موازينه وغير حساباته!!

كلنا في الزّنزانة نفكر في يحيى، ماذا نقول له؟ الموت صعب!

الموت صعب ويكون أصعب عندما لا نستطيع أن نودع الأحباب وأن نلقي النظرة الأخيرة ونطبع القبلة الأخيرة على جبين الأمّهات!!

هل هكذا يبدأ الموت ... .برسائل .. .بغربة . .بأسر .. .وينتهي بلا وداع!!

يشبهون بعضهم بعضاً . .هكذا هم الأمّهات!!

يرتجف من البرد، ويرفض الغطاء الذي أحاول أن أحيطه به، أذهب لأحضر له كأس شاي .. يرفض . أعود بكأس ماء، لا فائدة . أحاول أن أُخرج صوته من قضبان صدره كي يتخفّف مما هو فيه .. فيسحقني صمته . أخاف عليه!!

سيفتقد يحيى أمه . . وسنفتقدها نحن أيضًا . . سيفتقدها معتقلو الدوريات (معتقلو الدول العربيّة الذين لا يُسمح لأهاليهم بزيارتهم) . . الكلّ كان يعتبر أمّ يحيى أمه . . تحمل لهم خيطًا من نور تسحق لهم العتمة وتزيّن السّجن . .

بخطوات متعبة خرجت أمّ يحيى مع أمّي في الثالثة صباحًا إلى مقر باصات الصليب الأحمر ، صائمة ، رأسها يؤلمها ، النبض الضعيف يعرقل خطواتها لكنّها لا تستجيب له . تقفز عنه وتتابع المسير . لأنها تعرف أنّها ستستريح برؤية يحيى ، ونبضها سيقوى بسماع صوته ، ستطرب لكلمة يمّا من فمه ، تلهث وتلهث ، تجلس قليلاً على حَجَر بجانب الباص ريثما يأذنون لها بالصعود ، تخرج صورة يحيى من قبة ثوبها ، تحكي معه :

- سَقى الله وْأَنا مْكَحْلَةْ عِيْنِي بْشُوُفْتَكْ يا حبيبي ، بِدّيْش إِشي مِنْ هَالدّنيا غِيْر إنّي أشَوفَكْ! تمسك بها ختيارة أخرى . . تسندها بيدها . . لتصعدا الباص . . تقول لها : شِدّي حِيْلّكْ يا حَجّة ، قرّبَتْ كُلها اكَمّنْ ساعَة وْبِتْشُوفِيه!!

شعرت بجسدها يخف ، وظمؤها على وشك أن يُروى . . قاب قوسين أو أدنى . . أضحت من يحيى . .

لكنها لم تتحمل مشوار الطّريق مع شدة المرض . . ماتت بصمت على كرسيّ الحافلة . . ماتت قبل أن تصل بدقائق!!

بعد أيّام قليلة بدا يحيى رائقًا ، بمزاج ربيعي ، تكفل الموت بصناعة وهم جديد وحلو في حياته . . للموت شظايا تمتد من الحد إلى الحد . . وجعه النائم ، أنينه الصامت ، أنفاسه المضطربة . . شكلت وهمًا جديدًا!! بين الحقيقة والوهم . . لم يلتبس الأمر عليّ . أدركت أنّها

تأتيه كلّ ليلة ، يشم الزنبق من رائحة دمعها ، يلقي برأسه على صدرها ، يضحك وهي تحدّثه عن خالتة هنية وأولادها السرسرية ، تخبره عن مشاويرها للمستشفى وأدويتها وقائمة الممنوعات والمسموحات التي يكتبها الطبيب ، تحكي له عن العزومة التي عملتها لابن عمّته سمير القادم من بلاد الغربة ، يشتم رائحة المفتول الذي تفتله بيدها ، تدق له البصل وعين الجراد ، ترش الملح والفلفل الأسود ، تخلطهم وتعمل حفرة في الوسط ، تضع فيها الخلطة ، تُهَبِّلُهُ على مرق الدجاج وتضع فوقه الحمص الحبّ والقرع والبطاطا والدجاج . فجأة يقول يحيى :

- أنا جائع!! أفهم عليه . . لقد سال لعابه من الرائحة المتخيّلة . . أفهم يحيى أكثر من نفسي!!

يحكي . . يحيى :

- كانَتْ تِفْهَمْني على الطايِرْ .

- كنتُ فتى في السّابعة عشر من عمري يوم اعتقلوني أوّل مرة . سرقت خوذة جنديّ يهوديّ وهربت هكذا مماحكة . . اعتقلوني عشرين يومًا وبعدها أخرجوني . . أفرجوا عني ، يومها قلت لأمي :

- لما دخلت السّجن شَعَرتْ حالي زَيّ الجاجِة الـمَمْعوطَة . . ما إلي مَكانْ بيْنِ الأُسُود . . يومها أمّي فهمتني وقالت لي :

- إنتَ مِشْ مْطوِّلْ ، رَحْ ترْجَعْ للسجن!!

وفعلاً رجعتُ بعدها . . ليس وحدي بل مع إخوتي الثلاثة ، لم تعرف أمّي تهمتنا إلاّ من التلفزيون . زغردت عندما عرفت أنا قتلنا مهندس طيران يهوديّ . . وتوزعنا على أربع معتقلات ولحقنا أبي في معتقل خامس!!

عندما حكموا علينا بالمؤبّد . . زغردت وملأت القاعة بالتكبير وعندما سألها القاضي اليهوديّ لماذا تزغردين وأولادك حُكم عليهم بالمؤبّد!!

قالت :

- اِبنْي حَرَقِ قْلُوبِ إلّي سَرَقوا أَرْضُه . . ابْني ما تَرَكِ الزْناد وما خاف . . ابني سَبِعْ من ظَهْرْ سَبعْ وعَشان هِيْك أنا فرْحانة وَرحْ أظلّ أزغرد!!

قال لها القاضي يومها :

- لا يحقّ لأم مثلك أن يكون لها أبناء يكفنونها عند الموت . لقد أنجبت أربعة إرهابيين ودولة إسرائيل ستحرمك منهم لآخر لحظة من حياتك ، فقالت له وأنفاسها السّاخنة تلسعه :

- زَيْ ما أَخَذْتُوْ وْلادِي من حُضْني اللهْ يِنْتَقِمْ مِنَّكُ وياخْدَكْ من بِيْنْ ولادَك!!

وفعلاً دعوتها كانت مستجابة ، فقد قُتل هذا الضابط فيما بعد أثناء اجتياح بيروت عام ٨٢!!

كان يحيى ينتظرها غير مصدق أنّه سيراها بعد خمس سنوات من الحرمان ولكنها أسلمت الرّوح على بعد أمتار من بوابة السّجن!!

قال لي :

- يا أبو رجا . . ماذا لو انتظرتْ قليلاً؟ دقائق فقط!! ماذا لو جعلتني أشمّ رائحة ثوبها!! أيُعقل أن تتركني وقد لبست ثيابي الأجمل ، ونثرت العطر ، وتظاهرت بطيب حالي ولوّنتُ وهج جراحي!!

لماذا تسلل الموت إليها فأغمض عينيها؟ لماذا لم يمهلها؟ سخر منّي ومنها!!

ياه كم أتعبني سعيي بين الظّلمة والجرح!!

أمي أخت رجال تحمل هم أربعة أبناء موزعين على المعتقلات ما بين معتقل بئر السبع ونفحة والظاهرية ومجدو!!

**

يحيى مثل قطعة السُّكّر!! في الزّنزانة يلجأ إليه الجميع، يُطيِّب خاطر المحزون والمكلوم، يطلق النكات هنا وهناك، عندما نفقد أعصابنا لسبب ما.. كان يفسر لنا الأمور بشكل منطقي.. يجعلنا نهدأ ونُعمل تفكيرنا، يستطيع الاحتفاظ بهدوئه في أحلك الساعات. كان مرجعنا عندما تضطرب الأمور ويختل الميزان لكن عندما ماتت أمه لم نستطع أن نفعل له شيئًا!!

وقفنا مشدوهين.. ولم نستطع أن نخفّف عنه.. هو من خفّف عن نفسه. عندما ماتت أمه لم يبك.. أنا من بكيت!! يدي تشد على حزنه المجفّف.. أنهال عليه تقبيلاً وضمًا.. يقول:

- ماتت أمّي قبل أن أراها وتراني.. قبل أن تكحل عينها برؤيتي!!

**

كيف أستطيع أن أصف المشهد مرّة أخرى كما رواه لي أخي أبو رجا!! ما أروع أن تمزق صفحة مؤلمة من الذّاكرة وما أثقل القلم وهو يستعيد الحكايا!! الله يسامحك يامريم!!

صفارة الإنذار
هو ٢

في السّجن تشمّ رائحة الموت دومًا ولكن هذه الرائحة هي التي تقودك للحياة!! وفي الحياة قد تفقد كثيرًا من حروف الأبجدية . . لكنّ السّجن يعيد ترتيبها وبريقها فيصبح لها معنى ولون .

الابتسامة في السّجن لها معنى ، ومحمود كانت ابتسامته لا تفارقه . . وهدوؤه يلقي علينا الضيق . . في بعض الأحيان!! . . ابتسامته علمتني أن أحلك الساعات وأشدها احتراقًا . . قد أجد فيها السكينة والهدوء لأنّي على يقين بأنّ نزفي له خطّ نهاية!! ولأنّي وأنا الأعزل الحافي أرى الضّوء المتسرّب من زوايا يقيني!!

السّجن يعلمك أن لا تنظر في منفضة السجائر كما أنّها تجربة للاحتراق بل إنّها بقايا نار تحت الرماد صالحة للاشتعال مرّة أخرى!! وفي السّجن تتعلّم أن لا تصوغ فكرتك . . منهجك . . في ضوء تجارب الآخرين فليست الحكمة دومًا أن تتعلّم من تجارب الآخرين . .!! أجمل وأعمق النّتائج هي التي نصل إليها بأظافرنا وتجاربنا ؛ ذلك أن النّتيجة التي نصل إليها عبر الآخرين تشيخ بسرعة وتموت مبكرًا . . لا بدّ أن تواجه وأن تفتح عينيك على كلّ شيء حتّى تشفي غليلك . . قد نجرب المجرب ونحن نعرف أننا ننتحر وننطفئ ، ولكن يبدو أن رائحة المجهول دومًا ألذ!!

عندما أُطلقت صفارة الإنذار في السّجن وأُعلنت الطوارئ ورأيتُ قوّات الجيش وحرس الحدود قد ضربت طوقًا أمنيًا حول المعتقل وبدؤوا في اقتحام السّجن . . عرفتُ حينها أن عمليّة هرب محمود ورفاقه الثلاثة قد نجحت!!

في السّجن نتعلم كيف نتنفّس بصمت وكيف نخبئ كمان الفرح ونمتطي صهوة جواد إلى السّماء . كدتُ أزغرد مثل أمّي وأنا أرى الشرر يتطاير من عيني مسؤول الشرطة العسكرية في المنطقة!!

كان في الرابعة من عمره عندما أطلق جنود الاحتلال النّار على والده في حرب ٤٨ ، لقد مزقوا جسده بعشرين طلقة . . توغل الموت سريعًا في جسده من أوّل رصاصة!! ولأنهم أقزام ظنوا أن العمالقة لا تكفيهم رصاصة واحدة!!

دمعته الجائعة للهطول لم تبق حائرة . . هذا الوجه الهادئ والابتسامات الرّقيقة تخبئ خلفها الكثير . . انبلجت من الدمعة الثائرة نار ظلت تتوقد وتتوقد حتّى طعنت جنديّا صهيونيّا بالسكين وحُكم محمود بـ٦٥ مؤبّدا!!

لكن الرصاصات التي اخترقت جسد والده مازالت ترن في أذنه ، والسكين التي زرعها في صدر الجنديّ الصّهيونيّ لن تتوقّف عنده . . يدخل محمود الزّنزانة . . تتكرّر الحكايا وتختلف الأسماء!!

- كيف نجحت العمليّة؟

- كيف استطاع الأسرى أن يخنقوا الصّوت الصادر من قطع القضبان؟

- كيف استطاعوا أن يقصوا شريط الظّلمة ويوقفوا نزف الحنين؟

الذهول يصيب الجهات الأمنية والعسكرية الإسرائيليّة بخاصّة

وأنّ السّجن بقسميه الأمني والمدني يقع داخل مبنى الحاكمية الإسرائيليّة ، حيث الحراسة مشددة على مدارات السّاعة ، وحيث الأضواء ساطعة جداً في الساحة الدّاخليّة للسجن . . لقد كانت عمليّة الهرب رعشة النّور التي اخترقت أقفاص الحديد . . وصمة عار اغتالت جنرالات إسرائيل وأحرقت أوراقهم التي كانوا يباهون بها!!

– ماذا فعلوا؟

لم يفعلوا شيئًا (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . . في هربهم هذا ما حصل!! كانوا يعدون للهرب عدته منذ ستّة أشهر ولكن محموداً كان كعادته كتومًا وفرض السرية والكتمان على رفاقه الثلاثة . . طوال ستّة أشهر لم نشعر بأيّ شيء غريب أو غير اعتيادي في زنزانتنا . . لم أسمعهم يخططون . . أو يدبرون . . أو حتّى يفكرون ويهجسون . . في كلّ ليلة كانوا يقومون قبل الفجر بساعة . . يصلون قيام الليل ويقرؤون القرآن . . يأخذنا محمود بصوته العذب إلى شاطئ السكينة ونحلق في فضاءات واسعة . . كنّا نرجوه أن يؤمنا لعذوبة صوته . .

في ليلة متضاربة الألوان والضباب يترك آثاره المبهمة على السّماء . . بينما الجنود يشربون . . ويضحكون . . حَدَّ الثُمالة بمناسبة عيد الفصح اليهوديّ . . وكعادتهم قبل صلاة الفجر بساعة نهضوا أربعتهم . . لكنّ هذه المرة أيقظونا جميعًا وودعونا!!

تسمرتُ في مكاني . . لكنّني قلت :

– أخيرًا . . خرج منّا من يكسر قضبان المتاهة التي نعيش!!

سحبتُ يدي من كفه بسرعة . . وأبعدتُ عن رأسي صورة الجرح الغائر الذي نقشه صبحي من قبل!!

خِفْتُ أن يحصل معهم ما حصل مع صديق دربي (صبحي) . . الذي كان يعمل جبرًا في مطبخ السّجن . .!!

ذات مساء اختبأ (صبحي) في صناديق سيّارة التموين ، وبعد أن اجتازت السيّارة بوابات السّجن قفز من السيّارة دون أن يشعر أحد . . حتّى السّائق!!

وعندما اكتُشف أمره أثناء العد الروتيني . . انقلبت الدّنيا ولم تقعد . . استدعوا كلّ من كان معه في الزّنزانة لمقر المخابرات وللتحقيق مجددًا . . والتّعذيب . . والعزل أيضًا . . عادت الكَرَّة مرّة أخرى ولكن بجنون!!

أرادوا أن يعرفوا كيف هرب ، ولكنّنا لم نكن على علم مسبق بما سيفعل . . لأنّ فكرة الهرب كانت لديه وليدة اللحظة .

وقتها أعلنت حالة الطوارئ وشددوا الحراسة والتفتيشات ولم يمض وقت طويل حتّى عاد (صبحي) إلينا وهو يلبس البدلة الحمراء للمحكومين بالإعدام . . لم نتعرّف عليه بسهولة . . فالازرقاق والانتفاخ غيّر ملامح وجهه!!

رموه في الزّنزانة كقطعة لحم بلا عظم . . لم يستطع الوقوف ولا تحريك يديه ولا قدميه ، وكانت عيناه تدوران كبندول السّاعة الخرب بلا قرار!! . . لقد كان غضبهم دمويًا عندما وقع في كمين إسرائيليّ وهو يتجه شرقًا نحو الأردن ، حيث اكتشفوا أنّه السّجين الهارب!!

بعثرتُ أفكاري السوداء وهواجسي اليائسة . . واستبدلتها بالدّعاء لهم!!

نجحوا أربعتهم بالهرب . . قفزوا واحدًا تلو الآخر من نافذة الحمام الضيّقة . . حشروا أجسادهم النّحيلة التي فقدت عشرات الكيلو

غرامات في الفتحات الضيّقة ، كنور ساحر انفلتت أجسادهم بخفة . . كان حراس السّجن بجوارهم لكنهم لم يروهم!! أقسموا أن الجنود لم يروهم وقد مروا بجانبهم . . نزلوا من الشّباك واحدًا تلو الآخر . . قفزوا إلى سطح الدور الأوّل ثمّ الأرضي . . تجاوزوا كلّ المباني التي كانت الشرطة تستخدمها من مبنى الإدارة إلى المنامات إلى المطبخ وقاعة الطّعام ومنامات السّجناء اليهود ذوي المعاملة الخاصة . . عرفنا كلّ ذلك من أحد المعتقلين الجدد الذي التقاهم بعد عمليّة الهرب الناجحة وقام معهم بعمليّة هزت الكيان الصّهيونيّ واستُشهدوا أربعتهم . . ونجا هو ليقع في الأسر ويسترجع ويحكي لنا قصّة هروبهم!!

لقد هربوا . . لكي يخرجوا من غيبوبة السّجن بين الحياة والموت . . إلى يقظة الحياة الممزوجة بعطر المقاومة لآخر قطرة دمع!!

مَنْ غَيرُهم تمتد يده بلا ارتعاش
هي

كنتُ ألمحُ في عينيكَ . . انكساراً . . وحرائق مشتعلة وخطايا أمة تصحو وتنام على المراثي وتغرق في أكوام القتلى دون أن تلمح وميضاً . . ، كان ينعقد لساني ولا أعرف كيف أخفّف عنكَ وعني!!

سأحكي لك حكاية الحمامة التي كسرت الطوق يا أبي وأضحت قادرة على الطيران دون الالتفات لخوف أو تهديد طاغية . حكاية تجمع البلاد والعباد وتطفئ الحرائق وتكسّر الأغلال .

أسمعك تقول . . .

- والله يابا . . ما في فايدة!! الرجْعة مْطَوْلِة!!

لكن هذه الوجوه السابحة في الذكر والترتيل . . تُنبئُني بغير ذلك . . صوت زفيرها ينفضُ الوهن ويُنعش أنفاسي المثقلة برطوبة العجز!! نظراتهم تُنزل الوطن من على المقصلة . .!! وأيديهم القابضة على الزناد تسقي النّوار النابت . .

أقف الآن قِبالتهم تماماً ورفيقات دربي بصحبة جميلة الشنطي والقائد العامّ لكتائب عز الدين القسام (أبو أنس)

حينها فقط ينخلع قلبي بصرخة لا يسمعها سوى أبي :

- قرَّبت والله قرَّبت . . .

يلبسون زيهم العسكري . . يخفي بعضهم وجهه تحت اللثام . يعتمرون رشاشاتهم ومضادات الدروع ، بهم يتحوّل ليل غزّة إلى حلم . . إلى مهرجان من الفرح . . بهم تنزع غزّة ملابس الوحشة والخراب وتلقي بالسكين الحاد الذي أدماها ، وتلبس معطف التوهّج والانتصار ويذوب الحزن والخذلان!!

آلاف الشّباب من مختلف الوظائف والمهن . . طلبة ، تجار ، شباب وكهول ، كلّهم يخرجون لخطوط التماس الإسرائيليّة . في كلّ ليلة يخرجون من أذان المغرب ويعودون مع تكبيرات الفجر . . ليخرج كلّ منهم إلى جامعته ووظيفته دون نوم وبمنتهى الاشتعال والتوقد والهمة!!

نظرتُ في وجوههم . . كانت ملامحهم مرتاحة ، أصواتهم صافية وحارة ، وأصابعهم ثابتة على الزناد ، أشمّ رائحة التّراب الذي يدوسون عليه ، هي مزيج من الدّمع المجفّف والدم المشتعل!!

الرباط يعلمهم أشياء كثيرة . . يعلمهم أن يقللوا شغفهم بالدّنيا ويعلمهم أن يقفوا أمام الله في كلّ ليلة . . يرممون الثغرات والفجوات التي حدثت في نهارهم . . يستعيدون أنفسهم من أنفسهم ، يعلمهم أن يعشقوا الحياة!!

إنهم يعيشون الحياة بكل فصولها . لا يقفون خلف الأبواب والنّوافذ يرقبون القادم . . بل ينطلقون ويقاومون السقوط لآخر لحظة . يتعلمون أن الدّنيا لا يمكن أن تكون على مقاسهم ولا كما يشتهون فيصنعون من الخيبة والقلق والخوف حقيبة يُلقونها في عُرض البحر . . يستعيدون عافيتهم ونضارتهم . في كلّ ليلة يُشعلون شرارة الوصل مع الله فيرتفع منسوب اليقين ويغدو القلب واسعًا مخضرًا متحرّراً من خشونة الدّنيا . يلمحون ميلاد الشمس بين أيديهم . . كلّ ليلة تعني

صعودًا جديدًا نحو القمة وإدمانًا لذيذًا يحرر النفس من قيود المنحدر . . كلّ ليلة تعني تقاطعًا مدهشًا وجديدًا بين الموت والحياة!!

الآن أُغمض عيني مع أنّني أرغب بالنظر في أعينهم لأكتشف هذه الخلطة العجيبة!! لكنّني لا أستطيع . . لا أستطيع النّظر في عيونهم المحملة بإرادة الحياة ، الساخرة من لسع الموت . . الحالمة بفجر يقطر ندى يقود للصحو!!

ياه . . ما أروع هذه العيون وهي تسخر من غبار الموت والرصاص والانطفاء!! لماذا لا أستطيع النّظر في هذه العيون؟ شيء ما يدفعني لأدس عيني تحت جفني!!

أتراكم بنظراتكم تضعون حدّاً للمهزلة التي نعيش؟ أتراكم تكتشفون ضبابًا ودخانًا يندلق من أعيننا؟ في هذه اللحظة أقف أمامكم كشاهدة على روعة إجاباتكم وتفاهة أسئلتنا . في هذه اللحظة أخجل أن أرفع رأسي لأنظر في عيونكم .

انتابني شعور غامض ، إذ شعرت بأنّ حياتي كلها كانت بلا معنى . كنت أظن بأنّي أحيا وأعيش حياتي طولاً وعرضًا!! لكنّني اكتشفت بأنّني أحيا حياة الوهم المريح . . أنفاس تكفيني لأبقى داخل الدائرة المجنونة . . أخادع نفسي وأعيش!!

كذبة جميلة ابتدعتُها حتّى أستطيع الاحتمال . . اعذروني فقد كنتُ أدرّب نفسي على حياة تشبه القشة في هشاشتها وصمتها وضعفها . أنا الآن أقف بين أيديكم ، وكلما حاولتُ رفع رأسي لأنظر إليكم تحوّل الوهم الذي أحيا إلى حقيقة بكل ما فيها من قسوة ولسعة!! إلاّ أنها تزرع الدفء واليقظة والغليان!! أتألم ولكنّني أتكور كجنين جديد في رحم أمه .

منذ سنوات وأنا أعالج يقيني . . اليوم شفيت تمامًا وعرفت كيف يتناغم الجسد مع الروح!!

أي نظرة يمكنها أن تخترق هذه العيون اللامعة كخنجر . . النّاعمة كوردة . . الشفافة كقطرة ندى!!

في هذه اللحظة بالذّات أركل أبواب الصّمت . أبصق في وجه كلّ الذين يخبئون رؤوسهم في رمل المعاهدات والاتفاقيات .

في هذه اللحظة بالذّات خرجت من الدائرة المفرغة التي كنت أدور بها وتدور بي . لفظتها . أمطت اللثام عن الصفر الذي يعبث بي . . في هذا المكان أعيد التفكير في مفاهيم المقاومة واليقين والموت . . الآن يتعملق اليقين الذي كان يتأرجح على حبل قلبي وتتعملق المقاومة . . أسمع صوت أساورها وأقراطها وسناسلها وهي تزيّن برنينها جيد الوطن!!

**

الهواء منعش وخفيف . . لا ضوء إلاّ ضوء القمر وبعض فلاشات الكاميرا التي تصورنا ونحن نحمل الآر بي جي . . السّاعة الآن الثّانية بعد منتصف الليل . . نحن الآن في موقع جديد شمال شرق قطاع غزّة هذا كلّ ما أعرفه . . فالاسترسال في الأسئلة ممنوع حفاظًا على أمن المرابطين!!

أنظر في المدى المفتوح على طول العنفوان . . من بعيد يجهر ضوء لموقع من مواقع الاحتلال يقول قائد الكتيبة :

- يرابط المقاتلون خلف آخر نقطة سكنية فلسطينيّة . . إذ يكون بينهم وبين مواقع العدو وآلياته بضعة أمتار فقط!! قديماً كان الوضع آمنًا

أكثر . . أما الآن فالرباط أصعب بكثير . . فكما ترون لا شجر ولا جبل . . فالاحتلال جرف أكثر من مليون شجرة . . هذه الأشجار كانت تقوّي مناعة شعبنا وتمثل حاجزًا طبيعيًا أمنيًا . . أما الآن صرنا في مرمى قوّات العدو ، والبركان يلقي علينا بحممه!!

أنسحب إلى قلمي وأكتب :

من غيرهم تمتد يده بلا ارتعاش . . من غيرهم يملك حق الكلمة وحق الرصاصة!!

تتوقّف السيّارة وتسكت محركاتها التي تخترق صمت الليل ، ننزل من السيّارة ، نتعجل لقاء الكتيبة الأخرى . .

يقف قِبالتنا شابٌ متوسط الطول . . خفيف اللحية ، أمامه كتيبة كاملة من الشّباب ، يتحدّث ، كلماته تشبه خشخشة المطر حينما يعانِق التّراب . . نفتح عيوننا على نور يواري الضباب!!

نحدق بدهشة في ملامح الشّابّ الذي يحكي :

– عندما يقف المرابط عند هذه النقطة الحدودية ، لا يرصد ويراقب توغل الاحتلال في القطاع فقط . . بل هو يجمع ويراكم المعلومات التي يحصل عليها من مراقبة مواقع الاحتلال حتّى يستعين بها في تنفيذ العمليات العسكرية ضد المواقع والآليات العسكرية . . هذا الرباط الليلي أكسبنا معارف واسعة في جغرافيا المنطقة . . علمنا تكتيكات القتال وكلّ ذلك زاد من خبراتنا في مواجهة الاجتياحات!!

السّاعة الآن تشير إلى الثّانية والنصف فجرًا . . نسمع أصواتاً مريبة . . تشبه صوت دوي النحل . . يختبئ المرابطون . . ينبطحون أرضًا خلف ساتر ترابي وحجري . . على أرض قاحلة . . يتحفزون لكلّ حركة قادمة من صوب الشرق نحوهم!!

مجموعة من المرابطين أحاطت بنا لحمايتنا . . إلى أن جاءت إشارة لاسلكية إلى مجموعة المرابطين تفيد بأنّ هناك تدريبات عسكرية صهيونيّة . . لكنّها بعيدة نوعًا ما!!

قام المرابطون . . فيما أكمل القائد الميداني :

- لا تخافوا نحن نقف عند الخطّ الثّاني (سلاح المشاة) فالخط الأوّل يتمركز فيه الاستشهاديون في مناطق التماس مباشرة وتقع أماكنهم على بعد عدّة أمتار من اليهود ويكونون مسلحين بشكل جيد!! أما الخطّ الثالث لنا هو لسلاح المدفعية وهو يتولى قصف قوّات الاحتلال بالمدفعية بكثافة نارية عالية لمشاغلته عن الاستشهاديين والمشاة ليتمكنوا من إيقاع خسائر في صفوف الاحتلال ، فيما يختص الخطّ الرابع لسلاح الدّفاع الجوي وهو سلاح يكون بعيداً عن المناطق الحدودية ويتصدى لطائرات الاحتلال بالأسلحة النّارية . .

أواصل الكتابة . . لأنّ أبي سيتصل بي كما في كلّ يوم يسأل عن الأخبار .

أكتب ما يقوله القائد الميداني عن أحد الاجتياحات للقطاع :

- في أحد المساءات كانت المواجهة . . كنّا حوالي عشر مجموعات مرابطة وأبلغونا أن هناك حشودات على الطّريق تمهد لعمليّة اجتياح . . حينها تمّ إبلاغ كافة المجموعات التي هي خارج المناوبة استعدادًا للمعركة!! نشرنا مجموعات في الخطوط الوسطى والخلفيّة وبين مساكن المدنيين حتّى يتم حماية المنازل . كلّ مجموعة لديها عبوات جانبية وعبوات أرضيّة وزرعنا بعض العبوات بشكل ثابت وبعضها بشكل متحرك . طبعًا كلّ مجموعة معها خرائطها وتعرف المهمات الموكلة إليها مسبقًا!! وأهم سلاح لنا في الاجتياحات هي

العبوات الموجهة والقذائف المضادة للدروع والآر بي جي وصواريخ البتار . .

أتساءل الآن وسط هذا الامتلاء وسمفونيات المقاومة تعزف على ناي الآر بي جي :

- كيف تقف هذه الأسلحة الحقيقية في مواجهة الصلف والقوة والوفرة في الأسلحة الصّهيونيّة؟

يجيبني القائد الميداني حتّى قبل أن أسأل :

- أحيانًا لا نصدق أعيننا ونحن نرى الجنديّ الإسرائيليّ مدجّجا بسلاحه يقف أمامنا نحن العزل تقريبًا ويبول على نفسه خوفًا!! نحن نقر بضعف سلاحنا وقلته . . إنّه يشبه وردة وحيدة لكنّنا اخترنا الكتابة عليها بالدم . اخترنا المقاومة قبل أن تبتلعنا الأرض كجيف!! اخترنا حياة الموت الذي نعثر عليه على الموت الذي يعثر علينا . . لا تظنوا أنّي أتمادى في التفاؤل . . المسألة ليست معقدة ولا صعبة . . إنّها شعلة الإيمان المتوقدة . . هي التي تجبر كسر السّلاح!!

سأحكي لأبي قصّة الاجتياح لغزة كما قالها لي القائد أبو أنس :

عندما دخلت القوات الخاصة الصّهيونيّة وفرق الموت في الحرب الأخيرة . . اتجهنا فورًا إلى أسطح المباني المرتفعة حتّى نسيطر على الحارات والزقاق ونتحكم بحركة المرابطين . حينها قام المرابطون بالاشتباك مع هؤلاء القناصة بالأسلحة الأتوماتيكية حتّى يُشغلوهم عن مساندة القوّة الرّئيسيّة من مظليين وهندسيين . هذه المجموعات المرابطة أيضًا واجهت مروحيات الاحتلال التي ترافق المهاجمين وتفتح نيرانها على الأهالي . يتصل أبي وأنا أكتب «نوتات» حتّى أتذكّر عندما أصل إلى عمّان ، يقول لي أريد أن أقرأ أعماقك وصوتك الدّاخلي

وأحاسيسك ، أريد أن ألمس الطوفان الذي يعتلج في صدرك ، إيّاك أن تتركي فراغًا أو شيئًا معلقًا!! . . أسمع حشجرة دمعه . . واختناقه وأنا أحكي!!!

أكمل :

- الحمامة كسرت الطوق يا أبي ، أضحت قادرة على الطيران دون الالتفات لخوف أو صمت أو هرب . . إنّهم يقومون بفتح ثغرات في البيوت وينتقلون من خلالها ، يكمنون للجيش ، يصطادون الجنود ، يقضمونهم قضمًا ، يسيطرون على المناطق التي يتوغل فيها الاحتلال ، يستخدمون العبوات الناسفة بمهارة . . يفجرون الميركافا . .

إنهم يباغتون المهزومين والجبناء والضعفاء . . إنّهم يقفون على رؤوس أصابعهم يفخخون مواسير المياه والحنفيات وصنابير المياه على جدران المنازل حتّى إذا ما اقترب جنديّ من الجدران للاحتماء بها تتفجر به!!

**

نذهب إلى موقع آخر أقامته كتائب القسام للتدريب . . بيوت حجرية وحبال وأنفاق وسواتر ترابية هائلة . . نتجول داخل البيوت الحجرية في هذا الليل . ستتركنا الكتائب معلقين على حبل الشّوق والنور يخرج من ذرات التّراب ملتمعًا نابضًا .

انحنيتُ أُلملم التّراب . . أركض من هنا لهناك كطفل غمرته لوثة سعادة . . ندخل إلى بيت حجري آخر يرشق الخوف تحت دهشة المرابطين . . نطالبهم بأن يكون لنا حظ من الرباط والتدريب!!

**

خرجتُ من المكان وأنا أتمتم :

هل ستبقى هذه الحرارة في شراييني؟

أركب السيّارة وما زالت عيونهم وكلماتهم وقاماتهم تلمع في فضائي . . مازالوا يملؤون أيّامي القادمة بأحلامهم وشمسهم ودفئهم . .

نصل الفندق . . تخلع آمالُ عباءتها . . المغبرة بتراب الرباط . . تضعها في كيس خاصّ وتحلف أن لا تغسلها كي يبقى تراب الأرض المباركة عالقًا . . في قلبها . .!!

أفهمها . . فهذا التّراب . . ينزف ويقطر دمًا . . هذا التّراب كفيل بإعادة التوازن إلى حياتنا ، بهذا التّراب سنتعلم كيف . . نفرح . . وكيف نقبل جبين الأرض ونضمها حتّى تأخذنا غفوة الاطمئنان!!

حكاية من الشرق..
حكاية من الغرب!!
هو ١

ذاكرتي ملتهبة بحكايا عمك يا مريم!! لكن لا أدري ماذا يحدث لي عندما أبدأ بالكتابة عن أسْر عمك أبو رجا كما طلبت مني!!

عندما أمسك بالقلم . . ترمي إليَّ ليبيا بشرر . .!! أحاول أن أفرغ الذّاكرة مما علق بها من مشاهد السّجن التي حكاها لي عمك أو بعثها لي برسائل عندما كان في الأسر ، لكنّ الذّاكرة تصرّ أن تسير بي في اتّجاهين متوازيين . . وما أن ألتقط حادثة نائمة في سريرها . . أداعبها . . أناغشها فتستيقظ جذلى . . حينها تستيقظ حكاياي في الغربة!!

يا إلهي . .!!

كيف تستيقظ االصّور والمشاهد دون أن أوقظها . . حكايا من المشرق تعانق حكايا من المغرب . . لا أجرؤ على مقاومة ذلك الإغراء . . تختلط أنفاسي المضطربة بكلمات عمك . . ما أبعد المسافة وما أشبه الأحداث . .!! عندما ينفتح جرح . . تتداعى جراح!!

تتبدل ملامحي . . وأصيح بضيق والقلم بيدي . . أقول للذّاكرة :

– ابتعدي عني . . لكنّها تصرّ أن تلاحقني .

تحدق مريم في وجهي وتقول لي مشجعة :

– اكتب يا أبي . . اكتب كلّ ما يخطر على بالك . . إذا كانت

الذّاكرة تشدك للأعلى . . إيّاك أن تشدها للأسفل . . اكتب عن اليهود والرصاص والسّجن والطغاة والسفلة والقتلة . .!!

صحيح أنّني كنت أريد أن تكتب تجربة عمّي أبو رجا في السّجن . . لكن لا يمكن أن تتجاهل ذاكرتك في ليبيا . . هذه الذّاكرة كالمسمار . . لا تقتلعه إلاّ بالكتابة!!

أكتب :

لا أدري كيف احتملت تبعثر الحكايا وازدحامها في رأسي كلّ هذه السنين!! عندما بدأتُ بالكتابة ، بدأت روحي تتعافى قليلاً ، كنت كلّما كتبت سطرًا أشعر بنسمات عجيبة . . كلّما كتبت تبدلت الريح السّاخنة التي تلسع رأسي بنسمات منعشة باردة ورائقة . .

أتساءل ما الذي يحدث لي؟ لم أفكّر بالكتابة من قبل!! ما أصعب الكتابة وأنا في هذه السن . . وأنا أنبش الذّاكرة . . ماذا يحدث لي؟ عندما نرمي أوراقنا الصفراء الجافّة لماذا نشعر بالرشاقة وكأننا ولدنا من جديد!! ألأننا سنحمل أوراقًا خضراء جديدة تبشر بربيع جديد؟ أم لأنّ الأحداث والمشاهد المؤلمة تجعل الحياة ثقيلة وصعبة ، لكن عندما نتخفّف منها بالكتابة . . تصبح محتملة!! لا أدري!!

كيف احتملت كلّ هذه المساخر . . لا أدري!! خمسة عشر عامًا قضيتها في ليبيا والغضب قميص شفاف . . أمزقه كلّ صباح!!

في كلّ رمضان (والدّنيا زَيّ النّار) . . وقبل أذان المغرب بنصف ساعة والعصبان والكسكسي تزيّن مائدة فلسطينيّة ، يبث التلفزيون الليبيّ مشهدًا لإعدام كلب من الكلاب الضّالة كما كان يسميهم القذافي!!

كيف كانت تنزلق اللقمة في حلقي لا أدري!! يجب أن أفك

صيامي . أغَص بشربة الماء . . يا إلهي أكاد أختنق . . يطاردني هذا المشهد في كلّ رمضان وبعد كلّ هذه السنين!!

يا إلهي كيف لا تبهت الصّور . . رغم مرور السنين عليها!!

تُعد المشانق على عجل في بث مباشر . . حبلها غير موثق بعناية في العارضة الخشبية العلوية . . يُؤتَى بشاب لا يتجاوز عمره الثلاثين عامًا . . مكبل اليدين معصوب العينين وتهمته حسب المحاكم الثورية . . إرهابي من الإخوان المسلمين وعميل لأمريكا!!!

أزالوا العصبة عن عينيه . . وجهه هادئ . . ابتسامته عريضة وإن بدا عليه الذهول والاستغراب مما يحدث . . ينزل الضحية من السيّارة . . تحيط به أفراد اللجنة الثورية . . يركلونه . . يسبونه بكلمات بذيئة . . يتناوبون عليه بالأيدي والصفعات والعصي والبصق على الوجه . . تسيل دماؤه من جسمه ورأسه بغزارة . .!!

المكان هو ملعب بنغازي لكرة السلة . . الآلاف من طلبة المدارس والتلاميذ الصّغار يُتابعون عمليّة الإعدام . . الشّابّ مهندس طيران . . بارع في كرة السلة . . جيء به لا ليلعب مباراة كرة السلة . . بل ليعدم!!

يعلق الشّابّ على حبل المشنقة . . يعلقونه ككبش . . لكن لا يُريحون الذبيحة ولا يحدون الشفرة ولا يذبحونه بعيدًا عن أعين القطيع . .

تدخل راهبة ثورية قبل تنفيذ عمليّة الإعدام بلحظات . . تلوح بيدها . . تصرخ بأعلى صوتها :

مانْبوشْ كَلام اللسان . . . . نِبُو شَنْقُه في الميدان

صَفِّيهُم بالدم يا قايِد . . . . سِيْرْ ولا تِهْتَم

الرصاص خسارة فيهم . . . . عود وقيد انولع فيهم .

يعلقونه على حبل المشنقة قبل الإفطار بنصف ساعة . . وعندما يُخيل لهم أن عمليّة الإعدام قد تمت . . يقوم الأطباء بفحصه للتأكّد من وفاته . . لكنهم يتفاجؤون أنّه ما زال حيًا ، يعيدونه إلى حبل المشنقة من جديد ويتعلق اثنان من رجال اللجان الثورية بأقدامه . . حتّى يلفظ أنفاسه . ويتركون الجثة عارية تمامًا ، معلقة حتّى موعد الإفطار في اليوم التّالي ليعلق شابّ ليبي جديد!!

كل يوم رمضاني وقبل الإفطار بنصف ساعة يُعاد نفس المشهد . . خيرة شباب ليبيا ينامون في حضن الموت كرهًا ، لتخرج في كلّ يوم صرخة مشتعلة تنظر بخيط رفيع مرتجف نحو الطاغية . .

رمضان شهر الرحمة والغفران . . يقضي ساعاته في انتظار تأرجح شابّ من حبل المشنقة ، يتظاهر بالصوم . . بالصّمت ، ولكنّه وعند أذان الفجر يفزع ، يئن ، والعتمة تملأ ساعاته .

النور يلقي بجسده قريبًا من رمضان . . لكن لا يجرؤ على لمسه ، فالطاغية حول رمضان إلى شهر محموم بالدم . . كلّ يوم جثة!!

وجوه الشّهداء ما زالت محفورة في ذاكرتي . . ما زلت أذكر كف الصادق الشويحدي وعين مصطفى النويري وشفاه عمر دبوب . .

للوهلة الأولى وبعد مضي كلّ هذه السنوات عندما أسمع بقدوم رمضان ينقبض قلبي وأظل أراقبه من بعيد وعقلي يأخذني إلى صور ومشاهد لا تغيب!!

وابيضت عيناي من الحزن
هي

اليوم الجمعة هو آخر يوم لنا في غزّة . . صليتُ الفجر . . وقفت على الفرندة ألثم بحرك يا غزة . . أطبع قبلة على جبينك الطاهر . .

واأسفى على بحرك يا غزّة . .

هنا صار لي قلب وقناديل أفراح . . في غزّة صار لي ذاكرة تعبق بشذى النجوم . . هنا عرفت لأوّل مرّة حكايا الورد والبنفسج وطرت صوب الثريا بلا أجنحة . . استنشقت عبق الشّهادة وقبضت على الوحشة!!

هنا رشفت النّور من نبع المشكاة الأصيل . . ودلقت قهري وفوضى أفكاري ومشاعري!!

هنا منحتُ جسدي روحًا جديدة . . حيث روحي كانت ملأى بالأشواك . . تتوه في مدارات الغربة والظّلمة . . عبأت جرار روحي من لؤلؤ غزّة لتكفيني في أيّامي القادمة سَنًا وبصيرة!!

اليوم الجمعة سأحمل رموش غزّة في حقيبتي لأزرعها على عيني ساعة تُظلم فأرجع بصيرة .

**

نزلتُ إلى قاعة الطّعام لأفطر قبل رفيقات الدرب ، ولألحق بلقائي في فضائية الأقصى مع برنامج نسيم الصّباح حول انطباعي عن زيارة غزّة!!

رجعت إلى الفندق سريعًا لأجد الصّبايا على مائدة الإفطار وحقائبهن في الانتظار على الباب، فقد أصدرت الوزيرة جميلة الشنطي أوامرها بضرورة ترك الفندق وأن تكون الليلة الأخيرة لنا في منزلها لننام عندها ونسهر وتكمل لنا حكايا البحر الذي ألقى بأسماكه على الشاطئ في أصعب أيّام الحرب الأخيرة، يطوي روحه خجلاً يقدمها لأهل غزّة الجائعين!! صعِدتُ سريعًا إلى غرفتي ورتبت حقيبتي، وضعت الكتب التي أهدتني إيّاها الرسامة أمية جحا، رتبت التذكارات التي أهدتنا إيّاها الجامعة الإسلاميّة بغزة. رمل الأنفاق. زيت زيتون من الجامعة الإسلاميّة أيضًا. دقّة غزّة والتي تسميها فاطمة شراب رمل غزّة!! وبذر البطيخ الذي أهدتنا إياه مؤمنة ولفحات موشحة بنقوش الحطة الفلسطينيّة والعلم الفلسطينيّ. ومسابح بلون العلم أيضًا والشال ذا اللون السُّكّري المطرز تطريزاً فلاّحيّاً!!

تأكّدت أن لا بواقي.. في الخزانة، تحت السّرير، خرجنا بسرعة حتّى نلحق بخطبة الجمعة في مسجد الشاطئ الكبير. المسجد يكتظ بالوفود الجزائرية والتونسية والماليزية والليبيّة والمصريّة..

نخرج بصحبة «أبو عادل» بعد انتهاء الخطبة إلى بيت جميلة الشنطي.. حيث المنسف الغزيُّ في انتظارنا. الشّباب إخوة جميلة هم الذين ذبحوا وطبخوا بأيديهم في القدر الكبيرة على الكانون الذي كنّا نتدفأ عليه كلّ ليلة بعد انتهاء برنامجنا وسهرتنا عند جميلة!!

فُرد المنسف على الأرض.. نظرت بثينة وبكلّ تلقائيّة قالت:

– وِشْ ذا الخوريف اللذيذ!! أتبعتها آمال بكلمة خيااااااااااال.

أكلنا منسفًا غزياً لأوّل مرّة وهو مُعد من الخبز والرز واللحم ومرق اللحم.. ثمّ تحلينا كنافة غزاوية!! شربنا شايًا بالنعناع من يد ولاء

العسل ابنة أخ جميلة والتي استشهدت والدتها أثناء اجتياح غزّة في ٢٠٠٦ ، كانت الأجواء دافئة وحميمية قاب قوسين أو أكثر من الدموع . . معفرة بغبار الوداع الذي بدأ يعلو على السّطح رويدًا رويدًا . .!!

لملمت ولاء العسل كاسات الشّاي ، وجاءت الصغيرة نور ، وهي ابنة أخ جميلة أيضًا تحمل قصّة العصافير المحاصرة التي أهديتها إيّاها ، وجلستْ بجانبي ، وراودت جهاد على هاتفها لتلعب بالألعاب الموجودة على الهاتف . .

تُعلق ولاء :

- نامت والقصة على صدرها ولم ترض أن تعطيها لأحد ولا لأختها الصغيرة!!

**

بعد الشّاي وصلاة العصر كان (أبو عادل) في انتظارنا . قال إنّه سيأخذنا إلى بيت الشهيد نزار ريان .

عندما سمعت اسم نزار ريان . . تذكّرت تلك الأيام . . حيث كانت غزّة في جوف جهنّم والعالم كاهن يرصد الموت ويعد الموتى!!

مازلت أذكر وجه أبي حين سمع خبر اغتيال نزار ريان . . لقد تحوّل وجهه إلى سحابة دخان لم أتبيّن ملامحه . . ظلّ صامتاً . . وكم كان صمته يخيفني . . يمشي في الدّار . . يحرثها حرثاً من أولها لآخرها . . من هنا لهناك لا يبوح بما يخلع قلبه ويرهقه!!

أتلعثم كطفلة في بداية عهدها بالكلام . . أحاول أن أخفّف عنه بكلمات بلهاء . .

ها هي تلك الأيّام تعود إليّ في هذه اللحظة حيث كنّا ننام ولا

ننام . . نتسمر أمام شاشات التلفاز نلملم الشّظايا . . وندفن الشّهداء وننفض الركام لنستخرج الأحياء ونموت مع كلّ موت ألف موت ونلف الأطفال بقماط الشّهداء . . نركض من قناة إلى قناة ومن جريدة إلى جريدة ومن اسم إلى آخر ومن أمّ إلى أخرى!!

نركض مع الأبناء الناجين . . ندخل خلفهم . . نجري حول البيت المسوّى بالأرض ندور حول المنزل من كلّ الجهات . . نبحث بين الأنقاض . . نجد نزار ريان مهشّم الرّأس ممدداً بين الركام . . نمسك بيده . . كانتا مازالتا ساخنتين . . شعرنا بهما تشدان على أيدينا . . . نلقى في حجره أسامة بن زيد المليح الجسيم كأبيه . . . يبدأ قلبي يلهث وتدمع عيني بحرقة وأنا أسمعه يقول أوّل كلمة نطق بها عندما انطلق لسانه . . . أنا في حضن بابا!!

نراه في حضن أبيه كما أراد ، رأسه بين يدي والده الكبيرتين ورجلاه بين أرجل والده ، ومع أن رأسه بين يدي والده إلاّ أن ذلك لم يحل دون دخول شظيتين اخترقتا جبينه وجعلته غارقاً في دمائه!!

يواصل التلفاز عرض جنونه الذي لم يهدأ . . . أتوقف أنا وأبي مباشرة بجانب آية ذات الاثنى عشر ربيعاً وإلى جوارها نرى أمها وقد غطى الحجاب وجهها . . . في حجرها أسعد الذكي النظرات ذو العامّ الواحد ، لم يُفطم بعد . . . كنا نبحث عنهم واحداً . . واحداً . . نمسح الغبار العالق بوجوههم . . . يضع أبي يده تحت رأس غسان . . . يتأمل عينه التي فقأها الاحتلال في إحدى عمليات القنص يحمله بين ذراعيه . . . ويدور به في أرجاء غزّة يغني له أغاني الشّهداء والأمّهات الحزينات . . . يتذكّره ليلة فقد عينه . . . كان يشعر بالحزن لأنّه لن يستطيع القنص بعد ذلك . . . لكنّه وبعدما تحسّس وجهه وعرف أن

عينه اليسرى هي المصابة . . . استرجع أنفاسه وعرف أنّه لن يحتاج أن يغمض عينه!!

وبأنفاس لاهثة . . . نمسح الغبار عن وجه عبد القادر . . . وجدناه في حضن والدته . . . نراه يركض كما كان يفعل عندما يحدث قصف . . يختبئ في حضن أمه . . . أسمعه تسأله هل أنت خائف . . فيقول لا!! ولكني أريد أن أستشهد في حضنك مثل الولد إلّي استشهد في حضن أمه في الجريده!!

الجنازات حولنا وبين كلّ جنازة وجنازة ألمح عين أبي تستند على شواهد القبور . . ليتك معي يا أبي لتزور تلك الدّار . . ولتسمع ما أسمع . .

أخرج من تلك الأيّام على صوت أحمد دلّول مرافقنا اليوم الجمعة وهو يقول لنا بأنّ جد الرسول قد غزّ إصبعه في هذا المكان وقال هذه غزّة!!

أسمعه يقول : هذا شارع عمر المختار . .يُخرج يده من نافذة السيّارة ليشير إلى سجن السرايا . . .

تسأل آمال :

– هل من الممكن ننزل ولو لعشر دقائق؟

ننزل تباعاً وترتسم علامات الدهشة على وجوه الصّبايا . .تقول بثينة :

– وش ذا السّجن . .تراني ما أتحمّل . .أشعر بضيقة صدر . .الله أكبر عليهم اليهود!!

يعلق أحمد دلول :

– لِسّه ما شُوفْتي إِشِي ، هذا السّجن كان من أشهر سجون

الاحتلال الإسرائيليّ، وكان موجوداً من بداية الثلاثينات في عهد الانتداب البريطانيّ حيث كان الإنجليز يستخدمونه للتحقيق وسجن الثّوار الفلسطينيّين، وبعد هزيمة ٦٧ استخدمه اليهود كسجن للتحقيق مع الفدائيين والمنتمين للفصائل الفلسطينيّة . . . توغلنا سريعاً داخل سجن السرايا . . هناك أجزاء كثيرة من السّجن هدمت بفعل الهجمات الجوية الإسرائيليّة خلال العدوان المتكرّر على غزّة . . .

- تقدمنا قليلاً وكأننا ندخل نفقاً مظلماً، زنازين صغيرة تصطفّ، بجانب بعضها بعضاً لا تتسع الزّنزانة لأكثر من شخص . . مظلمة . . موحشة يلاعب الموت فيها ضحاياه . . . زنازين سرقت الأعمار الجميلة لخيرة الشّباب . . أتأمّل حيطان السّجن مازالت تحتفظ بكلمات السر التي خطها يوماً ما ظُفر سجين . خطها وكان على يقين بأنّ هذه الكلمات سترى النور . . ستكبر وتنبض بسرعة لتصرخ بأنّ الاحتلال لن يدوم . . . أفتح عيني أمررها على الكلمات التي طحنت الحزن وغيرت مجرى الألم

سجونكم إلى زوال . . . . .

يادامي العينين والكفين . . . إن الليل زائل

لا غرفة التّحقيق باقية ولا زرد السلاسل .

صعدنا إلى الطابق الثّاني حيث يوجد المسلخ بناء على تسمية السّجناء حيث كان الأسرى المشبوحون يُعلقون بعلاقات كالتي تستخدم في الملاحم للحيوانات . . .

نمر على زنازين تحتوي أرقام ٢١ ، ٢٢ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ يقول دلول هذه زنازين العشرينات سميت كذلك لأنها تحتوي على أرقام العشرينات!! في هذه الزّنازين سُجن فتحي الشقاقي وإبراهيم مقادمة

وصلاح شحادة والرنتيسي . وقف دلول أمام زنزانة رقم ٢٠ وقال هنا كان يقبع الشيخ أحمد ياسين!!

أركب الميكروباص ، أغمض عيني على حافة الدمع . . أترك خلفي العتمة والعزلة والنزف وتكسير العظام وقلع الأظافر .

أنا من أفرغت كلّ رسائل عمّي أبو رجا التي بعثها لأبي وهو في السّجن ، أنا من كتبت شهادته على الاحتلال بكل تفاصيلها وأنينها ، أنا من توغلت معه حتّى أقصى حدود الأصفاد ودرت في مدارات الزّنازين وأصغيت لحكايا رفاقه وهززت كلماته فصارت نواة ملتهبة لا أدري متى ستنفجر وأين!! أناالآن أخجل مما كتبت!! أغطي وجهي حياء عندما ألمح ضحكة ساخرة من حروفي!! أركض بعنف نحو الوراء . . أفتش أوراقي . . أرى عمّي (أبو رجا) يسحب الرّواية من يدي ويقول لي :

– ما هذا؟

خلفي سجن السرايا . . ركل كلّ ما تخيّلت وكتبت بخطوة واحدة . . بنظرة واحدة!! مهما قفزت فوق الخيال لم أكن لأصل إلى صورة الموت داخل السّجن!!

لم يلتفت أحد إلى أفكاري المتصارعة في جنباتي ، فقد كان الجميع مشغولاً بالحديث عما رأى ، ولم أعِ نفسي إلاّ وأنا قبالة بيت الشهيد نزار ريان .

. . وصلنا إلى دار الشهيد كان أبناؤه في انتظارنا ، شابان في مقتبل العمر يفيضان ذكاء وتهذيبًا وذوقًا ونورًا . . (بلال وبراء) صعدنا الدرجات الست الموصلة للفيلا التي بناها الأبناء بعد قصف منزلهم وتسويته بالأرض من قبل الاحتلال . في الدّاخل كان في استقبالنا

والدة نزار ريان وولاء ابنته الكبرى . يفضي باب المنزل الفخم إلى صالة واسعة يتوسطها درج التفافي ذو طراز معماري أنيق بدرابزين مزخرف ملوّن بالذّهبيّ المعتق . . صالة واسعة يلتمع فيها الرخام . . تفوح رائحة البخور من أرجاء الفيلا . . تحت الدرج الالتفافي طاولة طعام كبيرة وأريكتان متوسطتان في الحجم عليهما الكثير من الوسائد المطرزة بتطريز فلاّحي . . بديع . ثمّة قطع سجاد أنيقة متناثرة هنا وهناك . النّوافذ مكسوة بستائر ذات موديلات حديثة . . على الجدران انتشرت عدّة لوحات للقدس والأقصى والبحر . .!!

أتساءل بصمت :

– اليهود يقولون إن الفلسطينيّ يذهب للموت بسبب فقره وعجزه وقلة حيلته . . ما الذي يدعو نزار ريان هذا الفلسطينيّ الميسور الذي تهجع الدّنيا بين يديه ويلاعبها بأطراف أصابعه الصغيرة . . ما الذي يدعوه أن يترك رذاذ بحر غزّة الممزوج بعطر زهر البرتقال؟

– ما الذي يجعله يتهجد في محراب المقاومة والسّلاح؟

– ما الذي يجعله يواجه الموت بصدر عار ويترك كلّ هذا العز والثّراء؟

كان من حقّه أن يعيش وأن تتفتح الحياة بين يديه كزهرة نضرة يقطفها على مهل!! هذه الحياة بأموالها ودفئها ونعومتها أرادته لها لكنّه أراد حبيبة أخرى غطت عينيه بكفها المنقوش بالحِنّة . .!! هذه الحياة لم تغره رغم دفء حضنها ورقة ملمسها . . دفع يدها بعيدًا عنه وقيدها وانطلق . .

تنفّستُ عميقًا وقلتُ لحبيبة : نحن شعب لا يموت لأجل الموت . هذا الرّجل أحبّ الموت لينزع المرارة من حلق شعبه . . ليسلخ الذل

والعار عن وجهه ، لينفلق الصبح دون وجل من وجود المغتصب!!

**

ليحكي الموج حكاياه . .

جلسنا في غرفة مستطيلة واسعة ، أنيقة ، كلّ ما فيها ينطق بالشّوق لحبيب الدّار .

يصعب عليَّ الآن التحدّث عن ولاء التي كانت أوّل من استقبلنا داخل الفيلا وهي تحمل على يدها طفلة صغيرة . فتاة لم تتجاوز العشرين إلاّ بعام تَكوَّر الحزن بين يديها ليصير بحجم قطرة ندى . فتاة تحتاج منّي لوقت طويل وكتابة متأنية حتّى أعطيها حقها ، تمتلئ توهّجاً ، ترصد الموت بدقة ، تغمس مصيبتها في إناء الصّبر فتخرج المصيبة مزهرة ، ملوّنة بألوان الطيف مضمخة بالعطر .

لا أطيق النّظر إلى عينيها الباكيتين وفمها المبتسم . أطأطئ رأسي في الأرض!! فكيف استطاعت أن تجمع الضدين الدّمع والابتسامة؟ من يكفكف دمعها ويزرع روحها غيثًا؟

أقف أمام جرحها الذي يبرعم نصرًا!!

اتصلت بها أمها ظهرًا وقالت لها :

- تعالي يا ولاء حابّة أشوفك وأَشُوفْ «بِنْتكْ روان» فردَّت عليها ممازحة :

- بِدّيشْ آجي عِنْدْكُم أَحْسَنْ ما أَسْتَشْهِد!!

عندما أغلقتْ الهاتف شعرتْ بتأنيب ضمير ، فعادت واتصلت بأمها وقالت لها :

- يمّا سِلْفتِي(*) عِنْدي ، بْتِعْرِفي إنْها تَرْكَتْ بِيْتُها للمجاهدين لأنُّه بِيْتْها عِنْد الحَدود مَعِ اليَهُودَ ، هَلا بِدْها تِطْلَع عَشان تْجهِّز لْهُم الأَكِلْ

(*) سلفتي : زوجة أخو الزوج .

وتْنَظِّفِ البيْت، أوّل ما تُخْرُجْ رَحْ آجي عِنْدْكُم!! أغلقت سماعة الهاتف وفعلاً قامت وجهزت طفلتها، وهي تستعد للخروج وقفت على باب بيتها وإذ بِسلْفتِها تعود!!

قالت لها:

- لَوِيْن يا ولاء؟

- رايْحَة لَبِيْت أهلي.

قالت اِرجَعي!! قالت لها: لِيْش؟

سحبتها وأدخلتها البيت!! حينها بدأ نبض قلبها يقدح في جسدها نارًا حامية. وإذ بزوجها يأتي راكضًا يقول لها:

- تعالي يا ولاء.. اقترب أكثر حضنها بشدة والدموع في عينيه.. عندها أيقنت بالعصف الذي يأكل أضلاعها ويلويها ويشعلها حريقًا!!

قالت له فورًا:

- مِيْن ظَلّ مِن أَهْلي؟

سكت ولم يجب.. حضنها أكثر وراحت تعصر دمعها دمًا!!

ركضتْ بسرعة إلى التلفزيون، قطعت السلك الموصل بالكهرباء لأنها لا تريد أن ترى شيئًا ولا تريد أن تسمع (وائل الدحدوح) وهو ينقل الخبر لأنّ أسلوبه كان مؤلماً..

حينها تذكّرت وصية أمها:

- لو تضايقت يا ولاء قولي هذا الدّعاء «اللهم إنّي عبدك ابن عبدك..» وصارت تردّد الدّعاء وتقول:

- الله يْسَهِّلْ عليكِ يّما يا حبيبة قلبي.. الله يسهل عليكِ يا حبيبة قلبي.

لم تكن ساعتها بحاجة إلى أيّ شيء قدر حاجتها إلى حضن دافئ . . حضنتها زوجة أخيها وغفت في حضنها ، عندما نامت رأت والدها في المنام قالت له :

- والله يابا إلَك راس!!

قال لها :

- ليش؟

قالت له لإنهم قالوا لي ما إلَك راس!!

قال لها : لأ يابا هَيْ راسي . . هَيْ راسي!!

**

نزار ريان كان هو صاحب فكرة الصّمود في الأرض وعدم الخروج من البيوت . هو الذي بادر بالصعود إلى بيوت المهددين وعندما صار النّاس يتركون بيوتهم على أقل سبب وأتفهه بدأ بترويج فكرته والعمل من أجلها . كان يخرج لكلّ صلاة في المسجد . . ثمّ يعرج على أصحاب المحلات والدكاكين والبسطات يطالبهم بعدم ترك محلاتهم وأعمالهم ، يقنعهم أنّه ليس في غزّة مكان آمن وأنّ الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم .

كان يسأل أولاده دومًا :

من يحب أن يستشهد معي؟

كانوا يجيبونه جميعًا وبصوت واحد :

- نحن يا بابا . إمّا أن نعيش مع بعض أو نموت مع بعض!! حتّى أن صغيرهم قال له يومها : لا أستطيع أن أتخيّل الحياة دونك . . لا أتخيّل أن يمر يوم ولا أراك . . أريد أن أستشهد معك!!

كان يجعلهم يشتهون ما يشتهي . . ينفخ على أرواحهم المرتبكة

وطفولتهم الهشّة لتغدو شبهًا له ولروحه . كان يدربهم ويمنحهم فرصة كي يتخذوا القرارات . . يسألهم سؤالاً قد يبدو مُرًا لأطفال لكنّه بسؤاله كان يدربهم على الارتحال ويمنحهم شعورًا بالمحبة والأمان بجانبه!!

كان يحكي لهم كثيرًا عن بلدتهم نعليا القريبة من عسقلان ، كان يخبئ فيها حكاياته وأسراره وأشواقه . . كان يحكي عنها مع أنّه لم يولد فيها . . يجعلها تعج بالتفاصيل الرشيقة . . التي تجعلهم ينتمون لها ويشتاقون إليها حتّى إن الأولاد كانوا يقولون لبعضهم . .

– عندما نعود إلى نعليا سوف نقوم بقطف البرتقال والليمون وسنلعب في حُوْش دار جدي ونركض نركض في أرضنا التي يسرح فيها الخيّال ونخرج الماء من البئر ونزرع مع أبي وندرس وووووو!!

قنبلة واحدة تزن ٢ طن . . أتت على منزل نزار ريان الذي عشق وطنه وخاف ألاّ يموت شهيدًا . فعندما كان يمرض كانوا يشعرون بخوفه وقلقه وانكساره . . كانوا يعتقدون أنّه يخاف المرض ، لكنهم اكتشفوا أنّه يخاف الموت على الفراش . . كان يتمنّى أن يموت على يد اليهود!!

كان كالشّجرة العملاقة التي تظللهم بظلها . . يفتح نوافذهم كلّ صباح . . ليجدوه أمامهم فيرفعون رؤوسهم به . . كلّ شيء مع أبيهم كان له طعم مختلف . . كانوا يكبرون به ومعه . . عندما استُشهد شعرتْ ولاء بالشّجرة تتعرى من أوراقها ورائحتها . . لكنها اكتشفت بأنّه لم يمت . أنّه ينقر نافذتها كلّ صباح ، يدعو لها بالرضا يتأملها يحضنها . . يحملها فوق العاصفة ويقطع بها الطّريق الوعر!!

تذكر ولاء عندما حملت أمها بأخيها إبراهيم رأى والدها رؤيا وقال لأمها :

– إجاني كَبْش كْبِير يا أمّ بلال!!

فلما ولدته أسماه إبراهيم وتعلق به كثيرًا وبدأ يجهزه منذ صغره للجهاد!!

في الليلة التي سبقت استشهاده . . جهزت له أمها الحمام والشامبو والعطور وكريم للشعر وعدة الحلاقة وبعد أن انتهى من الحمام عَطَّرَتْه وأَلْبَسَتْهُ وأعطته كريم شعر . . قال لها :

– يمّا يا حبيبتي أنا مِشْ تاع الأشياء هاي . .!! لكنّه لم يحب أن يكسر خاطرها . . أخذ الكريم ودهن به شعره وقال لها :

– يلّلا ماهو آخر حمام!! في هذه الليلة طلبت منه أن ينام عندها . . على سريرها . . وذهب صباحًا . . وفي يده ممحاة يمحو خطايا أمة كاملة!!

**

كثير من البيوت عندما تدخلها تحس أن سعيك إليها كان خسارًا ووقتك ذهب ضياعًا ، لكنّ السعي في بيوت غزّة لا يزيدك إلاّ انتصارًا وابتهاجًا ، فما أن أدخل بيتاً من بيوتها حتّى ينفذ الحبّ ويتسلل كما الضّوء برقة وعمق . .فيتهاوى قلبي ويقطر عشقاً للبقاء والمكوث أطول فترة ممكنة!!

قبل أن ننهي زيارتنا لبيت الشهيد نزار ريان وقبل أن تبرق عيني مُنى سكيك بما يفيد :

– يلّلا يا جماعة بلَّشَتْ الشّمس تُغْرُب ولازم نِلْحَق نْوَدِّيكم على محررة حطين في هذه اللحظة الحاسمة ونحن لا نملك من أمرنا شيئًا ، ونحن نرتشف قهوة مع السّلامة دخل براء وبلال ، توسّلنا لمنى أن تبقينا قليلاً لنجيب على أسئلة لا نجد لها إجابات .

في هذه اللحظة يرقص قلبي ، ألصق نفسي بالمقعد أكثر وأكثر ، أشعر بسعادة طفلة وضعت على أرجوحة أو أعيدت لها لعبتها بعدما

أخذت منها . أستدير بسرعة نحوهما وأستنفر أذنيّ لأسمع المزيد .

أسمع بقية حكاية إبراهيم . . . . .

. . خرج إبراهيم إلى عمليته مرتين قبل أن تكتب له الشّهادة!! في كلّ مرّة كان يعود سالمًا وعنده جِرار من الأخبار . . مليئة بالغرائب والعجائب ، يرجع يحدثهم بما حصل معه ، عندما عاد في المرة الثّانية وكان الكلّ بانتظار خبر استشهاده حتّى غفت عيونهم ولم يستيقظوا إلاّ على صوته قادماً مع أذان الفجر!! قال له براء حينها :

- لِسّه مِشْ مُسْتَشهِدا!! بِدّيْش أَسَلِّم عليك!!

حينها ابتسم ابتسامة تنير وجهه لأنّه كان حزيناً لعدم استشهاده!!

(أنتفضُ في مقعدي وأقول في نفسي : كنتَ تنتظر خبر استشهاده ، وكان خبر استشهاده أحبّ إليك من عودته سالمًا!! كيف استطعت أن تصل إلى هذه المرحلة التي تختلط فيها المحبة بالقسوة والرحمة . . بالفراق؟)

لكنّه لم يلبث أن خرج في اليوم التّالي وقد تمّ تجهيزه لأوّل عمليّة اقتحام لمستوطنة في انتفاضة الأقصى ، مُغتصَبَة إيلي سيناي المحررة الآن ، وفعلاً قام بالعمليّة التي استمرّت أربع ساعات ونصف على الأقل وأذاعت الأخبار خبر استشهاد منفّذي العمليّة ومن ضمنهم إبراهيم ، ولم يكد الخبر ينتشر حتّى كانت زغرودة تنساب ، تخترق الأذان ، زغرودة يستفيق منها النائم والغفلان ، زغرودة يرتاب منها اليهود مذ وطئوا هذه الأرض ، إنّها زغرودة الأم!!

أتوقف بنظري قليلاً عند الصّبايا . . أعلق :

- ألم أقل لكم إنّها المرأة!! إنّها المرأة مرّة ثانية فهي المورّثة الحقيقية للمقاومة!!

تتسلم العائلة جثمان إبراهيم ، ينظرون إليه ممدَّدًا بينهم ، أبكي بصمت وأتمتم :

- من الذي قتلك أيّها الفتى الصغير؟ حبّ الحبيبة أم جرعة ضيم من كأس الطغاة؟

هذا الجسد الممدد أمامهم لبس ثوبًا ولا أجمل ، ثوبًا من رصاص ، وضع براء يده ليمسح رأسه فلمس رصاصتين تغفوان في مقدمة شعره فأخذ يبكي . . همس في أذنه :

- آه لو تدري كم من الدموع أحتاج أن أذرف كي أتخلص من أُجاجي؟ وكم من الدماء أحتاج حتّى أتطهر وأرتقي كما ارتقيت؟

أمسك يده التي كانت على هيئة التشهد . . قبلها . . . سحبه مَنْ خلفه ليأخذوا دورهم في وداع إبراهيم!!

**

في اليوم الثّاني لاستشهاد العائلة قالت ولاء لأخيها قبل الدفن :

- يا خُوي بَتْرَجّاك ما تِدِفْنوا أهلي قَبِلْ ما أَوَدّْعْهم وأشوفْهم ، مِنْشان الله!! كلّ من حوله يهمس في أذنه :

- لا تسمع كلامها ، لا تستطيع أن تحتمل المشهد ، ستّة عشر فردًا من عائلتها! إيّاك أن تسمع لها ، الأحْسَن ما تْشَوْفْهُم . لكنّها قطعة منه ، وهي ما بقي له من الأخوات ، وحيدة صارت ، لن يرفض لها طلبًا وأمر الله قد نفذ فقرّر أن يلبي لها طلبها!

وعدها وقال لها :

- خَلَصْ لازم أَخَلِّيكِ تْشُوفِيهُم . وفتح لها باب الثلاّجة على أحبّ الناس إلى قلبها ، والله ما سمع منها كلمة شكوى ولا ألم ، لم يسمع غير كلمة الحمد لله ، الحمد لله . يرى عينيها المحمرتين فيشتعل

صدره جمرًا ، يحضنها ويمسك بيدها ، يقول لها :

– هاي أمّي وهذا أبوي ، هذا عبود وهَي أسعد كأنه نايم ، هي آيه كأنّها عروس ، وهي حليمة وريم جَنْبْ بَعَضْ زَيْ ما كانوا لـمّا يِرْجَعوا من روضة الخلفاء ، وهي عائشة أصغر البنات ، حبيبة أبي المدللة ، هي مريم ، وزينب ، غسان ، وعبد القادر وووووووو .

كان نزار ريان يقول دوماً : ماذا يضير لو أن كلّ أهل غزّة ماتوا في سبيل مسلم يحيى بكرامة؟ ماذا يضير لو أن أهل غزّة ماتوا في سبيل الأقصى؟ كان يرد على الذين يقولون : لِيْشْ إِحْنا نْمُوْت وْغِيْرنا يْعِيْش .

كنا ننتظر نهاية هذا الرّجل . . . ونعرف مصيره . . نفكر في كلّ الاحتمالات . . أن يستشهد وهو في طريقه إلى الصلاة لأنّه كان يخرج بلا حراسة! أو يستشهد وهو يشيع أحد جثامين الشّهداء!! لكن لم نكن نتخيّل أن تكون النهاية بهذه البشاعه والقسوة . . . نهاية لا تحتمل الإضافات . . فليس هناك أسوأ من الذي كان!!

خرجنا من دار نزار ريان ، ركبت الميكروباص . . شعرت أن الحياة التي أعيش قد لبدت أفكاري ومشاعري . . هنا عرفتُ كيف أعيش البرد والدفء في وقت واحد!! عرفت كيف أقابل رعشة الموت بقوّة . ونكاية بالموت الذي يتربّص بنا تعلّمت اليوم أن أغازله وأطلبه ممزوجًا وبرشقات رصاص صهيوني"!! هذا البيت سحبني بالقوة من يدي نحو فضاء واسع ليس له حدود . . فضاء من الحنين والإصرار والدهشة . سكّر أبواب الغفلة . . وفتح بابًا على وطن تستهويه رفرفات الفراشات!!

لكم وحدكم ترقص العصافير ويرمش ويهفو الوطن لنظرة من عيونكم!!

العودة إلى عمّان
هي

بعد ساعات قليلة . . سينتهي كلّ شيء . . سنترك ريشة الألوان التي منحتنا ألوان البهجة نغرق في اللون حتّى لكأننا نصير جزءاً منه!! .

بعد ستّ ساعات من الآن . . سنرحل . . سنعود من حيثُ أتينا . . سنعود إلى التّيه . . والفراغ والأشواق التي تقرع القلوب برذاذ الحلم!! سينتهي كلّ شيء ونترك الرؤوس المرتفعة والحيطان الصامدة وخرخشات الحكايا ولون البحر ونثار رمل غزّة الذّهبيّ . .!!

من أين أبدأ النهاية؟

ها أنا أجمع الحكايا . . أربطها كحزمة بخيط من نور وشوق . . ألقيها في عربة الذّاكرة لتعود إلي محملة بروائح الياسمين وزهر الليمون والبرتقال .

ها نحن نعود ككلّ مساء إلى بيت جميلة الشنطي . . حيث الكانون المشتعل بالحبّ والدفء في ساحة الدّار وحيث لمّة الأهل والأحباب وعصير الفراولة بالموز من يد ولاء العسل . نجلس في صحبتهم بعد يوم ملوّن تشتعل فيه الحرائق وسحر الحكايا وعطر الشّهادة والشّهداء . .!!

غزة مدينة خارج منطق الواقع والمعقول والمفروض . . وحسابات القتلة والخونة والمستسلمين . . عندما قدمتُ غزّة كنتُ ممتلئة بها ، والآن وأنا أهم بالرحيل غير مصدقة من فرط انكساري ولوعتي . . تفيض الأنوار والأحلام ورائحة الانتصار . .

من شدة ألمي لا أستطيع أن أقف على قدمي . . كيف سأرحل بمحض إرادتي . . كيف سأتجاهل ملامحي التي استعدتها هنا . .؟ كيف سألبس قناعي مرّة أخرى حيث الانطفاء والذّاكرة الذابلة والحكايا الباهتة . . حيث المنفى يزحف علينا بريحه الباردة ووخزه المؤلم ورائحته النتنة . . كأنه الموت!!

لا شيء هنا إلاّ ويشدك إلى ذراعيه . . يشبك يديه بقوّة حول الخاصرة ليزرع فيك شوقاً وناراً ووردا ً وانتصاباً . .

مدينتي الحبيبة :

أعرف أنّه لا بدّ من الرحيل . . سأودعك . . سأفتقدك . . سنعود إلى حياتنا السابقة ويصبح كلّ شيء لدينا كما تعودنا بلا طعم ولا رائحة . . لكنّني على يقين بأنك ستلحقين بنا . . ستمسحين على رؤوسنا التي تسامت وارتقت لأوّل مرة!! لأوّل مرّة ستعزفين لنا معزوفة تقرب المسافات . . ستلحقين بنا بملامحك الدافئة وأمواجك ورمالك الذّهبيّة وحروفك المنتصبة بلون الدم . . بقبور الشّهداء وحكاياهم . . هذا الحبل السري لن ينقطع بصرخة الوداع وبالغياب . . لن نخون ترابك المعطر . . ولن تخوني عشقنا!!

ستقبلين أن تسكني في عروقنا وتسري في شرايينا . . ستمسكين بأيدينا لنعبر طريقاً طويلاً نؤثثه بنبض مختلف ولذة لم يذقها إلاّ من مشى على ترابك!!

تُخرجني جميلة من حرقتي ولهفتي وهواجسي . . تحمل أنفاسها المتقطعة وصلواتها وبياض فجرها لتنثره علينا . . أتشبثُ بالحكاية التي لم أسمع من قبل . . أرمي بمسحوق الوداع من شقوق النافذة . . ثمّ أفتح النافذة على مصراعيها وأنظر إلى جميلة وهي تقود المظاهرة النسائية لتخليص سبعين مقاوماً محاصرًا في مسجد النصر في بيت حانون!!

أراها تطوي سجادة صلاتها وتنتظر بلورة الفجر كي تلمع وزقزقة العصافير كي تعلن عن صباح الجمعة ٢٠٠٦/١١/٣ لتلحق برفيقاتها اللواتي سيكُنّ معها .

ترفض أن تتبع وتنزلق نحو مخاوفها التي تعبث بعقلها وتسرق اطمئنانها . . تمشي وتمشي ومع أوّل خيوط الشّمس . . تفكر :

- من يا ترى ستخرج من النّساء في هذا الصّباح؟

- هل سيفعلنها يا ترى؟ هل سيقفزن فوق المستحيل والتقاليد ويتركن فراشهنّ الوثير وأزواجهنّ وأطفالهنّ؟

- هل سيرتُقون مشاعرهم المتضاربة؟

تصل إلى المكان ومازالت الأوهام تحاصرها . . تجيب نظرات عيونهم المدجّجة بالتصميم ، المُحَمَّلة بدخان مرهق ونار مشتعلة هناك في مسجد النصر في بيت حانون ، مئات من النّساء خرجن ووصلن قبلها . . سبقنها إلى مواجهة الظلم والموت ، تغمض عينيها فرحًا عندما تسمع :

- (الله أكبر ، قادمون يا بيت حانون)

تقرأ في تفاصيل ملامحهم قلباً يتعلق بصبح قادم . .

تنظر إليهم غير مصدقة . . إنّها تراهم يشبهون بعضهم بعضاً في الملامح وحرارة النبض ودفق الدم . . تأوهت فرحاً لتلك القوّة التي

نفخها الله في أرواحهم وسكتت بدهشة عندما رأتهم بأم عينها يمسكون بحبل اليقين .

خمسمئة امرأة خرجن من جباليا وبيت حانون والمشروع . . خرجن صباحاً قبل طلوع الشّمس ، كلّ واحدة خرجت وتركت وراءها طفلاً في المهد ، ويد تمتد لتمسك بالثوب المغادر من الخلف ، وعين تشبه عين العصفور المرتعش المبتل وأصداء ، أصوات لكلمة ماما تَرِنُّ في الأذن كموسيقى . . يتركن كلّ شيء ، يغلقن الأبواب وينسَبْنَ في الطرقات من كلّ حدب وصوب كماء رقراق . . شفاف . . عذب يسحب الهذيان والاستسلام والفجيعة!!

في السّاعة السّادسة والنصف اصطففن في صفوف بعضها خلف بعض . . تخترق الحصار العسكري الصّهيونيّ لبيت حانون من أجل إنقاذ أكثر من سبعين مقاومًا فلسطينيّاً محاصرًا داخل المسجد!!

سبعون شعلة . . لو انطفأت لطال أمد الظّلمة . .

تقول جميلة :

– لو صار لهم مكروه لانتهت كتائب عز الدين القسام . . لذا كان لابد من عمل يستعصي على الرجال ولا يمكن أن تقوم به إلاّ المرأة!!

أي قوّة تلك التي تمارسها هؤلاء النّسوة . . هاهي تخسر أمومة لتكسب أخرى . . تخرج بلا مقدمات بكل قواها العقلية وأحلامها المدجّجة بالخوف والحب!!

ها هي تفتح أبواباً جديدة وتتخلص من إرث ظالم يغلق على المرأة بابها ويسرق منها قرارها وحريتها وإصرارها!!

وبعد ذلك يقولون إن أصحاب اللحى يعيدون المرأة إلى عصر الحريم!!

تخترق النّسوة الحصار العسكري الصّهيونيّ . . وتنتظم في مسيرة شجعت عدداً من الصحفيين المحليين والأجانب على التسلل إلى بيت حانون حيث قوّات الاحتلال برشاشاتها ودباباتها وطيرانها المحلق فوق ارتفاعات منخفضة . .

الرصاصات تمر فوق رؤوسهن مباشرة . . يخفضن رؤوسهن قليلاً لتمر الرصاصة بسلاسة ، الطيران فوقهن كما الضباب المنخفض في أحلك أيّام الشّتاء . . لا يرين ولا يسمعن إلاّ صوته . . التكبير يتقاطع مع أصوات الرصاص!!

ينادي جنود الاحتلال على النّساء عبر مكبرات الصوت . . يحذرونهن من الاقتراب . يدعونهن للعودة إلى منازلهم . . لكنّ النّساء لم يتوقفن ، لم يعبأن بالتهديد ولا الوعيد حينها أطلقت قوّات الاحتلال نيران رشاشاتها . . استُشهدت سيدتان وأصيبت ثماني عشرة امرأة بينهن ثلاثة فقدن أطرافهن السفلى . . وأخذن يقتربن أكثر وأكثر حتّى صرنَ على بعد ١٠٠ متر من الجنود ، ساعتها استغلت النّساء الفرصة حيث حدث هرج ومرج وبخفة وحيلة ودون أن يلتفت الجنود أو يشعروا أدخلوا ملابس نسائية للمقاومين وخرج المقاومون دون أن يشعر بهم أحد ، تمكنوا من الانسحاب ولم يفطن الجنود للأمر إلاّ بعد انسحاب المقاومين بالكامل . . حينها أصيب الاحتلال بلوثة . . انسحبت النّساء تحت وابل الرصاص الكثيف لكنهنّ نجحن في تخليص سبعين مقاومًا!!

**

تسقط الساعة في بحر اليوم التالي . . تسقط في الثانية عشر ليلاً . . ننام ولا ننام . . نصحو فجراً وإذ بصناديق البندورة والبرتقال

والفليفلة والليمون والفراولة بانتظارنا حتّى نأخذ منها للأهل والأحباب . . .

أحدّق في البندورة والبرتقال والفروالة ، يقشعر بدني حين أسمع صوت الحبّ وأرى منديلاً يمسح عرق ظهيرة الغربة . أحس بالامتلاء . . فأنا محاطة برنين اللهفة ومكسوّة بشال الحنان؟ إنّهم يغدقون علينا بكل شيء كما تغدق على طفلك المدلل!!

بالأمس عندما دخلنا محررة حطين . . وتجولنا في البيوت البلاستيكية . . قطفنا بندورة وفليفلة وبرتقالاً وبازيلا وليمونًا وخيارًا ، تصورنا مع الخيار الطبيعي وجلسنا القرفصاء مع البندورة ، أكلنا منها دون أن نغسلها . . فهي خالية من الكيماويات ، حجمها طبيعي وطعمها حلو . . تقرش قرشًا . رائحتها لم أشمّ مثلها في حياتي فيها رائحة الأرض التي تنتظر أحبابها ، أسمع فيها صوتاً مبحوحاً أعياه النداء!! . . كانت فاطمة شراب ومؤمنة الرقب وأبو عادل يقطفون يعبئون الخضراوات والفواكه في أكياس! لم نكن نعرف أنّها لنا!!

قالت جميلة :

– يا جماعة خُذوا مَعْكُم . لو شَفْتُو الْمصريّات شُو عَملوا!!

شُو عَملوا؟

– أخذوا الخيار والفليفلة والبندورة . . قطعوها قطعًا صغيرة جداً جداً وكانوا يُضَيِّفون النّاس شَقْفة شَقْفة[1] ويقولون لهم : هذي شكولاته غزّة!!

أجلس عند باب البيت فيما الصّبايا يحاولن تدبير أمر هذه العطايا

---

(١) شقفة : قطعة .

المعجونة بالحبّ والشّوق واللهفة في الحقائب . . أتأمّل البرتقال المعبأ في الصناديق . . أشعر بارتباك عذب لذيذ كما عاشقة تفاجأ بعيون عاشقها . . ألتفت نحو السّماء . . أشكر ربي على لحظة تذوقت حلاوتها وغمرتني بدفئها . . شعرت بالحياة تدب فيَّ من جديد . . تبدأ من أطرافي وتتسرّب إلى كلّ أنحاء جسدي وتنعش قلبي الواهن بلمسات برتقالية . . كان البرتقال يزحف ويزحف . يعيدني إلى حكايا أبي عن برتقال فلسطين ، أتذكّر إحساسه وهو يحكي ولا أتذكّر كلماته . . أتذكّر ملامح عينيه وانكسارهما وذهولهما ولون وجهه المحمر وبرودة أصابعه . فأهتز لمشهد البرتقال وهو يزحف بقوّة نحوي!!

كان البرتقال الذي حكى عنه أبي . . يشف من وراء برتقال غزّة . . كانت البرتقالة لامعة مستسلمة لأصابع محبة عاشقة تقطر فرحاً ، وتتمايل طرباً . ملامح البرتقالة البكر انعكست على ملامح برتقالي الذي أراه!! بقيت أتأمّلها وقتاً طويلاً . . برتقالة تدحرجت من فلسطين . . تلقفها أبي في ليبيا . . ثمّ أمسكتُ بها أنا في غزّة . . تمنيّت لو كان أبي معي . . ليرى ما يشتهي . . وليسمع رفرفات البرتقال وهي تتوغل بعيداً في الربط بين ذاكرتين . .!!

أترك كلّ شيء!! لا أريد فراولة ولا خيارًا ولا بندورة!! فقط أريد برتقالة . . كانت تتأرجح على حبل الشّوق لمدّة أربعين عاماً أحملها لأبي لأنّه سيأكلها بقشورها!!

انتهت في عمّان

٢٠١٣/٦/٣٠

GOD, I LAID FEMALE





رَبِّ إنّي وضعتها أنثى

إنّه الصباح الأوّل في غزّة، حيث البحر يجيد الغناء ويحتسي خمر الغياب!! حيث الشوك والعلّيق صار وردًا .. إنّه صباحي الأبهى المتصبّب شوقًا وعشقًا. في هذا الصباح أهشّ على وجعي واغترابي وأستر عورة لطالما انكشفت، وأرمّم وجهًا منحوتًا من الركام والشظايا!!

إنّه الصباح البحريّ السحريّ الذهبيّ، الّذي أطفأ نار الشكّ حتّى غدا قلبي يقينًا .. والحكايا والأحلام .. في لحظة تفتّحت وصارت وردًا وعبيرًا.

تنتابني مشاعر متناقضة!! أأفرح لأنّني أستنشق هواء وطني وأمشي على ترابه!! أم أحزن على غربة أبي الطويلة ومنفاه القسريّ وعمره الّذي ضاع بين غربة وشوق!!





